

الحياة
عالم
الدين

تصنيف

الإمام أبو حامد محمد بن محمد القزويني

(200.0-60.0)

432

المعنى عنه تحمل الأسفار في الأسفار
في خزنة ما في الإلهيا وميه الإلهيا
للعلامة زين الدين أبي الفضل العراقي

(A-1-Y30)

کار این خرم

أَحْيَاءُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغنى عن حمل الأسياف في الأسياف

في تخريج ما في الإجابة من الأخبار

للعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماماً للنفع أتحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء ببعض أهل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله
بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الإسماء عن إنكالات الإجابة للإمام العزالي، رد به اعتراضات
أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الحمد لله

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش فى مبادئ إشراق أنواره الأحداق والنواظر ، المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر ، مقلب القلوب وغفار الذنوب ، وستار العيوب ، ومفرج الكرب .

والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين . وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .
أما بعد : فشرف الإنسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التى هى فى الدنيا جماله وكاله ونفخه ، وفى الآخرة عذته وذخره ، وإنما استعد المعرفة بقلبه لا بجوارحه من جوارحه ؛ فالقلب هو العالم بالله . وهو المتقرب إلى الله ؛ وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات ، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفليح إذا زكاه ، وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه ؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ؛ وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه ، وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذى إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه . وحيلولته بأن بمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تعلقه بين أصبعين مع أصابع الرحمن ، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين ، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين . ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصده لما يلوح من خزان الملكوت عليه وفيه ، فهو بمن قال الله تعالى فيه ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه

أصل الدين وأساس طريق السالكين .

ولإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات - وهو العلم الظاهر ، ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات - وهو العلم الباطن ؛ فلا بد أن نقدم عليه كتابين : كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات .

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام ، فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب . ويقال في حقول العلماء من يحيط بهذه الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسماء واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق بغرضنا :

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين (أحدهما) اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للميت . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك ؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن آدميين . (والمعنى الثاني) هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسماني ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ؛ فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة . أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين : (أحدهما) أنه متعلق بعلوم المكشوفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة (والثاني) أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ^(١) فليس لغیره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : (أحدهما) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة السروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ؛ فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ

حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح . وغيره . فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم ، فعلمت أنه يوحى إليه . . الحديث ، وقد تقدم .

الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً . (المعنى الثاني) هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضاً مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان : (أحدهما) أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »^(١) . (المعنى الثاني) هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها ﴿ يأيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ؛ فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها سميت النفس اللوامة ؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الامارة بالسوء . قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وقد يجوز أن يقال : المراد بالامارة بالسوء : هى النفس بالمعنى الأول ، فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من حملتها معنيان : (أحدهما) أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى يحله القلب . (والثانى) أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله العقل^(٢) : فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب معه . وفى الخبر : أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ... الحديث .

فإذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسدى ، والروح الجسدى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة بحملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة ، والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين ،

(١) حديث « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » أخرجه البيهقي فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين . (٢) حديث « أول ما خلق الله العقل » وفى الخبر أنه قال له : أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر ... الحديث « تقدم فى العلم .

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ؛ فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون: هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس ، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسماء ، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها وملكتها وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش ، والصدر بالكبرى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرى ، ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكريهه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكبرى بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضا لا يليق بفرصنا فلنبجازه .

بيان جنود القلب

قال الله تعالى ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ فله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بفرصنا . وله جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر ، وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان ، فهذا معنى الجند : فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها والمردد لها ، وقد خلقت بمجولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا ، بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإنما يفترقان فى شئ : وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب ، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه ، فلأجله خلقت القلوب . قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وإنما مركبه البدن وزاده العلم . وإنما الأسباب التى توصله إلى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح ، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا : لأنها أدنى المنزلتين ، فاضطر إلى أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه ، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافق من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين : باطن ، وهو الشهوة . وظاهر ، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء ، تخلق فى القلب من الشهوات ما يحتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن ، وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات ويمتقم من الأعداء . وظاهر ،

وهو اليد والرجل اللذين بهما يعمل بمقتضى الغضب ، وكل ذلك بأمر خارجة ؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها ، ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه ، فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن ، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق ؛ وظاهر ، وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة . وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به .

الجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث : إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المناهي كالغضب ، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة . والثاني : هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة : وهى جنود مبنوثة فى سائر الأعضاء لاسيما العضلات منها والأتوار . والثالث : هو المدرك المتعريف للأشياء كالجواسيس : وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وهى مبنوثة فى أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود ، فإن قوة البطش إنما هى بالأصابع ، وقوة البصر إنما هى بالعين ، وكذا سائر القوى ، ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة أعنى الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة ، وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهى الخواص الخمس : أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة : وهى تجاويف الدماغ ، وهى أيضا خمسة ، فإن الإنسان بعد رؤية الشئ يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شئ يحفظه وهو الجند الحافظ ، ثم يتفكر فيما يحفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه ، ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ؛ ففى الباطن حس مشترك وتخييل وتفكر وتذكر وحفظ ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخييل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه ؛ فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأما كتبها أيضا باطنه ، فهذه هى أقسام جنود القلب ، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن يذفع به الأقوياء والفحول من العلماء ، ولكننا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقترب ذلك من أفهامهم .

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جنود الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما ، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه وتحسن مرافقتهم فى السفر الذى هو بصده ، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه ، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله إلى سعادة الأبد ، وللقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكير ، كما سيأتى شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان . فإن ترك الاستعانة وساط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرا نائبا ، وذلك حالة أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يشتغل العقل لإليه ، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أن نقول : مثل نفس الإنسان فى بدنه أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ويملكته

فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها ، وجوارحها وقواها بمنزلة الصانع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل . والشهوة له كالعبد السوم يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشراهلل والسم القاتل ، وديده وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة ، كما أن الوائى فى مملكته إذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته فى أن الصواب فى تقيض رأيه ، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد مسوسا لاسائسا ، ومأمورا مدبرا لأأميرا مدبرا ، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه ؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمية الغضب ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوئه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقييح مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض فى كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى .

المثال الثانى : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل - أعنى المدرك - من الإنسان كملك مدبر لها ، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة بكنوده وأعوانه ، وأعضاؤه كرعيتيه ، والنفس الأماراة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى إهلاك رعيتيه ، فصار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كقيم فيه مرابط ، فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى ﴿ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وإن ضيع ثغره وأهمل رعيتيه ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة : ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجهر الكسير اليوم أنتقم منك ^(١) كما ورد فى الخبر . وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ^(٢) .

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه ، ففى كان الفارس حاذقا وفرسه مروصا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ، ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب ، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكته وكلال بصيرته ، وجماع الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج ، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه .

بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى ؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس

(١) حديث . يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ... الخبر ، لم أجده له أصلا

(٢) حديث « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقى فى الرهد من حديث جابر وقال : هذا

إسناد فيه ضعف .

الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلها فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن .
فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى علم وإرادة :

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والآخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركها فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة ، وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص لحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس . وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر .

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة . فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة ، والعقل يريد لها ويطلبها ويبدل المال فيها . والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والعقل يبعد في نفسه زاجرا عنها ، وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .

فإذن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبي في أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي .

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان ؛ إحداهما : أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية : أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها . وهذه هي غاية درجة الإنسانية . ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها ؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة ، وبعضهم بتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول . وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها . وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بكشف إلهي في أسرع وقت ، وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقى هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنزل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي ، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من

العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها ^(١) » ، والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة - كما سيأتي بيانه - وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له » ؟ وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا ^(٢) » ، وبقوله تعالى « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ^(٣) » ، كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم - تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا - ولكن حجب الخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالآواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ^(٤) » ، ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق . وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية السكر والفرز وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية ، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقها في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين . والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار حيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الخائط ، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء .

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة ؛ فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ومن صرف همه إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمرا كثورا ، وإما شرها كخنزير . وإما ضريا ككلب أو سنور ، أو حقودا كجمل . أو متكبرا كنمر ، أو ذاروغان كععلب ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد .

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى - كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر - فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب . وجلة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده ، والدار الآخرة مستقره ، والدنيا منزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء

(١) حديث « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم .
 (٢) حديث « يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ... الحديث » لم أجده له أصلا إلا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا . (٣) حديث « يقول الله من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام .

خدمه . فيستقر هو - أعنى المدرك من الإنسان - في القلب الذى هو وسط مملكته كالمملك ، ويجرى القوه الخيالية المدودة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوه الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ، ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ، ويجرى الاعضاء المتحركة مجرى كتابه ، ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الاصقاع ؛ فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، والشم بعالم الروائح . وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوه الخيالية التى هى كصاحب البريد ، ويسلها صاحب البريد إلى الخازن وهى الحافظة ، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذى هو بصدده ، وقمع عدوه الذى هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لـكن في مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة ، أو في عماره طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة ؛ كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله ته الى مضيعها لجنود الله تعالى ناصرا لأعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد . نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الذى ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : الإنسان عينا هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك ^(١) فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وقالت : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال على رضى الله عنه في تمثيل القلوب : إن لله تعالى في أرضه آنية وهى القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفها وأصلها ؛ ثم فسره فقال : أصلها في الدين وأصفها في اليقين وأرقها على الإخوان ، وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال أبو بن كعب رضى الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى ﴿ في لوح محفوظ ﴾ وهو قلب المؤمن . وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى فهذه أمثلة القلب .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثله

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى : الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية . فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهم على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره . ومن حيث إنه في نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويجب الاستيلاء ، والاستعلاء ، والتخصص ، والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن ربة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعرفة ، والإحاطة بمخائى الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية ، وفي الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في

(١) حديث عائشة : الإنسان عينا هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ... الحديث . أخرجه أبو نعيم في الطب النبوى والطبرانى في مسند الشاميين والبيهقى في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله ولائع من حديث أبي ذر : وأما الأذن فقمع وأما العين فقره لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء .

استتباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر في معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة - أعنى الربانية والشیطانية والسبعية والبهيمية - وكل ذلك بمجموع في القلب . فكأن المجموع في إهاب الإنسان : خنزير وکلب وشیطان وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً لونه وشكله وصورته بل لجشعه وکابه وحرصه .

والکلب هو الغضب فإن السبع الضارى والکلب العقور ليس کلباً وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر ، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبهه . فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنکر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشیطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه .

والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبیسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم ، وإن عجز عن قهرها قهره واستخدمه ، فلا يزال فى استتباط الحيل وتدقيق الفكر ليشيع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائماً فى عبادة كلب وخنزير .

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء ، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه وكشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للكاشفين لما فى النوم أوفى اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين یدى خنزير ساجداً له مرة وراكعاً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره . فهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور فى خدمته وإحضار شهوته ، أو رأى نفسه ماثلاً بين یدى كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدقاً بالفكر فى حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع فى مسرة شيطانه فإنه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبيعهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار فى عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكاً والرب مريباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا وريناً مهلكاً للقلب وميتسلاً له ، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهمكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشهامة وغيرها . وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطعة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها . وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبیس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها . ولوعكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية : لاستقر فى القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بمقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هى عليه ، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ، والاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولا تنتشر إليه

من ضبط خنزير الشهوة وردّه إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردّها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبيل والشهامة والوقار وغيرها :

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل واصله إلى القلب . أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياءً حتى يتلأل فيه جليلة الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه » (١) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ » (٢) ، وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يترامى عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال عز وجل ﴿ أن لو نشاء أصبنهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كإرباط السماع بالتقوى فقال تعالى ﴿ واتقوا الله واسمعوا - واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ ومهما تراكت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهن بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها . فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿ يتسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة ،

قال ميمون بن مهران : إذا أذن العبد ذنباً نكت في قلبه نكته سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل ، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس » (٣) ، فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له فنأقبل على المعاصي أسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة وحاً أثرها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح ، فإنها لا تخلو عن كدورة . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق » (٤) ، فثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القميص والصدید فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ؟ وفي رواية : ذهبت به . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بلقاء الله تعالى .

(١) حديث : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد . (٢) حديث : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ . لم أجده له أصلاً . (٣) حديث : « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر » الحديث . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه . (٤) حديث : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري . وقد تقدم .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ؛ أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهى المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات ؛ فكما أن المتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها ، وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهى ثلاثة أمور . فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه .

فالعلم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة .

وكما أن القبض مثلاً يستدعى (قابضاً) كاليد (ومقبوضاً) كالسيف ، ووصولاً بين السيف واليد - بحصول السيف في اليد - ويسمى (قبضاً) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علماً ، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلًا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب ، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والاخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب ، فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتشبهه بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له . وكذلك حصول مثال مطابق للحقيقة المعلوم في القلب يسمى علماً .

وكما أن المرآة لا تكشف فيها الصورة لخسة أمور (أحدها) نقصان صورتها بكجهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل . (والثاني) لخسة وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل . (والثالث) لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . (الرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة . (والخامس) للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه . (والثاني) لكدورة المعاصي والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاله فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » (١) ، أى حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها ، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لاحتالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يردد بها نوراً . فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلالها من غير دنس سابق ؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يحل القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » (٢) .

(١) حديث « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » لم أره أصلاً . (٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم .

الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلالة الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب : بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية ، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات ماذا عن انكشاف جلاله الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي ؟ .

الرابع : الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه مجبوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم مجربون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجبا بينهم وبين درك الحقائق .

الخامس : الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالجهل إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل التاج من ازدواج الفجل والآني . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والآني ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبيدهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا ، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبق صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ، ثم تنطبق صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين ، ثم تدرك العين صورة القفا ، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يعز على بساط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات . فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف . وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطبق لها في الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ^(١) » وقول رسول الله

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

صلى الله عليه وسلم : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ^(١) ، إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت .

وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل لرسول الله ، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء ؟ قال في قلوب عباده المؤمنين ^(٢) ، وفي الخبر : قال الله تعالى : لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن الذين الوداع ^(٣) ، وفي الخبر : أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال : كل مؤمن مخموم القلب ، فقيل : وما مخموم القلب ؟ فقال « هو التقي النقي الذي لا عيش فيه ولا بغى ولا غدر ولا غل ولا حسد ^(٤) » ولذلك قال عمر رضي الله عنه : رأى قلبي ربي . إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، وارتفاع الحجاب بينه وبين الله تعالى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجلمة ، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له ، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لانهائية له . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ، وملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما يتجلى له من الله وصفاته وأفعاله . وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتركيبته وجلأؤه « قد أفلح من زكاها » ومراد تركيبته حصول أنوار الإيمان فيه أعني لإشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » .

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب (المرتبة الأولى) إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض . (والثانية) إيمان المتكلمين وهو مزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام (والثالثة) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

ونبين لك هذه المراتب بمثال : وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات .

الأولى : أن يخبرك من تجربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول ، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا الإيمان بمجرد التقليد ، وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وهله وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بأبائهم وأمهاتهم ومعلمهم ، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقرين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانسراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ بمسكن فيما سمع من الأحاديث بل من الأعداد فيما يتعلق

(١) حديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... الحديث . تقدم . (٢) حديث ابن عمر : أين الله ؟ قال : في قلوب عباده المؤمنين . لم أجده بهذا اللفظ ، والطبراني من حديث أبي هتبة الخولاني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ... الحديث » فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث . (٣) حديث « قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن الذين الوداع » لم أره أصلاً وفي حديث أبي هتبة عند الطبراني بعد قوله « وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه أليتها وأرقها » . (٤) حديث : قيل من خير الناس ؟ قال « كل مؤمن مخموم القلب ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح .

بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعون من آياتهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازدادت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص ؛ وهذا إيمان مزوج بدليل والخطأ أيضا يمكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبس والمحاكاة غرضا .

الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتتظر إليه بعينك وتشاهده ؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصدّيقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بمزية بيّنة يستحيل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف .

أما درجات الكشف فثاله أن يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أوفى وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ؛ ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته . ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدات للأمور الإلهية .

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لاحالة . فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية والآخرية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية . والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة . والمكتسبة إلى دنيوية وأخرية .

أما العقلية : فنعني بها ما تقضى بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع ؛ وهي تنقسم إلى ضرورية : لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت ؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشئ الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا ؛ فإن هذه علوم يحد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له ؟ أعني أنه لا يدري له سببا قريبا ، وإلا فلا يس يحفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهده . وإلى علوم مكتسبة : وهي الاستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا .

قال على رضى الله عنه : رأيت العقل عقليين فطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل »^(١) ، والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه « إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك »^(٢) ،

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذى الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم . (٢) حديث « إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم من حديث على بإسناد ضعيف

إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة . ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين ، فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين ، وقوة الابصار لطيفة تفقد فى العمى وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل ، والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ورؤيته لأعيان الأشياء . وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات . والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس . وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبى قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتبها بعد لقبول نفس العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر قال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه ، فليس قلبه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض ؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما فى الشرف ؛ فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى اللطيفة المدركة ، وهى كالفارس والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لانسبة لأحد الضررين إلى الآخر . ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ سمي إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ، ولذلك سمي ضد إدراكه عمى فقال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ فهذا بيان العلم العقلى .

أما العلوم الدينية : فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع ، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الادواء والأمراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها ، كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الادوية والعقاقير بطريق التعلم من الاطباء ، إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، وإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاتته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب لا يسكر علاجها إلا بالادوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء . وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما . فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين . وإنما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقضا فى الدين وهيئات . وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتمتع فيها بأوانى الدار فقال لهم : ما بال هذه الأوانى

(٣ — لحياة علوم الدين — ٣)

تركت على الطريق لم لاترد إلى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأواني في مواضعها ! وإنما أنت لست تهتدى للطريق لعمالك فالعجب منك أنك لاتحيل عثرتك على عمالك وإنما تحيلها على تقصير غيرك ؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية .

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخرية . فالدنيوية : كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات . والأخرية : كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله . كما فصلناه في كتاب العلم . وبهما علمان متنافيان - أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر . ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتي الميزان ، وكالمشرق والمغرب ، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى .

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا في أمور الآخرة . والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا ، لأن قوة العقل لاتفي بالأمرين جميعا في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البله ^(١) ، أى البله في أمور الدنيا .

وقال الحسن في بعض مواضعه : لقد أدركنا أقواما لورا يتموهم لقاتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين . فهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جمده أهل الكياسة في سائر العلوم ، فلا يغزئك ججودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رضى الله لتدبير عبادته في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية

في استكشاف الحق وطريق النظر

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال - تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا . ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب . والاول : يسمى إلهاما ونفشا في الروح والثاني : يسمى وحيا وتختص به الأنبياء . والاول يختص به الأولياء والأصفياء . والذي قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء . وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها ،

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البزار من حديث أسد وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فتد قال ابن عدى أنه منسك .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة - التي سبق ذكرها - فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة . وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرأتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تمب رياح الألطاف وتتكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلى فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل . وتتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه يتكشف الغطاء ، وينكشف أيضا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالي إلى حد ما . ودوامه في غاية التدور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم لا يتحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي ما يشاء ﴾

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الآفاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلايلات فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفرغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له . وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب بمجموع المهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائما بلسانه : الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحتها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلعب لوامع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه

كالبرق الخاطف لا يثبت ؛ ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً ؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تنحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الدور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته واستبعدوا استجراح شروطه ، وزعموا أن محور العلاقة إلى ذلك الحد كالمتمنذ وإن حصل في حال ثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليانها »^(١) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن »^(٢) ، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقى في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانتفتح له وبه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه . وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وماليس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين :

أحدهما : أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحضر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقاته الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله .

« فإن قات : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين . فكما أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر

(١) حديث « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليانها » أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود .

(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التى دخلت في الحس والخيال . والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود على نفسه خارجا من خيال الإنسان وقلبه . والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ .

فكان للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني ، ويتبع وجوده الحقيقي ، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي - أعني وجود صورته في الخيال - ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي - أعني وجود صورته في القلب -

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية . والروحانية أشد روحانية من البعض ؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها ، ثم يسرى من وجودها في الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود في القلب فإنك أبدا لا تدرك إلا ما هو واصل إليك ، فلم يجعل للعالم كله مثالا في ذاتك لما كان لك خبر مما يبين ذاتك ، فسبحان من دبر هذه المعجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبا .

وانرجع إلى الغرض المقصود فنقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذى يقابل الشمس ويحكي صورتها . فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عرق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ؛ فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا يحكي عالم الملكوت نوعا من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينيا بالتأمل في عجائب الرؤيا وإطلاع القلب في اليوم على ماسيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون » ، قيل ومن هم المفردون يا رسول الله ؟ قال ، المتزهدون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ، ثم قال في وصفهم لإخبارا عن الله تعالى فقال « ثم أقبل بوجهي عليهم أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ؟ ثم قال تعالى : أول ما أعطيهم أن أفذف الثور في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ^(١) » ، ومدخل

(١) حديث « سبق المفردون » قيل ومن هم ؟ قال « المستهترون بذكر الله ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتضرا على أول الحديث وقال فيه : وما المفردون ؟ قال « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » ورواه الحاكم بلفظ « قال القدين =

هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا هو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم المعاملة . فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العاملين ، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقلها فقط ، فذكرى أن أهل الصين وأهل الروم تباهاوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم لأهلهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغربية ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يحملون جانبهم ويصقلونه ، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؟ فقليل : وكيف فرغتم من غير صبغ ! فقالوا : ما عليكم ارفعوا الحجاب ، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة لإشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجولة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل ؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتركيبته وصفائه حتى يتلألأ فيه جليلة الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين ، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم ، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاءه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمه الله عليه بقوله : التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى .

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا مساعدة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال . فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزانة المزرعة غنى ، وتفاوت درجات السعادات بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته ، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمن إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى ﴿ يسعني نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقد روى في الخبر « إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على إبهام قدميه فيضيء مرة وينطفئ أخرى فإذا أضاء قدمه قدميه فشيء وإذا طفى قام ، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانهضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه ، والذي أعطى نورا على إبهام قدميه يحبو حبو على وجهه ويديه ورجليه يمر يداً ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص ^(١) ، الحديث فهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضاً يضاهي قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح ؛ فإتسما أحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع

= يستهترون بذكر الله » وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب « يضع الذكر عنهم أنما لهم ويأتون يوم القيامة خفاً » ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلاماً ضيف . (١) حديث « إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدميه ... الحديث » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

اتساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقه من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين . ولذلك جاء في الخبر « أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة ^(١) » ، كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار ، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن ^(٢) » ، إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام . وقد قال تعالى ﴿ وأنتم ألاعلنون إن كنتم مؤمنين ﴾ تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد . وقال عز وجل ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف .

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البه والعليون لذوى الألباب ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي ^(٤) » ، وفي رواية « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ، فهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران ، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كمنظر الغنى الذي يملك عشرة دراهم إلى الغنى الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ﴿ والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب

المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القاب من حيث لا يدري فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عريضة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ^(٥) » ، وقال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ من الإشكالات والشبه ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ يعلمه

(١) حديث « يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله « ربع مثقال » . (٢) حديث « ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن » أخرجه الطبراني من حديث سلمان بلفظ « الإنسان » ولأحمد من حديث ابن عمر « لا أعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن » وأسنادهما حسن (٣) حديث « أكثر أهل الجنة البه والعليون لذوى الألباب » تقدم دون هذه الريادة ولم أجدهم هذه الزيادة أصلا (٤) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية . (٥) حديث « من عمل بما علم ... الحديث » تقدم في العلم دون قوله « ووفقه فيما يعمل » فلم أرها .

علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثّر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم أعطني نورا وزدني نورا واجعل لي في قلبي نورا وفي قهري نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا حتى قال في شعري وفي بشرى وفي لحمي ودمي وعظامي ^(١) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ ما هذا الشرح ؟ فقال ، هو التوسعة إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر والشرح ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس ، اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ^(٣) ، وقال على رضى الله عنه : ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما في كتابه وليس هذا بالتعلم ^(٤) ؟ وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ إنه الفهم في كتاب الله وقال تعالى ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويخرجه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى ^(٥) ، وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع ^(٦) ، وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم ^(٧) ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث ﴾ يعنى الصديقين والمحدث هو الملمهم ، والملمهم هو الذى انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ خصصها بهم وقال تعالى ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ؟ بل يحفظ ولا درس . وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعلمناه من من لدنا علما ﴾ مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعاليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدنى الذى ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولوجع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختك ، وكانت زوجته

(١) حديث « اللهم اعطني نورا وزدني نورا ... الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : سئل عن قوله تعالى أفن شرح الله صدره للإسلام ... الحديث . وفي المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم . (٣) حديث « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم . (٤) حديث على : ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في كتابه . تقدم في آداب تلاوة القرآن . (٥) حديث « اتقوا فراسة المؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٦) حديث « العلم علمان ... الحديث » تقدم في العلم . (٧) حديث « أن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » ورواه مسلم من حديث عائشة .

حاملًا فولدت بنتًا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ؛ إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه لحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة فى طريق فنظرت إليها شرًا وتأمّلت محاسنها فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيّه أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال . لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراصة صادقة . وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرًا عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل علو الناس ، فنادانى وقال ﴿ والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله فى سرى فنادانى وقال ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ ثم غاب عني ولم أره .

وقال زكريا بن دارد : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى - وهو عليل وكان ذاعيل ولم يعرف له سبب يعيش به - قال : فلما قمت قلت فى نفسى من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بى يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى ألطافًا خفية . وقال أحمد النقيب . دخلت على الشبلى فقال مفتونا : يا أحمد فقلت : ما الخبر ؟ قال : كنت جالسًا جارى بخاطرى أنك بخيل ، فقلت : ما أنا بخيل ، فعاد منى خاطرى وقال : بل أنت بخيل ، فقلت : ما فتح اليوم على بشىء إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى ، قال : فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمونس الخادم ومعه خمسون دينارًا فقال : اجعلها فى مصالحك ، قال : وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدى من يخلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، قال : أوليس قد قلنا لك إنك بخيل ؟ قال : فناولتها المزين فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرًا ، قال : فرميت بها فى دجلة وقلت : ما أعزك أحد إلا أأذله الله عز وجل . وقال حمزة بن عبد الله العلوى : دخلت على أبى الخير النينانى واعتقدت فى نفسى أن أسلم عليه ولا آكل فى داره طعامًا ، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقنى وقد حمل طبقًا فيه طعام وقال : يافنى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير النينانى هذا مشهورًا بالكرامات وقال إبراهيم الرقى : قصده مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستويًا فقلت فى نفسى : ضاعقت سرفقى ! فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدنى سبع فعدت إلى أبى الخير وقلت : قصدنى سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تعرض لضيفانى ؟ فتنحى الأسد فتطهرت فلما رجعت قال لى : اشتغلتم بتقويم الظاهر تخفتم الاسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن تخافنا الاسد .

وما حكى من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمايرهم يخرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ، ومن سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جرده أمران أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائى لا يسمع ولا يبصر لا يشتغاله بنفسه ! والثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا

لا يسمى نبيا بل يسمى وليا ، فن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لاحالة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروح والوحى ، فإذا أقرهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة متبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستحاثات على المجاهدة وطلب الكشف منها . فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألني أمني عليه شيئا من ذكرى الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقال : ما كتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل فقلت : أستماتكتبان الغرائض ؟ قال : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام السالكين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين : سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال : ما تقول رحمك الله ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال : ما تقول رحمك الله ؟ ثم أطرق إلى صدره وقال : ما تقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال : لم يكن عندي في المسألة جواب عتيق ، فسأل صاحب الشمال فقال لا أدري ! فسأل صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري ، فنظرت إلى قلبي وسألته لحدثني بما أجبته فإذا هو أعلم منهما . وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام : إن في أمي محمد ثين وإن عمر منهم . وفي الأثر : إن الله تعالى يقول : أيما عبد اطلمت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جلسه ومحدثه وأنيسه . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله عليه : القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأى باب فتح له عمل فيه ؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملا الأعلى ، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيا الله لهم من الحق . وقال آخر : لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتترامى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب . وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر ؛ وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار ، والأذكار ، وأعني به إدراكه علومها إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والخواطر هي المحركات الإرادات

فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لاحتالة ، فبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعنى إلى ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير أعنى إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر الحمود يسمى إلهاما ، والخاطر المذموم أعنى الداعى إلى الشر يسمى وسواسا ، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة .

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانا ، واللفظ الذى يتبها به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذى به يتبها لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وحذلانا ، فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسمى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفاضة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء ؛ والتخويف عند الهم بالخير بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الحذلان . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « في القلب لثان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم - ثم تلا قوله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ (١) الآية . وقال الحسن إنما هما هسان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو ، فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاء وما كان من عدوه جاهده .

ولتجاذب القلب بين هذين المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) » ، فانه يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالانامل ولكن روح الأصبع سرعة التقلب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقلب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك . والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخرار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقلب القلوب ، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقلب الأجسام مثلا . والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آمار الملك ولقبول آمار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عس الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المنشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ما منكم

(١) حديث « في القلب لثان لمة من الملك إيعاد بالخير ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى في الكبرى من حديث

ابن مسعود (٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين ... الحديث » تقدم

من أحد إلا وله شيطان ، قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال : « وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير ^(١) » ، وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدفع بها لا يأمر إلا بالخير . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس : ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم . والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب هائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا . وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلات بالوساوس الداعية إلى إثارة العاجلة واطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى . ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارتها بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة . وقال جابر بن عبيدة العدوي : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عاجزه وإلا مضوا وتركوه . يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان . وقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو ابن العاص للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال : « ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتموذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال : ففعلت ذلك فأذهب الله عني ^(٢) .

وفي الخبر : « إن للوسوء شيطانا يقال له الوهمان فاستعينوا بالله منه ^(٣) » ، ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى ما يوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالا للشيطان ، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم والاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتفنون الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ قال : هو منبسط على القلب ؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ، ولتضادهما قال الله تعالى ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ﴾ وذكر الله ﴿ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه ^(٤) » ، وقال ابن وضاح في حديث ذكره : « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده

(١) حديث « ما منكم من أحد إلا وله شيطان ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث ابن أبي العاص : أن الشيطان حال بيني وبين صلاتي ... الحديث ، أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص .

(٣) حديث : أن للوسوء شيطانا يقال له الوهمان ... الحديث ، أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال

غريب وليس اسناده بالقوى عند أهل الحديث . (٤) حديث أنس « أن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكاييد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدى في السكامل وضعفه .

وقال : بأبى وجه من لا يفلح ^(١) .

وكما أن الشهوات ممترجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحيطه بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع ^(٢) . وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ويجري الشيطان الشهوات . ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس ﴿ لا قعدن لهم صراطك المستقيم ثم لا تدينهم ثم لا تدينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر أتدع أرضك وسمائك ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتسكح نساؤك ويقسم مالك ، فعصاه وجاهد ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتسكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة . فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصور أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفون بعصيانهم ومتابعته ، ولذلك قال عليه السلام : مامن أحد إلا وله شيطان ^(٤) .

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم ؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة . بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علت ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة ، وعلم أن الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدو فقد عرف العدو لا محالة فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه يؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه . نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته - نعوذ بالله منه - وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته . نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة ، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاما ، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان ؟ فإن من مكاييد الشيطان أن يعرض الشرعي معرض الخير ، والتميين في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوعظ : أمانتظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار ؟

(١) حديث ابن وضاح « إذا باغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال : بأبى وجه من لا يفلح » لم أجد له أصلا . (٢) حديث « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » تقدم .

(٣) حديث « ان الشيطان قعد لابن آدم بطرق ٠٠٠ الحديث » أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح

(٤) حديث « مامن أحد إلا له شيطان ٠٠٠ الحديث » تقدم .

أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم ؟ وهو لا يزال يقرر ذلك في نفسه ويستجره بلطف الخيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ، ثم يدعو بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يمتدوا إلى الحق ، ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الاتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ، فيستكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول ، فهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بقرن لا خلاق لهم » (١) . و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » (٢) ، ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له : قل لا إله إلا الله . فقال : كلمة حق ولا أقولها بقولك . لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تنتهي وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة .

وسندكر جملة من مكاييد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها . كل ذلك إذعاننا لتلبيسات الشيطان ومكايده .

لحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يعين النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ أى رجعوا إلى نور العلم ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ أى ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلظه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ قيل هى أعمال ظنوها حسنة فإذا هى سيئات . وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكاييد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أمهله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسبهم عداوته وطريق الاحتراز عنه . ولا ينبجى من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر . وأبوابها الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل الشبهات وعلائق الدنيا . والخلو في بيت مظلم تسد باب الحواس . والتجرد عن الأهل والمسال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلبسه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته ، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا . نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجري في بدنه . فإذا مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها - كاسيأتى شرحها - ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة .

(١) حديث « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد . (٢) حديث « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم .

قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينا الشيطان ؟ فتبسم وقال : لو نام لاسترحنا . فإذا لا خلاص للمؤمن منه . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته . قال صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره ^(١) ، وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول . وقال قيس بن الحجاج . قال لي شيطاني ، دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور ، قلت : ولم ذلك ؟ قال : تذيبني بذكر الله تعالى . فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة ، أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة ، وإنما يتعذرون في طرقه الغامضة فإهم لا يهتمدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ والمشكّل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد ، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يسكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة . والعين البصيرة ههنا هي القلب المصنّى بالتقوى . والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عما يهدي إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ لتلك الخطوط ^(٢) فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه .

وفد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المسالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة ، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه . فذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن درأها عند الراهب ، فاتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها ، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه ، فوسوس إليه وقال : الآن تفتضح يا نيك أهلها فاقتلها فإن سألوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها ، وأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها ، فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال : ماتت ، فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال : أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك منهم قال : بماذا ؟ قال : اسجد لي سجدتين ؛ فسجد له سجدتين فقال له الشيطان : إني برىء منك . فهو الذي قال الله تعالى فيه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ ^(٣) فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبار ، وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر حين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجزّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا فنعوذ بالله من تضيق أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ^(٤) .

(١) حديث « إن المؤمن ينضى شيطانه ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لمعة .

(٢) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال : هذا سبيل الله . أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٣) حديث « كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن درأها عند الراهب .. الحديث » بطوله في قوله تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾ رواه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعه مرسل ولا حاكم نحوه موقوف على بن أبي طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطين في مسنده من حديث علي . (٤) حديث « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » متفق عليه من حديث الثعلبي ابن بشير « من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع » لفظ البخاري .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلته ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه ، لحاية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية بحرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة ؛ فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة ؛ فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وكلبك تمكليا وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربى أن يتوب على ، فقال موسى : نعم ؛ فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه : أد الأمانة ، فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك امرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ؟ ثم قال له : يا موسى إن لك على حقا بما شفعت لى إلى ربك فاذا كرتى عند ثلاث لأهلكك فهن : اذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم ؛ اذكرنى إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه فما يدري ما يصنع ، واذا كرتى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى ، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليهما فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك . فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله . وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال : آخذه عند الغضب وعند الهوى ، وقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال : الحدة فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقالب الصبيان الكرة : وقيل : إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ؟

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فهما كان العبد حريصا على كل شىء أعماه حرصه وأصمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشىء يعمى ويصم ^(١) » ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا . فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى ، فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك ، فقال له نوح : أخرج منها يا عدو الله فإنك لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك بالثنتين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح : أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين ، فقال له نوح :

(١) حديث « حبك للشىء يعمى ويصم » أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .

ما الاثنان ؟ فقال : هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس ؛ الحرص والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاننا رجيماً ، وأما الحرص فإنه أبيع لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص .

ومن أبوابه العظيمة : الشبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً ؛ فإن الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له : يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال : فهل فيها من شيء ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال : لا ، قال الله على أن لا أملاً بطني من الطعام أبداً ، فقال له إبليس : والله على أن لا أنصح مسلماً أبداً . ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة ؛ أولها : أن يذهب خوف الله من قلبه . الثاني : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث : أنه يثقل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس : أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقفها وحيطاتها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع في الباس : لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحجب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبس حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتجيب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله اثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به فقال : لا حاجة لي به . قال : انظر فإن كان خيراً أخذت وإن كان شراً رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت ؟ فإن أملكك إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك الثبوت في الأمور ، وقال صلى الله عليه وسلم : العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى ^(١) ، وقال عز وجل ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ وقال تعالى ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ وقال لنبىه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴾ وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة ، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري . فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رموسها فقال هذا حادث ، مكانكم ! فطار حتى أتى خافق الأرض فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا ، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة . ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار ؛ فإن كل ما يزيد

(١) حديث « العجلة من الشيطان والتأني من الله » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقال حسن .

على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعة مائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً ، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً وقد صار محتاجاً إلى تسعة مائة ليشتري داراً يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به . وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواء . قال ثابت البناني لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا إله إلا الله لشيائني : لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري ؟ قال : أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال : قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قال : فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون : ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحي ذلك ، فقال لهم إبليس : رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا (١) . وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوماً حجراً فربه إبليس فقال : يا عيسى رغبت في الدنيا ؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال : هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عتة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر ، يمكن أن يتوسده ؟ فلا يزال يدعو إلى النوم وإلى أن يتوسده ، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته إلى النوم . هذا في حجر فكيف بمن يملك الخناد الميثرة والفرش الوطنية والمتنزهات الطيبة فتى يذشط لعبادة الله تعالى ؟ .

ومن أبوابه العظيمة . البخل وخوف الفقر ؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للكافرين كما نطق به القرآن العزيز . قال خيشمة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول : ما غلبني ابن غلبة فلان يغلبني على ثلاث ؛ أن أمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، ومنعه من حقه . وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هي معيش الشياطين . وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجلاً فاجعل لي بيتاً قال الحمام ، قال : اجعل لي مجلساً قال الأسواق وجميع الطرق ، قال : اجعل لي طعاماً قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لي شرباً قال كل مستكر ، قال : اجعل لي مؤذناً قال المزمار ، قال : اجعل لي قرآناً قال الشعر ، قال : اجعل لي كتاباً قال الوشم ، قال : اجعل لي حديثاً قال الكذب ، قال : اجعل لي مصيداً قال النساء (٢) .

ومن أبوابه العظيمة التوصل : التعصب للمذاهب والآهواء والحق على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار ، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعاً فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في

(١) حديث ثابت : لما بعث صلى الله عليه وسلم قال لا إله إلا الله لشيائني . لقد حدث أمر ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابيد الشيطان هكذا مرسل . (٢) حديث أبي أمامة : « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجلاً فاجعل لي بيتاً قال الحمام ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً .

الطبع من الصفات السبعية ، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين ، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أقول عدو له إذ موالى أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه ، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكشف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأتى لهذا الفضولي أن يدعى ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته ؟ وترى فضوليا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس السكين إلى الرسخ ، ونرى الفاسق لابسا الثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصائه يوم القيامة ، ولت شعري من أخذ ولدا عزيزا لإنسان هو قرعة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه ويذف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاه فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعون بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى ؟ لابل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ماتحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجرؤوا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبا لأبي بكر وعمر فالتار لا تحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لعلي لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه ^(١) « اعملي فإني لأغني عنك من الله شيئا ^(٢) » ، وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء . وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان ، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان ؛ فبالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا ؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم ، وقد سلت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فخبسوا ذلك في صدورهم ولم يذهبوا على مكاييد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فآله تعالى يتوب علينا وعليهم ، وقال الحسن . بلغنا أن إبليس قال : سؤلت لامة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسؤلت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء . وقد صدق الماعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها ؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود . جالس قوم يذكرون الله تعالى فأتاها الشيطان ليقسمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون - وليس إياهم يريد - فقام الذين يذكرون الله تعالى

(١) حديث « فاطمة بضعة مني » متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة . (٢) حديث « إني لأغني عنك من الله شيئا » قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم ومن أبوابه حل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين ، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبهج بما وقع في صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقوامهم اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ^(١) » ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعالم لو يزن ويسرق كان خيرا له من أن يتسكلم في العلم فإنه من تسكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري ، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد، والمذاهب لا تنحصر وإنما أردنا بما أردناه المثال.

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا مواضع التهم ^(٢) » ، حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك . روى عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد قالت : فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فر به رجلا من الأنصار فسلمائهم انصرفت فناداهما وقال « إنما صفية بنت حيي » فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا ، فقال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يدخل عليكما ^(٣) » ، فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فخرسهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله ؟ فيقول : مثلي لا يظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه . فإن أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كائلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر . ففهما رأيت إنسانا يسمى الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمناقب يطلب العيوب ، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق . فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة

(١) حديث عائشة « ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله ... الحديث » أخرجه أحمد والبخاري وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اتقوا مواضع التهم » لم أجده أصلا . (٣) حديث « صفية بنت حيي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتته فتحدثت عنده ... الحديث . وفيه « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » متفق عليه .

مذمومة إلا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

« فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره . وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سيأتى شرحه - نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب ولا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ خصص بذلك المتقى فقل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، فمجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام ، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدها فيستقر الشيطان في سويدها القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وسائر الاخبار والآيات الواردة في الذكر .

قال أبو هريرة : التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهن سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : مالك مهزول ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعا وإذا شرب سمى الله فأظل عطشانا ، وإذا لبس سمى الله فأظل عريانا ، وإذا أدهن سمى الله فأظل شعنا ، فقال : لكنى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه . وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعبوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فأبسه منا كما أبسته من رحمتك وفتنه منا كما فتنته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير . قال : فتمثل له إبليس يوما في طريق المسجد فقال له : يا ابن واسع هل تعرفنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال : وما تريد ؟ قال : أريد أن لا تعلم أحد هذه الاستعاذة ولا أنعرض لك ، قال : والله لا أمنعها من أراد فاصنع ما شئت . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له : قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن . فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه ^(١) وقال الحسن . نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم أتاني الشيطان فذاع عني ثم نازعني فأخذت

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى : كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلًا ومالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلًا ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياض الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبخاري من حديث عبد الرحمن بن حبيب وقيل له : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين ؟ فذكر نحوه . (٢) حديث الحسن : نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتاً من الجن يكيدك ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلًا

بحلقه فوالذى بعثنى بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدى ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريحا في المسجد ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر لجالسك الشيطان لجا غير الذى سلكه عمر ^(٢) » ، وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات فهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كمن يطعم أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ، ويطعم أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخليئة المعدة ، والذكر الدواء والتقوى احتماء وهى تحلى القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ وقال تعالى ﴿ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان ^(٣) ولم تفهم أن أكثر عموما الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ؛ فراقب قلبك إذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهاالكها حتى إنك لا تذكر ماقد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ولا يردحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت ؟ فالصلاة محك القلوب فيها يظهر محاسنها ومساوئها ؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر ، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر ؛ أى أنت مطيع له . وقال بعضهم : يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه . وكما أن الله تعالى قال ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء .

قيل لآبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعوا فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذى أماتها ؟ قال : ثمان خصال ؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بمجوده ، وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا ﴾ فواطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافتريتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم ، فكيف يستجيب لكم ؟

« فإن قلت فالداعى إلى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك فى المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته . كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة ، ولكن الذى

(١) حديث « أتانى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية الشعمي مرسل هكذا وللبخارى من حديث أبى هريرة « أن عمر بن الخطاب لما نزل على الباردة - أو كلة نحوها - ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه ... الحديث » والذسائى فى الكبرى من حديث عائشة : كان يصل فأثناء الشيطان فأخذه نصره فنفقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدى ... الحديث » وإسناده جيد (٢) حديث « ما سلك عمر لجالسك الشيطان لجا غير لجه » متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ « يا ابن الخطاب ما ليك الشيطان سالك لجا ... الحديث » (٣) الحديث الوارد بأن الذكر يطرده الشيطان . تقدم

يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار : أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطانا يخصه ويدعوا إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسيات يدل على اختلاف الاسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : ثبر والاعور ومبسوط وداسم وزنهور . فأما ثبر : فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية . وأما الاعور : فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه . وأما مبسوط : فهو صاحب الكذب . وأما داسم : فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم . وأما زنهور : فهو صاحب السوق فبسيه لا يزالون متظلمين . وشيطان الصلاة يسمى خنزب ^(٢) وشيطان الوضوء يسمى الوهان ^(٣) وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة .

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة . وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك ؛ للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغراه ، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لا تختطفته الشياطين ^(١) .

وقال أيوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر ابن عبد الله : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعني عليه لا أقوى عليه ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك ، قال : يارب زدني ، قال : أجرى بالسيئة سيئة وبالחסنة عشرة إلى ما أريد ، قال : رب زدني ، قال : باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح ، قال إبليس : يارب هذا العبد الذي كرمته على إن لا تعني عليه لا أقوى عليه ؟ قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد : قال : يارب زدني ، قال : تجرى منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا ، قال : رب زدني ، قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله ^(٢) ، وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال : إني أريد أن أنصحك ، قال : لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال : هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه

(١) حديث « إن شيطان الصلاة يسمى خنزب » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث .

(٢) حديث « إن شيطان الوضوء يسمى الوهان » تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي .

(٣) حديث أبي أمامة « وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف (٤) حديث أبي الدرداء « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصرا : في الجن فقط ثلاثة أصناف . من حديث أبي ثعلبة الحنسي وقال صحيح الإسناد .

فيقرع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلانحن نياس منه ولانحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء . وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم فقلوبهم كيف شدنا قد كفونا أنفسهم . وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لانقدر منهم على شيء .

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض ، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتها ولا تدرك حقيقة صورتها بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة ، فأرأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته لأمريتين (١) وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبيع وظهر له بحراء ففسد الأفق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالبا (٢) فكان يراه في صورة دحية الكلبي (٣) وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة ، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس . ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة ، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جائم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الحيفة مثال الدنيا . وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لا بد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر . وقد بينا أن القلب له وجهان : وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي ، ووجه إلى عالم الشهادة . فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة علم كثير التليس . أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محكية للصفة وموافقة لها ، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها ، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة ، فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحكية لها بالصدق ، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث ، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير . وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة . وإنما المقصود أن تصدق

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته لأمريتين أخرجه الشيخان من حديث عائشة : وسئل هل رأى محمد ربه ؟ وفيه : ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين . (٢) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالبا أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئل : فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث ... «
(٣) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد : أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة « من هذا؟ » قالت : دحية . الحديث

بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك ، تارة بطريق التثليل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم ، وتارة بطريق الحقيقة . والاكثر هو التثليل بصورة محاكية للمعنى - هو مثال المعنى لآعين المعنى - إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محقة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالتائم .

بيان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب وهما وخواطرها
وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سمسرة العلماء بالشرع . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « عني عن أمتي ما حدثت به نفوسها . ما لم تتكلم به أو تعمل به » (١) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله آلى يقول للحفظة : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكذبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكذبوها حسنة فإن عملها فاكذبوها حسنة » (٢) ، وقد خرج البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهما بالسيئة . وفي لفظ آخر : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت ، وفي لفظ آخر ، « وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها ، وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخاة فقول سبجانه ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعنى عنه وقوله تعالى ﴿ ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح . فنقول . أول ما يرد على القلب الخاطر ، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها . (والثاني) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول واسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . (والثالث) حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أى ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا ما لم تنبعت الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل . (الرابع) تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا ، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة فإذا انجزمت الإرادة فرما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل .

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجراحة : الخاطر وهو حديث النفس ، ثم الميل ، ثم الاعتقاد ، ثم الهم . فنقول : أما الخاطر فلا يؤخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان

(١) حديث « عني لأمتي عما حدثت به نفوسها » متفق عليه من حديث أبي هريرة « إن الله تجاوز لأمتي مما حدثت به أنفسها ... الحديث » (٢) حديث أبي هريرة « يقول الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ... الحديث » قال المصنف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فهنا والله أعلم قدمه في الذكر .

أيضا تحت الاختيار ، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم « عني عن أمتي ما حدثت به نفوسها » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس ، بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة ، قال « مهلا إن من سنئي النكاح » قال : نفسي تحدثني أن أجب نفسي ، قال « مهلا خصاء أمتي دءوب الصيام » قال : نفسي تحدثني أن أترهب ، قال « مهلا رهبانية أمتي الجهاد والحج » قال : نفسي تحدثني أن أترك اللحم ، قال « مهلا فإنني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه ^(١) » فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ، ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل .

وأما الثالث : وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرابا أو اختيارا ، والأحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرابى لا يؤاخذ به .

وأما الرابع وهو الهم بالفعل ؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى ونمدا على همه كتبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة ، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى ، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتبت له حسنة لأنه رجح جده في الامتناع وهمه به على همه بالفعل ، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة ، فإن همه فعل من القلب اختياري .

والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفعلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه ، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جزائي ^(٢) » وحيث قال : فإن لم يعملها : أراد به تركها لله ، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما يحشر الناس على نياتهم ^(٣) » ونحن نعلم أن من عزم أيملا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزني بامرأة فات تلك

(١) حديث : إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال « مهلا إن من سنئي النكاح .. الحديث » أخرجه الترمذي المحكم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسل نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص : لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا عثمان لمني لم أومر بالرهبانية .. الحديث » وفيه « من رغب عن سنئي فليس مني » وهو عندكم بلفظ : رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا . وللبزوي والطبراني في معجمي الصحابة بأسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون : أنه قال يا رسول الله لاني رجل تشق على هذه الزوبة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأختصني قال « لا » ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة » ولأحمد والطبراني بأسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو « خصاء أمتي الصيام والقيام » وله من حديث سعيد بن العاص بأسناد فيه ضعف : إن عثمان بن مظعون قال : يا رسول الله أئذن لي في الاختصاء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحثيئة السمحة والتكبير على كل شرف .. الحديث » وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة « النكاح من سنئي » ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس « لكل نبي » وقال أبو يعلى « لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » ولأسناده جيد .

(٢) حديث : قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر .. الحديث . قال المصنف لأنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « إنما يحشر الناس على نياتهم » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله « إنما » وله من حديث أبي هريرة « إنما يبعث الناس على نياتهم » ولأسنادهما حسن وسلم من حديث عائشة « يبعثهم الله على نياتهم » وله من حديث أم سلمة « يبعثون على نياتهم »

الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقد هم بسيئته ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار » ، فقليل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه »^(١) ، وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم ؟ بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة ، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة . وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالؤاخذة به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : كلفنا مالا نطيع إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا »^(٢) ، فأمر الله الفرج بعد سنة بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر به أن كل مالا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به . فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس . وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبايا من أعمال القلب ؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؟ أى ما يدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذة به لأنه محتار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب »^(٣) ، وقال الله تعالى ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حواز القلوب »^(٤) ، وقال « البر ما طمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك »^(٥) ، حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتى بإيجاب شيء وكان مخطئا فيه . صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي . فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ؟

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها ومخاطباتها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق :
فقال فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فإذا ذكر الله خنس »^(٦) ، والخنس هو السكوت فكأنه يسكت .

(١) حديث « إذا التقى بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار » الحديث متفق عليه من حديث أبي بكر .
(٢) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالا نطيع . الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه . (٣) حديث « التقوى ههنا — وأشار إلى القلب » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال — إلى صدره — (٤) حديث « الإثم حواز القلوب » تقدم في العلم . (٥) حديث « البر ما طمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك » أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وائصة وفيه « وإن أفتاك الناس وأفتوك » وقد تقدم (٦) حديث « وإذا ذكر الله خنس » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدى من حديث أسى في أثناء حديث « إن الشيطان واضح خطئه على قلب ابن آدم » . الحديث « وقد تقدم قريبا .

وقالت فرقة : لا ينعدم أصله ولكن يجرى في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثير بالوسوسة كالمشغول بهمهم فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه .

وقالت فرقة : لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

وقالت فرقة : ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة ، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدركتها بسرعة توصلها بالحركة ، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا .

وقالت فرقة : الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوفا لا ينقطع ، وكما أن الإنسان قد يرى بعينه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا وله أربعة أعين : عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه ^(١) » ، وإلى هذا ذهب المحاسبي . والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس ، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه .

والوسواس أصناف : الأول : أن يكون من جهة التلبس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول الإنسان تترك التعمم باللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم ، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه : الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ، ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعدته وجدد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب ، إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تنفضي إلى النار ، فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه . وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول : أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده ؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى ! فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضائه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به ؟ فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله ، فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثاني . أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيئتها ، وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقيناً أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن . فإن عليه يقيناً خنس الشيطان عن تهيج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهيج وإن كان مظلوماً ، فربما يبق مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة .

الصنف الثالث : أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكير في غير الصلاة مثلاً ، فإذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويعود ، ويندفع ويعود ، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب . وبعد جد أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ، ولكنه ليس محالاً إذا قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما

(١) حديث « ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن بلال « الآخرة » مكان « دينه » وفيه الحسين بن أحمد بن محمد المروى السامعي الحافظ كذب الحاكم والآفة منه .

نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه ^(١) ، فلو لا أنه متصور لما ذكره ، إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر ، فإننا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه ، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ، ولو كلفه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه . وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأسنان الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجهها في محل مخصوص .

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيد جداً ، ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهيب الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى : أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال « شغلني عن الصلاة » وقال « اذهبوا به إلى أبي جهنم واثبتوني بأبجانيتيه ^(٢) » ، وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به قال « نظرة إليه ونظرة إليكم ^(٣) » ، وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريلك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب . وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به . فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمي والمفارقة ، فما دام يملك شيئاً وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره ، وأنه كيف يحفظه ؟ وفيماذا ينفقه ؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به ؟ إلى غير ذلك من الوسواس . فمن أنشب محالته في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال . فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة . قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة ، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام ، فإن أبى شككه في وضوءه وصلاته حتى يخرج به عن العلم ، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه ، وعند ذلك يشتد إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها ، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاعفه فتغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه ، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره : وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعا بين ملكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان - لا يكون قط مهملًا - وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يخلف

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيها نفسه بشيء من الدنيا .. » تقدم في الصلاة .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة . الحديث . تقدم . (٣) حديث : كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال « نظرة إليكم » أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة .

به فيقول « لا ومقلب القلوب »^(١) ، وكان كثيراً ما يقول « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا أو تخاف يا رسول الله ؟ قال « وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء »^(٢) ، وفي لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه »

وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة : فقال « مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة »^(٣) ، وقال عليه السلام ، مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا »^(٤) ، وقال « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن »^(٥) ، وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في تقلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى .

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ، ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكاً بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزان الغيب ومداخل الممكوت ، فينصرف العقل إلى التفكير فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستثيراً بضياء العقل معموراً بأنوار المعرفة فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً ، فعند ذلك يمدّه بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ، ولا ينتهي إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ وفي مثل هذا القلب يشرق نور الصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء ، فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكاييد الشيطان ، بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غروراً فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات - التي سنذكرها - من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكير والمحاسبة وغير ذلك . وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب مطمئن المراد بقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ يأيها النفس المطمئنة ﴾ .

القلب الثاني : القلب المخدول المشحون بالهوى ، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجم فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى ، فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنسبط فيه

(١) حديث « لا ومقلب القلوب » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر (٢) حديث « يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك » الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث النواس بن سمعان « ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » والنسائي في الكبرى بأسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٣) حديث « مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة » أخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح . قلت رواه الهنوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير مذروب وقال لا أدري له صحة أم لا .

(٤) حديث « مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث المنذاد بن الأسود (٥) حديث « مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة » أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بأسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس بأسناد ضعيف .

ظلماته لانهكاس جند العقل عن مدافعته . فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والاماني ، ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبو نور اليقين لحوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره ، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر ، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبق للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ماهو الحق فيه عمى عن الفهم ، وصم عن السمع ، وهاجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان ، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ وبقوله ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتوزع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولا يبق معه مسكة للثبوت عند ظهور أسبابه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقق وذكر عيب من عيوبه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى ، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان .

القلب الثالث : قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقله أكثرائها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ماهذا التخرج البارد ولم تتمتع عن هواك فتؤذى نفسك ؟ وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه ؟ أفترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان ؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتبهت ولم يتمتعوا ؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لا تمتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه ؛ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة ؟ أفنتنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهواتك ولا تستثقل ألم النار ؟ أنغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك ؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحروق وقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار ؟ فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ماهو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ، ومساعد لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهو سبب بعده عن الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان

وتحريضه إياه على العاجلة وتموينه أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أى بين تجاذب هذين الجنتين وهو الغالب - أعنى التقلب والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين ، وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت ، وهى أيضا إذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء . فمن خلق للجنة يسر له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسر له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يغر الحق بقوله : **إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ فَلَا تَبَالُ** ، وإنَّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم ، وإنَّ العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا **(يَعْدَمُ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدَمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)** . يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر **(فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ - إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ)** فهو الهادى والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا أراد لحكمه ولا معقب لقضائه . خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصي . وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال **(إِنَّ الْآبِرَارَ لِنِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لِنِى جَحِيمٍ)** ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم **« هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي »** ^(١) ، فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة ، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقع بالظواهر ولا يجترئ بالشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب . وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولى التوفيق .

تم كتاب عجائب القلب والله الحمد والمنة . ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثانى من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره ، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرسه من الزيادة والنقصان فى شكله ومقاديره ، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهل على خواص عبادته تهذيب الأخلاق بتوقيفه وتيسيره ، وامتن عليهم

(١) حديث « قال الله عز وجل هؤلاء ألى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السامى وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب انه مضطرب الاسناد .

بتسهيل صعبه وعسيرة ، والأصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبهه وحبيبه وصفيه وبشيريه ونذيره ، الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره ؛

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين . والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدائمة والمخازى الفاضحة والردائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وابن منه المرض الذى لا يفوت إلا حياة الجسد ؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفى مرضها فوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكت وترادفت العلل وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأنيق فى معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشهير فى علاجها وإصلاحها ، فعلاجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وإهمالها هو المراد بقوله ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ ونحن نشير فى هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتي فى بقية الكتاب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر السكلى فى تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها . ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ، ثم بيان علامات حسن الخلق ، ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشوء ، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن ^(١) . وأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو ظلمك ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أنقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق ^(٤) » وجاء رجل إلى رسول الله

كتاب رياضة النفس

- (١) حديث عائشة : كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم (٢) حديث « تأويل قوله تعالى ﴿ خذ العفو ﴾ الآية هو أن تصل من قطعك . . الحديث » أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان (٣) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبى هريرة وتقدم فى آداب الصحبة (٤) حديث « أنقل ما يوضع فى الميزان خلق حسن » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء .
- (٧ — لمحياء علوم الدين — ٣)

صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال « أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب »^(١) « وقيل يا رسول الله ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق »^(٢) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أوصني فقال « اتق الله حيثما كنت » قال زدني قال « أتبع السيئة الحسنة تمحها » قال زدني قال « خالق الناس بخلق حسن »^(٣) ، وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال « خلق حسن » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ما حسن الله خلق عبد وخلقته فيطعمه النار^(٤) ، وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال « لا خير فيها هى من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسجاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوّنى فقواه بحسن الخلق والسجاء ، ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوّنى فقواه بالبخل وسوء الخلق »^(٥) وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السجاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما »^(٦) ، وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم »^(٧) وقيل : يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً »^(٨) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق »^(٩) وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »^(١٠) وعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك »^(١١) وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً^(١٢) وعن أبي مسعود البدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى »^(١٣) وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر الدعاء فيقول « اللهم إني أسألك

- (١) حديث : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : ما الدين ؟ قال « حسن الخلق .. الحديث » أخرجه محمد بن نصر المروزي فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسل (٢) حديث : ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق » أخرجه أحمد من حديث عائشة « الشؤم سوء الخلق » ولأبي داود من حديث رافع بن مكيت « سوء الخلق شؤم » وكلاهما لا يصح (٣) حديث : قال رجل أوصنى قال « اتق الله حيثما كنت .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح (٤) حديث « ما حسن الله خلق امرئ وخلقته قطعته النار » تقدم فى آداب الصعبة . (٥) حديث أبي الدرداء « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق .. الحديث » لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود والترمذى من حديث أبي الدرداء « ما من نبي فى الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال غريب وقال فى بعض طرقه حسن صحيح (٦) حديث « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه .. الحديث » أخرجه الدارقطنى فى كتاب المستجاد ، والحرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٧) حديث « حسن الخلق خلق الله الأعظم » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف (٨) حديث : قيل يا رسول الله أى المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم فى النسخ باللفظ « أكمل المؤمنين » والطبرانى من حديث أبي أمامة « أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً » (٩) حديث « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه النزار وأبو يعلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البرازرجاله ثقات (١٠) حديث « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير (١١) حديث « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك » أخرجه الحرائطى فى مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآداب وفيه ضعف (١٢) حديث البراء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً أخرجه الحرائطى فى مكارم الأخلاق بسند حسن (١٣) حديث أبي مسعود البدرى « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى » أخرجه الحرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدرى ولما هو ابن مسعود أى عبد الله ، هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة .

الصحة والعافية وحسن الخلق (١) « وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه ، وحسبه حسن خلقه ، ومروءته عقله (٢) » وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعرابي يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا (٤) » ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيدش به بين الناس (٥) » وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم في افتتاح الصلاة « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهذى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت (٦) » وقال أنس : بينما نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كاتذيب الشمس الجليد (٧) » وقال عليه السلام « من سعادة المرء حسن الخلق (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « الذين حسن الخلق (٩) » وقال عليه السلام لأبي ذر « يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق (١٠) » وعن أنس قال : قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لآيهما هي تكون ؟ قال « لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا ، يأثم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة (١١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته (١٢) » وفي رواية « درجة الظلمآن في الهواجر ، وقال عبد الرحمن بن سمرة : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إن رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي جائيا على ركبتيه ويدينه وبين الله حجاب لجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى (١٣) » ، وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليلبغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل ولأنه لضعيف في العبادة (١٤) » ، وروى : أن عمر رضى الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده

- (١) حديث عبد الله بن عمرو « اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناده فيه ابن (٢) حديث أبي هريرة « كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقي ، قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تسلم فيه . قال البيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال إسناده صحيح (٣) حديث أسامة بن شريك : شهدت الأعرابي يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه وتقدم في آداب الصحبة .
- (٤) حديث « إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة « إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا » وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا » وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة (٥) حديث ابن عباس « ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله ... الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناده ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٦) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي (٧) حديث أنس : « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناده ضعيف ورواه الطبراني والطائلي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضاً (٨) حديث « من سعادة المرء حسن الخلق » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بإسناده ضعيف (٩) حديث « الذين حسن الخلق » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناده ضعيف (١٠) حديث « يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق » أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر (١١) حديث أنس : قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطى في مكارم الأخلاق بإسناده ضعيف (١٢) حديث « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو وبالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيها ابن لهيعة (١٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لمنى رأيت البارحة عجبا ... الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناده ضعيف (١٤) حديث « إن العبد ليلبغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة .. الحديث » أخرجه الطبراني والخرائطى في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصهبانيين من حديث أنس بإسناده جيد ،

نساء من نساء قریش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضى الله عنه : مم تضحك بأبى أنت وأمى يارسول الله؟ فقال : عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب ، فقال عمر : أنت كنت أحق أن يهينك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا عدوات أنفسهن أنهنننى ولا تهين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن : نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : إيهما يا ابن الخطاب والذي نفسى بيده ما لقيت الشيطان قط سالكاً لهما إلا سلك لهما غير ذلك (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح (٢) » وقال عليه السلام « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم (٣) » .

الآثار : قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أى الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدين ، قال : فإذا كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلاثاً ؟ قال : الدين والمال والحياء ، قال : فإذا كانت أربعاً ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت ستاً ؟ قال : يابن إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقى والله ولى ومن الشيطان برى ، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو غير عابد . وقال يحيى بن معاذ : في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب ابن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا . وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلاً سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقليل له في ذلك فقال : بكيته رحمة له ، فارقه وخلقه معه لم يفارقه ، وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه ، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كالإيمان . وقال السكاني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . وقال عمر رضى الله عنه : خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال . وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا تنضر معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس : ما الكرم ؟ فقال : هو ما بين الله في كتابه العزيز ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قيل فما الحسب ؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً . وقال : لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

أعلم أن الناس قد تسكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو ، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول الحسن : حسن الخلق بسط الوجه

(١) حديث : إن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قریش يكلمنه ويستكثرنه . الحديث . متفق عليه . (٢) حديث « سوء الخلق ذنب لا يغفر » . الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير من حديث عائشة : ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شرمه . وإسناده ضعيف . (٣) حديث : إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » أخرجه الطبراني والحرابي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصمعيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بمحدثين .

وبذل الندى وكف الأذى . وقال الواسطى : هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقال شاه الكرماني : هو كف الأذى واحتمال المؤن . وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً . وقال الواسطى مرة : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء . وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى . وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال : أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة : أن لا يتم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال علي رضي الله عنه . حسن الخلق في ثلاث خصال احتساب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال . وقال الحسين بن منصور : هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز : هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى . فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لأنفسه ، ثم ليس هو محيطاً بجميع الثمرات أيضاً . وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة .

فنعول : الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق - أى حسن الباطن والظاهر - فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما فيحيية وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى ﴿إني خالق بشرأ من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً شئياً . وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الدور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم .

فهنا أربعة أمور ؛ أحدها : فعل الجميل والقيح . والثاني : القدرة عليهما . والثالث : المعرفة بهما . والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين ؛ إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمنازع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل . فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والحد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم لحسنها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة - وهي التي قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ .

وأما قوة الغضب : لحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة ؛ وكذلك الشهوة حسناتها وصلاحتها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعنى إشارة العقل والشرع

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هي القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل . والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مرقضاً وتارة يكون جموحاً . فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزائه وجهه دون بعض . وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوراً ، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً . والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفاً زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة ، ويسمى تفریطها بلها ، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة .

فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ونعني بالحكمة حالة النفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية . ونعني بالعدل حالة النفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقاداً للعقل في إقدامها واحجامها . ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فمن اعتدال هذه الأصول الأربع تصدر الأخلاق الجميلة كلها .

إذ من اعتدال قوة العقل : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدر الجربزة والمسكر والخداع والدهاء . ومن تفریطها : يصدر البله والغفارة والحق والجنون - وأعني بالغفارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء . والفرق بين الحق والجنون : أن الاحق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض ، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإثاره فاسداً .

وأما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهور : فيصدر منه الصلف والبذخ

والاستشاطاة والتكبر والعجب . وأما تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلة والجور والخناسة وصغر النفس والانبساط عن تناول الحق الواجب .

وأما خلق العفة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتسك والمجانة والعبث والملق والحسد والشئمة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهي الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعده منه . فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويتقنون به في جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغي أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدى به ويتقرب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليتعم مكارم الأخلاق كما قال (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل . ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوه الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى أن الشدة موضعا وللرحمة موضعا ، فليس السكينة في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استغفل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير .

واستدل فيه بأمرين ؛ أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلق الظاهر لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبيح الباطن يجرى هذا المجرى . والثاني : أنهم قالوا حسن الخلق يجمع الشهوة والغضب . وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الأدنى فاشتغاله به تضيق زمان بغير فائدة . فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده . فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله

(١) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » تقدم في آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم « حسنوا أخلاقكم »^(١) ، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق الهميمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الانس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجمح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق .

والقول السكشاف للغطاء عن ذلك أن نقول : الموجودات منقسمة إلى مالا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله ، كالسماء والكواكب ، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا ، وسائر أجزاء الحيوانات . وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقمع الفراغ من وجوده وكاله إلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول السكال بعد أن وجد شرطه . وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خقت خلقه يمكن أن تصير نخله إذا انضاف التربية إليها ، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية ، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذا ذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالسكية حتى لا يبق لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاحنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان .

أحدهما : قوة الغريزة في أصل الجبلية وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة ، فلئها أقدم وجودا ، إذ الصبي في مبدل العطرة تخلق له الشهوة ، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب ، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز .

والسبب الثاني : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب ((الأولى)) وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقى كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان ((والثانية)) أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتمعاطاه انقيادا لشهواته ولمعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول ، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه قلع مارسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصالح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بمجد وتشمير وحزم . ((والثالثة)) أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها ، فهذا يكاد تتمتع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال . ((والرابعة)) أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره ، وهذا هو أصعب المراتب . وفي مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب . والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثاني : جاهل وضال . والثالث : جاهل وضال وفاسق . والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به : وهو قولهم إن الآدمي مادام حيا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق ، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالسكية ومحوها وهيئات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلية ، فلوا انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولوا انقطعت

(١) حديث « حسنوا أخلاقكم » أخرجه أبو بكر ابن لال في « كرام الأخلاق من حديث معاذ » بإمعاذ حسن خالق للناس » منقطع ورجاله ثقات .

شهوة الوقاع لا تقطع الذسل ، ولو انعدم الغضب بالكيفية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكيفية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً . وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أشدء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكيفية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر أعضب كما يغضب البشر »^(١) . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يفضض حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه السلام لا يخرج غضبه عن الحق^(٢) وقال تعالى ﴿ والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لها والغالب عليهما ممكن ، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولى الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش . وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والملاحظة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها . والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير . وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجود قال الله تعالى ﴿ وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وقال في الغضب ﴿ أشدء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها »^(٣) ، وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى ﴿ إلامن أتى الله بقلب سليم ﴾ والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكانه خال عن الوصفين ، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن التهور . والعفة بين الشره والجود . وكذلك سائر الأخلاق فكل طرفي الأمور ذميم ؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد المرشد أن يقبح عنده الغضب رأساً ، ويذم إمساك المال رأساً ، ولا يرخص له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذراً في استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه . فإذا قصد الأصل وبالع في نفسه ولم يتيسر له إلا كسر

(١) حديث « إنما أنا بشر أعضب كما يغضب البشر » أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة « إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » (٢) حديث : أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيفضض حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان الغضب لا يخرج عن الحق » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال : لأن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولها من حديث أبي سعيد الخدري : وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه . ولها من حديث عائشة : وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله وللمسلم : ما يسأل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ... الحديث .

(٣) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله مفضلاً .

سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود . فلا يكشف هذا السر المريد فإنه موضع غرور الحق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكال الحكمة . وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : بجود إلهي وكال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقنا معتدلين متقادين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبى خلق صادق للهجة سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاعتدال ومخالطة المتخلفين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم .

والوجه الثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيقاً فالسخرى هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة ، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويسكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وجعلت قرة عيني في الصلاة ^(١) ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستئصال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولأنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تسكره خير كثير ^(٢) ، ثم لا يكتفى في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر . كلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال ، طول العمر في طاعة الله تعالى ^(٣) ، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أذكى وأظهر والأخلاق أقوى وأرسخ ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب ، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون

(١) حديث « وجعلت قرة عيني في الصلاة » أخرجه النسائي من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تسكره خير كثير » أخرجه الطبراني (٣) حديث : سئل عن السعادة فقال « طول العمر في عبادة الله » رواه القضاة في مسند القمهاج وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف وللاثر من حديث أبي بكره وصحبه : أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » .

شئ أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذى يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلى على الوجه الذى يوصله إلى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هى قرة العين. ومصير العبادات لذينة فإن العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك ؛ فإننا قد نرى الملوك والمعممين فى أحزان دائمة ، ونرى المتسامرين قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقاره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار ، مع أن القمار ربما سلبه ماله فخر ببيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركانها وطيرانها وتحليقها فى جو السماء ، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على الشياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته فى الصبر على ذلك ، حتى يرى ذلك نفراً لنفسه ، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيضرب على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كالا وشجاعة ورجولية ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره ، بل لاحالة أخس وأقبح من حال الخنثى فى تشبهه بالإناث فى تنف الشعر ووشم الوجه ومخاطبة النساء فترى الخنثى فى فرح بحاله وافتخار بكاله فى تخنثه يتباهى به مع الخنثيين ، حتى يجرى بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء . فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك فى المخالطين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقامح فكيف لاتستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفة وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر ربانى ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها ، فكل قلب مال إلى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشئ لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض

فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعنى النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك إلا على وفقها لاحالة ، وكل فعل يجرى على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الخدق فى الكتابة له صفة نفسية - حتى يصير كاتباً بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتعاطى بمجراحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الخادق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن ، فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه فى الابتداء تسكفاً ، فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسناً ، ولكن الأول بتسكف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى المجراحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس . وكذلك من أراد أن يصير سخيًا عفيف النفس حايًا متواضعًا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تسكفًا حتى يصير ذلك طبعاً له ، فلا علاج له إلا ذلك . وكما أن طالب فقه النفس لا يئأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا يناها بتكرار ليلة ، وكذلك طالب تزكية النفس وتكملها وتحليلتها بالأعمال الحسنة لا يناها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم . وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تتداعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صفائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهمدم أصل الإيمان عند الخاتمة . وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدرج - مثل نمو البدن وارتفاع القامة - فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ، ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد ، فلكل واحد منها تأثير ، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي ، فله ثواب لا محالة . فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية . وكمن فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذا من يستهين صفائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يخطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتعتذر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالها . وهو المعنى بالنسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ الآية ولذلك قال رضى الله تعالى عنه : إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله . وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله .

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً . فن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة ، ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين من اختلاف فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثلاً . فنقول :

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والاهوية والاحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة ،

وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه - أي بالاعتيساد والتعليم تكتسب الرذائل - وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشو والترية بالغذاء ؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشان الطبيب تهديد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها . وكما أن العلة المغيرة لا اعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً . وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى . فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد . وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد - فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسننه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسننه ومزاجه وما تحتمله بنية من الرياضة ويبني على ذلك رياضته . فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات ، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية فيأمره أولاً بتركها ، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه: فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه ، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالباً عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للسكينة والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه ، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة ، وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحابه ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكس المساحيق والمواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم وينوونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملوثة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المرید لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ، كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم . كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة ، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فليُنقل إلى جاه أخف منه ، وكذلك سائر الصفات . وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيعود الصبر وينكسر شرهه . وكذلك إذا رأى شاباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم ، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء . ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذلل نفسه وتنكسر شهوته ... فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه من فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه .

كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتبه على ملا من الناس ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة . وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر ؛ إذ خاف من تفرقه على الناس رعونة الجود والرياء بالبدل .

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض - فإن ذلك سيأتى في بقية الكتب - وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق السلكى فيه سلوك مسلك المضاد لكل ماتهواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابة العزيز في كفة واحدة فقال تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تبسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً . فينبغي أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألقت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه - كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة - وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية .

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به ، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذى خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب . فرض اليد أن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق لأجله ؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة . وجب الله تعالى لعباده والتلذذ بذكره وإثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة . وخاصية

النفس التي للآدمي ، ما يميز بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها ؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه . وأصل الأشياء وموجدوها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء . فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً . وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم ﴾ إلى قوله ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة . فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفل عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة درائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزاع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيياً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالتطبيب - المريض قلباً يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمنًا واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطناتها عادات ومراءات . فهذه علامات أصول الأمراض .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها ، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه يبذل المال وإنفاقه ، ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داءً ، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين ، إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجب الخلق المحذور ، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليماً عن هذا المقام خاصة . ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلبا ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم - أعنى الوسط - حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقاً بالجانب الذي مال إليه .

ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ أى الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولاجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى فى كل يوم سبع عشرة مرة فى قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة فى كل ركعة .

فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : قد قلت يا رسول الله شيتنى هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ فلا استقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض ، ولكن ينبغى أن يجتهد الإنسان فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقةها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعتددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب . فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

بيان الطريق الذى يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الاول : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فى مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز فى الزمان وجوده .

الثانى : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينميه عليه . فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذى بلغك عني مما تكرهه ؟ فاستمعني فأخبره عليه فقال : بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال : وهل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال : أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهتمه لنفسه رضى الله عنه !

فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه ، إلا أن هذا أيضا قد عز فقل فى الأصدقاء من يترك المداينة فيخبر بالعيوب ، أو يترك الحسد فلا يريد على قدر الواجب . فلا تخلو فى أصدقاؤك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيوب عيبا ، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك .

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له : لم لا تتخاطب الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبى ؟ فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنهبوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم ، وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا . ويسكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لناغة ، فلو نهينا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها ، وإنما نكايته على البدن ويدوم ألمها يوما فادونه ، ونكايته الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم

بعد الموت أبداً وآلآفا من السنين . ثم لما لا نفرح بمن ينهبنا عليها ولا نشغل بإزالتها بل نشتغل بمقاومة الناصح بمثل مقالته فنقول له : وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحته ، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدد مشاخر يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريق الرابع : أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى . فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتمدد نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب .

قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد ، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته . وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطيب فليلازمه وهو الذي يخلصه من مرضه وينجيهِ من الهلاك الذي هو بصددده .

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد ، فإن الإيمان درجة كما أن للعلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى .

والذي يقتضى الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقوال العلماء أكثر من أن يحصر . قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قيل نزع منها حبة الشهوات . وقال صلى الله عليه وسلم : المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه ^(١) ، فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب

(١) حديث « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يبغضه ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أس بن سند ضعيف .

المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل يا رسول وما الجهاد الأكبر ؟ قال « جهاد النفس »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فيلعبن بعضك بعضا إلا أن يغفر الله تعالى ويستتر »^(٣) ، وقال سفيان الثوري : ما عاجلت شيئا أشد على من نفسه مرة لى ومرة على وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه : يا نفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين ! وقال الحسن : ما الدابة الجروح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : جاهد نفسك بأسيايف الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى ، البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شئ أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآنام وهاجت منها حلاوة الفضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدي الخول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام ، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفىها من ظلمة شهواتها فتتجوز من غوائل آفاتها ؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول فى ميدان الخيرات وتسير فى مسالك الطاعات كالفرس الفاره فى الميدان والملك المنتزه فى البستان . وقال أيضا : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات .

قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حب شهواتها ؛ محصورا فى سجن هواها ، مقهورا مغلولاً زمامه فى يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد . وقال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم . وقال أبو يحيى الوراق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد : مازاد على الخبز فهو شهوة . وقال أيضا : من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل . ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوסף عليه السلام - بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رايه الطريق فى يوم موكله وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته - سيجان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا . فقال يوسف - كما أخبر الله تعالى عنه ﴿ لأنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال الجنيد : أرقت ليلة فقممت إلى وردى فلم أجد الحلاوة الى كنت أجدتها فأردت أن أنام فلم أقدر ، فجلست فلم أطق الجلوس ، فخرجت فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى قال : يا أبا القاسم إلى الساعة ، فقلت : يا سيدي من غير موعد ؟ قال : بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك ، فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ قال : فمى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها ؛ فأقبل على نفسه فقال : اسمعى فقد

(١) حديث « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقي فى الزهد وقد تقدم فى شرح معاني القاب حديث « المجاهد من جاهد نفسه » أخرجه الترمذى فى أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد (٣) حديث « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله .. الحديث » لم أجده بهذا السياق .

أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد لها قد سمعته ، ثم انصرف وما عرفته وقال يريد الرقاشي : ليكم عنى الماء البارد فى الدنيا لعلى لأحرمه فى الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتيت الصمت ، قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتيت الكلام . وقال على رضى الله عنه : من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه : اصبرى فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك على .

فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إل سعادة الآخرة إلا بنهى النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد فى القبر إلا بقدر الضرورة ، فيكون مقتصرأ من الأكل والنكاح واللباس والسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة ، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه ، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له فى الآخرة بحال ، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانتقطاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله ، ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة : رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا فى ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولا ينتهى إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة .

الثانى : رجل استغرق قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر فى قلبه إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين .

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه .

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه فى النار امكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى فى قلبه وتمسكه من صميم فواده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ .

وربما يقول القائل إن التمتع بالمباح مباح فكيف يكون التمتع سبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة . والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو سبب البعد - وسياق ذلك فى كتاب ذم الدنيا - وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة فى جبل السكام فرأيت رمانا فاشتيتته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فضيت وتركتها ، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه الزنايب فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتني ؟ فقال : من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء ، فقلت : أرى لك حالاً مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنايب ؟ فقال : وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ولدغ الزنايب يجد ألمه فى الدنيا ، فتركته ومضيت . وقال السرى : أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسى أن أغمس خبزة فى دبس فما أطقها .

فإذن لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التمتع بالمباح ، فإن النفس إذا لم تمنع

بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول لحقه أن يلزمه السكوت ؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة . ومهما اعتادت العين رمى البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل ، وكذلك سائر الشهوات ، لأن الذي يشتبهى به الحلال هو بعينه الذي يشتبهى الحرام ، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعودها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره . وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو مرت القلب . قال الله تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاماة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينقرقيمة صافية قابلة لأثر الذكر . فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففطموها عن ملاذها وعوّدوها الصبر عن شهواتها - حلالها وحرامها - وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب ، فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب . نخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والانس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته . وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب ؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتحاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جوق الهواء ، ويلبسي ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ، ثم يرفق . باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه لئلا إذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه . فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والعزلة أولاً ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عودت الشاء والذكر والدعاء ثانياً في الخلوة حتى يغلب عليها الانس بذكر الله عز وجل عوضاً عن الانس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يشغل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية ، كالصبي يطمع عن الثدي وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكأؤه وجرعه عند الفطام ، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلا عن اللبن ، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوماً فيوماً وعظم تعب في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تسكفاً ، ثم يصير له طبعاً . فلورد بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه ، فيهجّر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام . وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً ، وتمنع عن السرج الذي ألفته بالسلاسل القيود أولاً ، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد . فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب ، وتأديبها بأن تمنع من النظر والانس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزيلها بالموت ، إذ قيل له أحجب ما أحبيت فإنك مفارقة . فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لاحالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً قلائل فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيره أشدراً ليتنعم به سنة أو دهرراً ، وكل

العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة . فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله على رضى الله عنه .

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا فالذى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول أو الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحه ، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو بمن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها ، وذلك مهلك في حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه . وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقطع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة . ولا يلزم ذلك بقية العمر فليس للمجاهد آخر إلا بالموت .

بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمة حسن الخلق وسوء الخلق . فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكروا به حزنوا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ إلى آخر السورة . من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقدته وحفظ ما وجدته . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى عاين الأخلاق فقال « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ^(١) » وقال عليه السلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ^(٣) » وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ^(٤) » وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المؤمن صوتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة ^(٦) » وقال « من سرته حسنة

- (١) حديث « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أخرجه الشيخان من حديث أس « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »
- (٢) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة
- (٣) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله
- (٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الحديث قبله
- (٥) حديث « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً » تقدم غير مرة (٦) حديث « إذا رأيتم المؤمن صوتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلد باللفظ « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة مطق

وساءت سيئته فهو مؤمن ^(١) » وقال « لا يحل للمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه ^(٢) » وقال عليه السلام « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفشى على أخيه ما يكرهه ^(٤) » .

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برا وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً راضياً حليماً رقيقاً عفيفاً شقيقاً ، لالئاً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً ، بشاشاً هشاشاً يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة ، والمنافق همته في الطعام والشراب كالبهيمة ^(٥) » وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد لإلّا من الله ، والمنافق راج كل أحد لإلّا الله ، والمؤمن آمن من كل أحد لإلّا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد لإلّا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يسيء ويضحك ، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملا ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقطع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد .

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ، ومن شك من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ، قال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه ^(٦) ولما أكرت قریش إبداءه وضربه قال ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ^(٧) » قيل إن هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ويحكى أن إبراهيم بن آدم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندي : إنما أردت العمران ؟ فقال : هو المقبرة ، فغاضه ذلك فحضر رأسه بالسوط فشجه وردّه إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا ، هذا إبراهيم بن آدم ! فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبد من أنت بل قال : أنت عبد ؟ فقلت : نعم ، لأنني عبد الله ، فلما ضرب رأسي سألت

(١) حديث « من سترته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة (٢) حديث « لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسل وقد تقدم (٣) حديث « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » أخرجه الطبراني والطائسي من حديث الثعلبي بن بشير والبرقي من حديث عمر وإسناده ضعيف .

(٤) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله . . . الحديث » تقدم في آداب الصعبة .

(٥) حديث : سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همته في الصلاة والصيام . . . الحديث » لم أجد له أصلاً

(٦) حديث : كان يعمى فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية . . . الحديث . متفق عليه من

حديث أنس (٧) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه .

الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أننى أوجر على ما نالني منه فلم أرد يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر. ودعى أبو عثمان الخيري إلى دعوة - وكان الداعي قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له: ليس لي وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب فإن له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فردده حتى عاد له بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فأحسن خلقك! فقال: إن الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا جر انزحر. وروى عنه أيضاً أنه اجتاز يوماً في سكة فطرح عليه إجانة رما د فزول عن دابته فوجد سجدة الشكر ثم جعل ينفذ الرما د عن ثيابه ولم يقل شيئاً ففيل ألا زبرتهم فقال إن من استحق النار فصولح على الرما د لم يجر له أن يغضب وروى أن على بن موسى الرضا رحمه الله عليه كان لونه يميل إلى السواد - إذ كانت أمه سوداء - وكان ينسأبور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه، فتقدم رجل رستاق إلى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إلى الماء فقام على بن موسى وامثل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاق وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج على بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب قال: لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماله عند أمة سوداء. وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسى يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسى فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفاً، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فردده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ ستة وأنا أصبر عليه وأخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغتر بها مسلماً. وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بحرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولين فوقه. وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم! فقال: من قيس بن عاصم، قيل ما وبلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوق على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وقبل إن أويسا القرنى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتتمنعوني عن الصلاة. وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحى وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك وروى أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حلك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى. وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله:

يامرائى ، فقال : ياهذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة . وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له : لم تمسكه ؟ فقال : لأتعلم الحلم عليه .

فهذه نفوس قد ذلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغى أن يغير بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون .

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبيان أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعليه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة التقيم عليه والوالى له . وقد قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ؛ وصيائته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعودوه التمتع ، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضائته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طبيئته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث . ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بسكّال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه ، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يبلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعتد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً ، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبهه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذى يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان ، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكثر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغى أن يستنكره ويذمه ، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التمتع والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وهن مخالطة كل من يسمعه ما يرغب فيه فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب ردىء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوماً ذا فصول وضحك وكيد وجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ،

ثم يشغل في المكتبة فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نمسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يرعون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن نكرم عليه ويحازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتمك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسروا أحد على مثله ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفاده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تسكر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القباح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظاً هيبه الكلام معه فلا يورجه إلا أحياناً ، والام تخوفه بالأب وتزجره عن القباح ، وينبغي أن يمنع عن النوم نهائراً فإنه يورث السكسل ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضائه ولا يسهن بدنه فلا يصبر عن التعم ، بل يعود الحشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فاذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه السكسل ، ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره ، ويمنع من أن يقتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحقشين ، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة : وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن العلمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصص في انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة يقبض إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكبر أيضاً ، وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتناب بحضرة غيره ولا يستدير غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل السكسل . ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللثام ، ويمنع اليمين رأساً - صادقاً كان أو كاذباً - حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ، وأن يقوم لمن فوقة ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغي إذا ضرب الملعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المباليك والسوان . وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتبة بحيث لا يتعب في اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكاه وينقص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً . وينبغي أن يعلم طاعة والدته ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي

أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويحنب ليس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع .

ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، وكل ما يغلب على الصبيان ، فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الاطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وأما دار عز لا دار مقر ، وأن الآخرة دار مقر لا دار مقر ، وأن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان ، فإذا كان النشوة صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر . وإن وقع النشوة بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشربه الطعام واللباس والتزين والتفاخر بنا قبله عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس . فأوامل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ^(١) . قال سهل بن عبد الله التستري : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما : ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك عند قلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك ، الله معي الله ناظر إلى الله شاهدي ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال : قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع في قلبي حلاوته ، فلما كان بعد سنة قال لي خالي : افظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري ، ثم قال لي خالي يوما : يسهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، فكنت أخلو بنفسى فبعثوا بي إلى المكتتب فقلت : إني لأخشى أن يتفرق علي همي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأعلم ثم أرجع ، فضيئت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة ، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأتيته البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني ، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بأدابه ، ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بخما من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة . ثم عزم على أن أطوي ثلاث أيال ثم أفطر ليلة . ثم خمسا ، ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، ثم خرجت أسير في الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى قال أحمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى :

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدرج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة ببقائه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبيلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها ، فإن من كانت عنده خרزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقويت إرادته

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

في بيعها بالجوهرة ، ومن ليس مريدا حث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر - ولست أعنى بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا - ومثل هذا المصدق إذا أُلِفَ الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة ، فإذا المانع من الوصول عدم السلوك والموانع من السلوك عدم الإرادة والموانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكّر والعلامة بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها - فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدهم وليس في علماء الدين من ينههم ، فإن تنبه منهم متنبه يحجز عن سلوك الطريق لجهله ، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق ، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلق طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لاحالة ، فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شروطا لابد من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصم لابد من التمسك به ، وله حصن لابد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لابد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق .

أما الشروط التي لابد من تقديمها في الإرادة فهي رفع الست والحجاب الذي بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع الست على الطريق قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

والسد بين المرید وبين الحق أربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية . وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ، فمادام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل . وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخول والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه . وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تصديق إيمان ومحرض في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى - وأعظم معبود له الهوى - حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لامن المجادلة ، فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً إذ ليس من شرط المرید الانتماء إلى مذهب معين أصلاً . وأما المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ماضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم ، فإن لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب ، فإن ترجمة القرآن لابد من تقديمها أولاً ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابد من تصحيح الشريعة أولاً وآخرها ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها .

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به ، فكذلك المرید يحتاج إلى شيوخ وأستاذ يقتدى به لاحالة إلهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يسكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لاحالة ، فمن

سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تحف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر . فاعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبقى في متابعته شيئاً ولا يذر ، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب فإذا وحد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر . وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد لإصلاح قلبه ليساهد به ربه ويصلح لقربه .

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رفته ، ورقته مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الخواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم ! وقال سهل بن عبد الله التستري : ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال ، بإخفاف البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس . فمائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة . وسياً في بيان وجه التدريب فيه في كتاب كسر الشهوات وأما السهر فإنه يحلو القلب ويصميه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالنوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتنا ، فتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة . والسهر أيضاً نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن ، والنوم يقسى القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل في صفة الأبدال : إن أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة . وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : أجمع رأى سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وأما الصمت فإنه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره ، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ويستقل التجرد للذكر والفكر فيسترى إليه . فالصمت يلقح العقل ويحلب الورع ويعلم والتقوى .

وأما حياة الخلوة فمبادئها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهلز القلب . والقلب في حكم حوض نصب إليه مياه كريمة كدرة قدرة من أنهار الخواص ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر ، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيمتلئ في كل حال أكثر مما ينقص ؟ فلا بد من ضبط الخواص إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم ، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو لزار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له « يا أيها المزمل - يا أيها المدثر » (١) .

(١) حديث : بدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقبله (يا أيها المزمل - يا أيها المدثر) متفق عليه من حديث جابر « جاورت بجرا فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنهارت عن يميني ... الحديث » وفيه « فأثيت خديجة فقلت : دثروني وصبوا على الماء باردا فدثروني وصبوا على ماء باردا » قال فزلت (يا أيها المدثر) وفي رواية فقلت « زملوني زملوني » ولها من حديث عائشة فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فهذه الأربعة جنة وحسن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق . فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلك الطريق . وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض . والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأهل والأسهل . وهى تلك الصفات ؛ أعنى أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة ، وآثارها ؛ أعنى المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوق إلى المعاصي ، فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة ، وفيه تطول المجاهدة ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ؛ فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة ، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المرید - كما سبق ذكره - فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة ؛ شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام وينمعه من تكثير الأوراد الظاهرة ، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً ، وهو لباب الأوراد وثمرتها ؛ أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلق من ذكر غيره ، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علاقته . قال الشبلي للحصري : إن كان يخطر بقلبك من الجملة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني . وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد . فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال ، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال ، وعند ذلك يلقنه ذكرًا من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً : الله الله . أو : سبحان الله سبحان الله . أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة ، غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه ، لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره - أى شيء كان - . فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود دخلاً لا محالة عن غيره ، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تهلق بالدنيا وما يتدكر فيه بما قد مضى من أحواله وأحوال غيره ، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً نقصاناً ، فليجتهد في دفع ذلك . ومهما دفع الوسوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءت الوسوس من هذه الكلمة ، وأنها : ما هي ؟ وما معنى قولنا : الله ؟ ولأى معنى كان لها وكان معبوداً ؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كافر وبدعة . ومهما كان كارهاً لذلك ومتشمرًا لإماعلته عن القلب لم يضره ذلك . وهى منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزّه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره ، فشرطه أن يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى ﴿ وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه ، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفتات إلى علة أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحدًا ، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته ، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته ، وإن علم

أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها ، فكم من مرید اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم . ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر ، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بدين العجائز »^(١) وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير ، فإن الخطر في العدول عن ذلك كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المرید فإن لم يكن ذكياً فطنا متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر ، بل يردده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجربين للفكر لتشمله بركتهم فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقى القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زميرتهم وتعمه بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم ، ثم المرید المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقفاً ، بل ينبغي أن يلزم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة .

قال بعض السياحين : قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق . وقال مرة : قلت له دلتني على عمل أجد قلبى فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لى : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بدنى من ذلك ، قال : فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى من ذلك ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لى من معاملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعلة ، قال : يا هذا أنتظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا ما لا يكون أبداً .

فإذا انتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة ، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلي له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً ، وإذا انكشف المرید شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصيحاً ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة ، فتدعو تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتقبل إليه القلوب والاسماع ، فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموقى الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام ، فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محرّك كيد القبول وإن

(١) حديث « عليكم بدين العجائز » قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فليكن بدين أهل البادية » والمسائي وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يهتم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم .

كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرجه ويقول : الحمد لله الذى عضدنى وأبدنى بمن وأزرنى على إصلاح عباده . كالذى وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجدته ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه ، والغافلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغى أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزيز على الوجود جدا فينبغى أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم حبال الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إشار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ثم بين أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال ﴿ إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتى فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه - أعنى به الشهوات المتعلقة بها - ثم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب في كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب في آفات اللسان ، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب في ذم الكبر والعجب ، وكتاب في مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنجيات ، وما ذكرناه في الكتاب الثانى هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب . أما تفصيلها فإنه يأتى فى هذه الكتب إن شاء الله تعالى . ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبريائه وتعالیه ، المستحق للتحميد والتقدیس والتسبيح والتنزيه ، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتطوّل بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارد ومجاريه ، المنعم عليه بما يريد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه ، فهو الذى يرشده ويهديه ، وهو الذى يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذى يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلك ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ، ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه ، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه ، هذا

بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يتمتحنه به ويبتليه ، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه ويبتليه ، وكيف يحفظ أوامرہ ويتهى عن نواهيه ، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه . والصلاة على محمد عبده النبيه ، ورسوله الوجيه ، صلاة تزلفه وتحظيه ، وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتابعيه .

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحقوا من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوءاتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ؛ ثم تتبع شهوة الطعام والتمسك شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات ؛ ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ؛ ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة لإهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لاذنعت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتنا تحذيراً منها ، ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبية على فضلها ترغيباً فيها ، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها . ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة ، ثم القول في شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المرید في ترك التزويج وفعله ؛ ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش»^(١) ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه»^(٢) ، وقيل يازسول الله أى الناس أفضل ؟ قال «من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستربه عورته»^(٣) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف»^(٤) ، وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة»^(٥) ، وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة»^(٦) ، وقال الحسن أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكرافى الله سبحانه ، وأفضلكم

كتاب كسر الشهوتين

(١) حديث «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش» لم أجده أصلاً (٢) حديث ابن عباس «لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه» لم أجده أيضاً (٣) حديث : أى الناس أفضل ؟ قال «من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستربه عورته» يأتى الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث (٤) حديث «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف» (٥) حديث أبو سعيد الخدرى «البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون» (٦) حديث «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة»

عند الله عز وجل يوم القيامة كل ثوم أكل وشروب^(١) ، وفي الخبر : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجوع من غير عوز^(٢) ، أى محتاراً لذلك وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يباهى الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا ياملائكة ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثرت عليه الماء^(٤) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه وإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه^(٥) ، وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه : إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا ، الأحفياء الاتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا ، تعرفهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل ، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب ، ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم ، تبكى الأرض إذا فقدتهم ويستخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعنا غيرا يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء ، ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقاوبهم إلى أمر الله الذى أذهب عنهم الدنيا ، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس ، لهم الشرف في الآخرة ، يا أسامة إذا رأيته في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوماً هم فيهم . الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض . اتخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجو بهم . وإن استطعت إن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل . فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين . وتفرح بقدم روحك الملائكة ويصلى عليك الجبار^(٦) .

روى الحسن عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء^(٧) » ، وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين أجيئوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل^(٨) . وروى ذلك أيضاً عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس . وقيل مكتوب في التوراة : إن الله ليبيغض الحبر السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعالى يبيغض القارىء السمين وفي خبر مرسل : إن

(١) حديث الحسن « أفنديكم عند الله أطولكم جوعاً وعطشاً » كراً... الحديث « لم أجدهم إلا حديثاً المتقدمه أصلاً (٢) حديث كان يجوع من غير عوز - أى محتاراً لذلك - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة : قالت لو شئنا أن نشبع لشبعنا واسكن محمد صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه . وإسناده معضل (٣) حديث « إن الله يباهى الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن عدى في السكامل وقد تقدم في الصيام (٤) حديث « لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب الحديث » لم ألق له على أصل (٥) حديث « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث المقدم وقد تقدم .

(٦) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة « أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه .. الحديث » بطوله أخرجه الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ، ومن طريقه رواه ابن الجوزى في الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد السكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضاً ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه (٧) حديث الحسن عن أبي هريرة « البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف . (٨) حديث طاوس مرسلاً « أجيئوا أكبادكم ... الحديث » لم أجده أيضاً .

الشیطان لیجرى من ابن آدم مجرى الدم فضیقوا بحجاریه بالجوع والعطش ^(١) ، وفى الخبر : إن الأكل على الشبع یورث البرص ^(٢) ، وقال صلى الله تعالى علیه وسلم : المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء ^(٣) ، أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعنى كفاية عن الشهوة لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعى . وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم یقول : « أدیموا قرع باب الجنة یفتح لكم ، فقلت : کیف ندیم قرع باب الجنة ؟ قال : بالجوع والظما ^(٤) » ، وروى : « أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم فقال له : أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً فى الدنيا ^(٥) » ، وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول : إن رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم لم یتمثل قط شبعاً وربما بكيت رحمة بما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بیدى وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما یقول بك ویمنعك من الجوع ؟ فیقول : « یا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا مضوا على حالهم ففسدوا على ربهم فأكرم ما بهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى إن ترفهت فى معیشتى أن یقصر بى غداً دونهم فالصبر أياماً یسیرة أحب إلى من أن ینقص حظى غداً فى الآخرة وما من شیء أحب إلى من اللجوء بأصحابى وإخوانى » قالت عائشة : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله لیه ^(٦) » وعن أنس قال : جاءت فاطمة رضوان الله علیها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم فقال : « ما هذه الكسرة » قالت : قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك منه بهذه الكسرة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم : « أما إنه أول طعام دخل فم أبیک منذ ثلاثة أيام ^(٧) » ، وقال أبو هريرة : « ما أشبع النبى صلى الله تعالى علیه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الخنطة حتى فارق الدنيا ^(٨) » وقال صلى الله تعالى علیه وآله وسلم : « إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون المملأى وما ترك عبد أكلة یشتبهها إلا كانت له درجة فى الجنة ^(٩) » .

وأما الآثار : فقد قال عمر رضى الله عنه : إیاكم والبطنة فإنها ثقل فى الحیاة تن فى الممات . وقال شقیق البلخى العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة . وقال لقمان لابنه : یابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحسنة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وكان الفضیل بن عیاض یقول لنفسه : أى شیء تخافین ؟ أنخافین أن تجوعى ؟ لا تخافى ذلك ؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما یجوع محمد - صلى الله تعالى علیه وسلم - وأصحابه . وكان کهمس یقول لاهلى

(١) حدیث « إن الشیطان لیجرى من ابن آدم مجرى الدم ... الحدیث » تقدم فى الصیام دون الزیادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبى الدنیا فى مکاید الشیطان من حدیث علی بن الحسین دون الزیادة أيضاً .

(٢) حدیث « لمن الأكل على الشبع یورث البرص » لم أجده أصلًا (٣) حدیث المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء » . تتفق علیه من حدیث عمر وحديث أبى هريرة . (٤) حدیث الحسن عن عائشة « أدیموا قرع باب الجنة ... الحدیث » لم أجده أيضاً (٥) حدیث : « أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم فقال له : أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً فى الدنيا » أخرجه البیهقی فى الشعب من حدیث أبى جحيفة وأصله عند الترمذی وحسنه وابن ماجه من حدیث ابن عمر : تجشأ رجل . الحدیث . لم يذكر أبا جحيفة .

(٦) حدیث عائشة : « أنه صلى الله تعالى علیه وسلم لم یتمثل شبعاً قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع الحدیث . أخرجه أبو موسى المدينى مطولاً فى کتاب استجلاء الموت وأورد منه عیاض فى الشفاء (٧) حدیث أنس : « جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم ... الحدیث أخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بسند ضعيف (٨) حدیث أبى هريرة : « ما شبع النبى صلى الله تعالى علیه وسلم ثلاثاً أيام تباعاً من خبز الخنطة حتى فارق الدنيا . أخرجه مسلم وقد تقدم (٩) حدیث « إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة » أخرجه الطبرانی وأبو نعیم فى الحلیة من حدیث ابن عباس باسناد ضعيف .

اجعتني وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلسني فبأى وسيلة بلغتني ما بلغتني ؟ وكان فتح الموصلي إذا اشتد مرضه وجوعه يقول : إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأى عمل أزدى شكر ما أنعمت به علي ؟ وقال مالك بن دينار : قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليظة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض . وكان الفضيل بن عياض يقول : إلهي أجمعتني وأجمعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأى منزلة نلت هذا منك ؟ وقال يحيى بن معاذ : جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة . وفي التوراة اتق الله وإذا شعبت فاذكر الجوع : وقال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشاءي أحب الي من قيام ليلة إلى الصبح ، وقال أيضاً : الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه . وكان سهل بن عبد الله التستري يطوى نيما وعشرين يوماً لا يأكل ، وكان يكفيه طعامه في السنة درهم ، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله . وقال : لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا . وقال : لأعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال : وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت المعصية والجهل في الشبع . وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال . وقد جاء في الحديث : نلت للطعام فن زاد عليه فأنما يأكل من حسناته ^(١) . وسئل عن الزيادة فقال : لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين ، فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال صار الأبدال أبدالاً إلا بإخصاص البطون والسهر والصمت والخلو . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال : من جوع نفسه انقطعت عنه الوسوس . وقال : إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلوا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد . وقال : مامر على وجه الأرض أحد شرب من هذا المساء حتى روى فسلم من المعصية - وإن شكر الله تعالى - فكيف الشبع من الطعام ؟ وسئل حكيم بأى قيد أقيد نفسي ؟ قال : قيدها بالجوع والعطش ، وذلكها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتهما بدوام سوء الظن بها ، واصحبها بخلاف هواها . وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ماصي أحدنا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع ، وقال أبو طالب المسكي : مثل البطن مثل المزهر وهو العود المحجوف ذو الأوتار - إنما حسن صوته لحفته ورقته لأنه أجوف غير ممتلئ ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للنم . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني : ثلاثة يحبهم الله تعالى ؛ رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة . وروى أن عيسى عليه السلام مكث بناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل لخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فإذا رغب موضوع بين يديه ، فجلس يبكي على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى : بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى فأني كنت في حالة لخطر ببال الخبز فانقطعت عني ، فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببال منذ عرفتكم فلا تغفروني ، بل كان

إذا حضر لى شيء أكلته من غير فكر وخاطر ، وروى أن موسى عليه السلام لما قرب به الله عز وجل نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما - ثلاثين ثم عشرا - على ما ورد به القرآن ؛ لأنه أمسك بغير تبذير يوما فزيد عشرة لأجل ذلك .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك ، ولعلك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا لإيلام المعدة ومقاساة الأذى ! فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى مجراه ؟ فاعلم أن هذا يضاهى قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعة الداء ومرارته ، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط ، بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مرا ، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماءرة العلماء ومن جوع نفسه مصداقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعا .

ولكننا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فنقول : في الجوع عشر فوائد .

الفائدة الأولى : صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك ، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني : عليك بالجوع فإنه مذهب للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوى . وقال صلى الله عليه وسلم : أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترقى ^(١) ، ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة كاللمطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه ^(٢) ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من شبع ونام قسا قلبه ، ثم قال : لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع ^(٣) ، وقال الشبلى : ما جعلت لله يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامي : الجوع سحاب فإذا جامع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل والشبع ، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والدنق منهم . لانشبعوا

(١) حديث « أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترقى » لم أجده أصلا (٢) حديث « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه » كذلك لم أجده أصلا (٣) حديث « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « إن اسكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « لسل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم » وإسناده ضعيف

فتطشوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله .^(١) .

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفافه الذى به يتها لإدراك لذة المثابة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب ، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه ، وقال أبو سليمان الداراني : أحلى ما تكون له العباداة إذا التصق ظهري ببطنى . وقال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلالة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وعطش صبا ورق ، وإذا شبع عوى وغلط ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة .

الفائدة الثالثة . الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشرف الذى هو . بدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخضع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضافت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره ، وإنما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا لنفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهدا للاضطراب بالذوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جمعت صبرت وتصرعت وإذا شبعنت شكرت^(٢) ، أو كما قال . فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع . ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر .

الفائدة الرابعة : أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ؛ ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع ، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عتله عطش الخلق في عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الزقاق والمهل ، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذى يهيج الخوف ، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه ، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى ما يقيسه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثال فالأمثل . ولذلك قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفي يدك خزان الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ، فذكر الجائعين والمحتارين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل . والشبعان في غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة . وهي من أكبر الفوائد . : كسر شهوات المعاصى كإيا والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لاحتالة الأطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة في أن تملكه نفسه ، وكما أنك لا تملك الدابة الجروح إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم : ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك

(١) حديث « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ... الحديث » ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وكتب عليه لأنه مسند وهو علامة مارواه بإسناده (٢) حديث « أجوع يوما وأشبع يوما ... الحديث » تقدم وهو عند الترمذى .

وقد أنهت؟ فقال : لأنه سريع المرح فاحش الاشر فأخاف أن يجمع في فيورطني ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملني على الفواحش . وقال ذو النون : ماشبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية : وقالت عائشة رضى الله عنها : أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشبع .

إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد . ولذلك قيل : الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع : شهوة الفرج وشهوة الكلام ، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها ، فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكك لآحالة بأعراض الناس ، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

وأما شهوة الفرج : فلا تخفى غائلتها ، والجوع يكفي شرها . وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه ، وإن منعه التقوى فلا يملك عينه ، فاعين ترى كما أن الفرج يزني ، فإن ملك عينه بنقض الطرف فلا يملك فكره ، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته ، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة .

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا ، وإلا لجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع . قال حكيم : كل مربد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة الدساء .

الفائدة السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فإن من شبع شرب كثيرا ، ومن كثير شربه كثير نومه ولاجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا . وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب . وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجّد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر ، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ، ثم فضيلة التهجّد لا تخفى وفي النوم فواتها . ومهما غلب النوم فإن تهجّد لم يجد حلاوة العبادة ، ثم المتعزّب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجّد ، ويحوج إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل ، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجّد ، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام ، فإن فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال . فالنوم منبع الآفات ، والشبع مجلبة له ؛ والجوع مقطعة له .

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه . والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه . قال السري رأيت مع علي الجرجاني سويفا يستف منه فقلت : ما حلك على هذا ؟ قال : إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستغفار سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة . فانظر كيف أشفق على وقته ولم بضيعه في المضغ . وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد ، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء

وإراقته . ومن جملة الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحقها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الاختلاط في المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينقص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يتحملها الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات ، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندي ، ورومي ، وعراقي ، وسوادي . وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه . فقال الهندي : الدواء الذي لاداء فيه عندي هو الإهليلج الأسود . وقال العراقي : هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومي . هو عندي المساء الحار . وقال السوادي : وكان أعلمهم — الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء ، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء ، والمساء الحار يرخي المعدة وهذا داء . قالوا . فما عندك ؟ فقال الدواء الذي لاداء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهي ؛ وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهي . فقالوا : صدقت وذكري بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم « ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس »^(١) فتعجب منه وقال ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا ولأنه لسكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعقودوا كل جسم ما اعتاد »^(٢) ، وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذلك . وقال ابن سالم : من أكل خبز الخنطة محتاً بأدب لم يمتل إلا علة الموت . قيل . وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار : إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ؛ ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان . وفي الحديث صوموا تصحوا^(٣) ، ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطفيلان والبطر وغيرهما .

الفائدة التاسعة : خفة المؤونة فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً به مخنقه في كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيمضي أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقناء والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء : إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي . وقال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي . وكان إبراهيم ابن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر الماء كولات فيقول إنها غالية فيقول : أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله : الأكل مذموم في ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل ، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات

(١) حديث « ثلث للطعام » تقدم أيضاً (٢) حديث « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وهو دوا كل بدن بما اعتاده » لم أجده أصلاً .

(٣) حديث « صوموا تصحوا » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا ، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج ، وسبب شهوة الفرج ، شهوة البطن . وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « أديموا قرع باب الجنة بالجوع » ، فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حراً واستغنى عن الناس واستراح من التعب ، وتخلي لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة ، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة ، وأما المحتاج فتلهيه لا محالة .

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته (٢) كما ورد به الخبر : فما يأكله كان خزانته الكئيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى ، فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمه والشبع . وكان الحسن رحمه الله عليه إذا تلا قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ قال عرضها على السموات السبع والطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملها العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت ، فقالت : لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ، ثم عرضها على الجبال الشواخ الصلاب الصعاب فقال لها . هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت : لا ، ثم عرضها على الإنسان لحملها إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه . فقد رأيناهم والله اشترى الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فاذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم ، وأسمنوا براذنيهم وأهزلوا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالغدق والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله في عافية ، يقول أحدهم تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا ، يتسكى على شماله ويأكل من غير ماله ، حديثه بخيرة وماله حرام حتى إذا أخذته السكطة ونزلت به البطنة قال : يا غلام ائتنى بشيء أهضم به طعاعى ، يالكع أطعامك تهضم ؟ إنما تهضم دينك ، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم ؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه . ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل ممين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال : لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك (١) ، أى لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أفواما كان الرجل منهم يسمى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لا كاه فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تنهاى فوائدها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة . بل ذلك صريح في الأخبار التي روينها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان

(١) حديث « كل امرئ في ظل صدقته » أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم .

(٢) حديث : نظر إلى رجل ممين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك » أخرجه أحمد والحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب من حديث جملة الجهمي ومسانده جيد .

والله أعلم بالصواب .

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد في بطنه وما كوله أربع وظائف : الأول أن لا يأكل إلا حلالاً فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام ، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتبهات وتركها .

أما الوظيفة الأولى : في تقليل الطعام ، فسييل الرياضة فيه التدرج ، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته ، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً ، أو جزءاً من ثلاثين جزءاً ، فيرجع إلى رغيف في شهر ، ولا يستعصر به ولا يظهر أثره ، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة ، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس . ثم هذا فيه أربع درجات .

أفصاها : أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين . وهو اختيار سهل التستري رحمه الله عليه إذ قال : إن الله استعبد الخلق بثلاث ، بالحياة ، والعقل ، والقوة . فإن خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل ، أكل وأفطر إن كان صائماً . وتكلف الطالب إن كان فقيراً . وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال ، فينبغي أن لا يبالي . ولو ضعف حتى صلى قاعدا وأرى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يفتات به فقال . كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم ، كنت آخذ بدرهم دبساً ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمناً ، وأخلط الجميع وأسوى منه ثلاثمائة وستين أكرة ، آخذني كل ليلة أكرة أفطر عليها ، فقليل له : فالساعة كيف تأكل ؟ قال : بغير حدة ولا توقيت : ويحكى عن الرهابيين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام :

الدرجة الثانية : أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم واللبلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين - كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم - وهو فوق اللقيات لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لمادون العشرة ، وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم .

الدرجة الثالثة : أن يردّها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف ، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين ، ويكاد ينتهي إلى ثلث البطن ، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر . وفي بعض الألفاظ « ثلث للذكر » بدل قوله « للنفس » ، الدرجة الرابعة : أن يزيد على المد إلى المن ، ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أعنى في حق الأكثرين ، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن ، والشخص ، والعمل الذي يشتغل به . وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط ، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ، ويشبهه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة .

وقد ذكر للجوع الصادق علامات ؛ إحداها : أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة — أى خبز كان — فهما طلبت نفسه خبزاً بعينه أو طلبت أدماً فليس ذلك بالجوع الصادق . وقد قيل : من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه ؛ أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ، ومعرفة ذلك غامض . فالصواب المرید أن يقدر مع نفسه القدر الذى لا يضعفه عن العبادة التى هو بصدها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته . وعلى الجملة : فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة فى كل جمعة ، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً ، وصاع الحنطة أربعة أمداد ، فيكون كل يوم قريباً من نصف مد . وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن — واحتيج فى التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبوذر رضى الله عنه يقول : طعمى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فإني سمعته يقول « أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم »^(١) ، وكان يقول — فى إنكاره على بعض الصحابة : قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين فى كل يوم^(٢) والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء ، والمنافق مثل السبع الضارى بلعاً بلعاً وسرطاً سرطاً لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله ، وجهوا هذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأكل ومقدار تأخيريه وفيه أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها ، وفى المريد من رد الرياضة إلى الطى لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً ، وانتهى إليه جماعة من العلماء بكثر عددهم منهم : محمد بن عمرو القرنى ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، ورجيم ، وإبراهيم التيمى ، وحجاج بن فرافصة ، وحفص العابد المصيصى ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله التستري ، وإبراهيم بن أحمد الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعة . وروى أن الثوى وإبراهيم بن آدم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً ، كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة . قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر برهاب فذاكره بحاله وطمع فى إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور ، فكلّمه فى ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب : إن المسيح كان يطوى أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صديق ، فقال له الصوفى : فإن طويت خمسين يوماً أتت عليه وتدخل فى دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنتك على باطل ؟ قال ؛ نعم ، فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً ، ثم قال ؛ وأزيدك أيضاً فطوى إلى تمام الستين ، فتمعجب الراهب منه وقال ؛ ما كنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح ؟ فكان ذلك سبب إسلامه .

(١) حديث أبى ذر « أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم » أخرجه أحمد فى كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية دون قوله « وأحبكم إلى » وهو منقطع (٢) حديث : كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين فى كل يوم » أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث طلحة البصرى .

وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وأنساء جوعته وحاجته .

الدرجة الثانية : أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة .

الدرجة الثالثة : وهي أدناها أن يقتصر في اليوم واللييلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع ، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة ، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد (١) وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة « إياك والسرف ، فإن أكلتين في يوم من السرف ، وأكلة واحدة في كل يومين إقتار ، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك » (٢) وهو المحمود في كتاب الله عز وجل .

ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام ، وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر ، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماءه ، وما واصل وصالككم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر (٣) وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر (٤) فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين ، فإن كان رغبين مثلاً أكل رغبيناً عند الفطر ورغبيناً عند السحر ، لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد وبالثاني على الصوم . ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر . فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه .

الوظيفة الثالثة : في نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه ، وأوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل . وأعلى الأدم اللحم والحلاوة ، وأدناه الملح والخل ، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم . وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات ، فإن كل لذية يشتهيها الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وأنسأله بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى ، وتصير الدنيا جنة في حقه ويكون الموت سجيناً له . وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمتها لذاتها صارت الدنيا سجيناً عليه ومضيقاً له فاشتتهت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقاً . وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لولية الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس ، فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فإنه يجري في كل الشهوات وتناول اللذات فلا تطول بإعادته ، فلذلك يعظم الثواب

(١) حديث أبي سعيد الخدري : كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد « لم أجده له أصلاً » (٣) حديث : قال لعائشة « إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السرف » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال في إسناده ضعف . (٢) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى تزلج قدماءه . رواه النسائي مختصراً : كان يواصل حتى تزلج قدماءه . وإسناده جيد . (٤) حديث : كان يواصل إلى السحر . لم أجده . وإنما هو من قوله « فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » رواه البخاري من حديث أبي سعيد : وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه .

في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين يأكلون مخ الخنطة »^(١) ، وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص ، ومن دام عليه أيضاً فلا يعصى بتناوله ، ولكن تربي نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتأنف اللذات وتسمى في طلبها فيجرحها ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمة ، لأن مخ الخنطة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاص . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم »^(٢) ، وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنحك من كثير الشهوات . وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيق الاطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روى أن وهب بن منبه قال : التقي ملائكة في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله ، وقال الآخر : أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال : اعزلوا عني حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات . كما أوردناه في كتاب رياضة النفس . وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتبهى سمكة طرية فالتفت له بالمدينة فلم توجد ، ثم وجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام : لفها برغيفها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتبهيتها منذ كذا وكذا فلم نجد لها فوجدتها اشتريتها بدرهم ونصف ، فنحن نعطيها ثمنها ، فقال : لفها وادفعها إليه ، ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهما وتركها ؟ قال : نعم فأعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال : قد أعطيت درهما وأخذتها منه ، فقال : لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتبهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار »^(٤) ، أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررها دون التمتع بلذات الدنيا ، وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له : إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلنني ، فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فأتوه بشريد لحم فأكل معه عمر ، ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال : الله يا يزيد بن أبي سفيان أطعام بعد طعام ؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سلتهم ليخالفنكم عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال : ما نخلت لعمر دقيقاً قط إلا وأنا له عاص . وروى أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيا في الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من جب كان في الشمس نهاره

(١) حديث « شرار أمتي الذين يأكلون مخ الخنطة » لم أجده أصلاً (٢) حديث « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم .. الحديث » أخرجه ابن عدى في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسل ، قال الدارقطني في العلل : أنه أشبه بالصواب ، ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة بإسناد لا بأس به (٣) حديث نافع : أن ابن عمر كان مريضاً فاشتبهى سمكة ... الحديث . وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتبهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب بإسناد ضعيف جداً ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

(٤) حديث « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

فتقول مولاة له : يا عتبة لو أعطيتني دقيقتك فخبزته لك وبردت لك الماء ؟ فيقول لها : يا أم فلان قد شردت عني كلب الجوع .

قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل - عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم - يبكي وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت : إيش هذا البكاء يا أبا إسحق ؟ فقال : خير ، فعاودته مرة وثلاثين وثلاثاً ، فقال : يا شقيق استر على فقلت يا أخى قل ماشئت ، فقال لي : اشتيت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجا فنعيتها جهدى ، حتى إذا كان البارحة كنت جالسا وقد غلبني النعاس إذ أنا بفى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج ، قال : فاجتمعت بهمتي عنه فقبزه وقال : يا إبراهيم كل ، فقلت : ما آكل قد تركته لله عز وجل ، فقال لي : قد أطعمك الله كل ، فما كان لي جواب إلا أنى بكيت ، فقال لي : كل رحمك الله ، فقلت : قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم ، فقال : كل عافاك الله فإنما أعطيتك ، فقيل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحما الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها . اعلم يا إبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون : من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط ، فقلت : إن كان كذلك فما أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى ، ثم التفت فإذا أنا بفى آخر ناوله شيئا وقال : يا خضر لقمه أنت ، فلم يرل يلقمنى حتى نعست فانتبهت وحلاوته في فمى ، قال شقيق : فقلت أرنى كفك ، فأخذت بكفه فقبلتها وقلت : يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع ، يا من يقدح في الضمير اليقين ، يا من يشفى قلوبهم من محبته ، أترى لشقيق عندك حالا ؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت : بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك ، قال : فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت .

وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا فلم يأكله . وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه : كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبي الحواري . اشتهى أبو سليمان الداراني رغيفا حارا بملح فجثت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال : عجبت إلى شهوتي بعد إطالة جهدى واشقوتى قد عزمت على التوبة فأقلى ! قال أحمد . فما رأيته أكل المالح حتى لقي الله تعالى . وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسى : لو أطعمتني الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة . ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بصرة قط وقال . يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بصرة فما زاد فيكم ما نقص منى ولا نقص منى ما زاد فيكم . وقال . طلقت الدنيا ، منذ خمسين سنة ، اشتيت نفسي لبنا منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى . وقال حماد بن أبي حنيفة . أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعتة يقول . نفسى اشتيت جزراً فأطعمتك جزراً ، ثم اشتيت تمرأ فأليت أن لا تأكله أبدا ، فسلمت ودخلت فإذا هو وحده . ومتر أبو حازم يوما في السوق فرأى الفاكهة فاشتتها ، فقال لابنه . اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التى لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال انفسه : قد خدعتينى حتى نظرت واشتيت وغلبتني حتى اشتريت والله لا ذقتيه فبعث بها إلى يتامى من الفقراء وعن موسى الأشج أنه قال . نفسى تشتهى ملحاً جريشا منذ عشرين سنة . وعن أحمد بن حنيفة قال : نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ما طلبت منى إلا الماء حتى تروى فما أرويتها . وروى أى عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين - سنة بعد سنة - فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها

وتركتها على رغيف فلقيت صبيًا فقلت ، ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك ؟ قال . بلى ، فناولته إياها قالوا . وأقبل يبكي ويقرأ ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ﴾ ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهي تمرًا سنين ، فلما كان ذات يوم اشترى تمرًا بغيراط ورفع له الليل ليفطر عليه قال . فهبت ريح شديده حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس ، فأقبل عتبة على نفسه يقول : هذا لجراء تر عليك وشرائي التمر بالقيراط ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ؟ على أن لا تذوقيه . واشترى داود الطائي بنصف فلس بقلًا وبفلس خلا ، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه . وبلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ، ثم لم يأكل بعده إلا فقارًا ، وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد . إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال : لأنك تأكل مع خبزك تمرًا وهو لا يزيد على الخبز شيئًا قال : فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال . نعم ؛ وغيرها فأخذ يبكي فقال له بعض أصحابه لأبكي الله عينك أعلى التمر تبكي ؟ فقال عبد الواحد دعه ؛ فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك ، وهو إذا ترك شيئًا لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر . أمرني الجنيد أن أشتري له التين الوزيرى ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها في فمه ثم ألقاها وجعل يبكي ، ثم قال . أحمله فقلت له في ذلك فقال . هتف بي هاتف أما تستحي ؟ تركته من أجلي ثم تعود إليه ! وقال صالح المري . قلت لعطاء السلمي إني متكلف لك شيئًا فلا ترد على كرامتى ، فقال . افعل ما تريد ، قال . فبعثت إليه مع ابني شربة من سويق قد لنته لسمن وعسل ، فقلت : لا تبرح حتى يشربها ، فلما كان من الغد جمعت له نحوها فردها ولم يشربها ، فعاتبته ولمنه على ذلك وقلت . سبحان الله رددت على كرامتى ! فلما رأى وجدى لذلك قال . لا يسوءك هذا ، إني قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى في المرة الثانية على شربها فلم أفدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ الآية قال صالح . فبكيت وقلت في نفسى . أنا في واد وأنت في واد آخر . وقال السرى السقطي . نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبني أن أغس جزرة في دبس فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء . أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها ، فيقول لها : لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا لجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد . مه أى شئ تصنع ! أما علمت أن في الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانعا ، حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والأرض والبهايم وبني آدم حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به .

وفي الخبر « لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى ترحى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الخباز ﴾ (١) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (٢) ، وقال بعضهم : أتيت قاسما الجرعى فسألته عن الزهد أى شئ هو ؟ فقال : أى شئ سمعت فيه ؟ فعددت أقوالا فسكت فقلت : رأى شئ تقول أنت ؟ فقال : اعلم أن البطن دنيا العبد فيقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ، وبقدر ما يملك بطنه تملك الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شئ يوافقه من المأكولات ، فقال : نسألك فإذا وصفت لك لم تقبل منى ، قال : صف لى حتى أسمع ، قال : تشرب سكنجينا وتمص سفر رجلا وتأكل

(١) حديث « لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل .. الحديث » لم أجده أصلا

بعد ذلك اسفيد باجا ، فقال له بشر : هل تعلم شيئاً أقل من السكنجبين يقوم مقامه ، قال : لا ، قال : أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الهندبا بالخل ، ثم قال : أتعرف شيئاً أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال أنا أعرف قال : ماهو ؟ قال : الخرنوب الشامي ، قال : فتعرف شيئاً أقل من الاسفيد باج يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف : ماء الحمص بسمن البقر في معناه ، فقال له عبد الرحمن : أنت أعلم مني بالطب ؛ فلم تسألني ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات ، وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها ، وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرضوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان : الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة . وهذا هو النهاية . فن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك في الشهوات ، فكفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما يشتهي ، ويفعل كل ما يهواه فينبغي أن لا يواظب على أكل اللحم . وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه . وقيل إن للمداومة على اللحم ضراوه كضراوة الخمر . ومهما كان جائعاً وتاقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجماع ، فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع . ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلة فيعاد الفتور ويقسوق قلبه لذلك ، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر . وفي الحديث « أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم »^(١) ، وأقل ذلك أن يصلي أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءاً من القرآن عقيب أكله . فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها ، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر ، وكان يقول . أشبع الزبجي وكذومرة يقول : أشبع الحمار وكذو . ومهما اشتبه شيئاً من الطعام وطيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلاً منه لتكون قوتاً ، ولا تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة . نظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له : ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك . ومهما وجد طعاماً لطيفاً وغلظاً فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهي الغليظ بعده ، ولو قدم الغليظ لا كل اللطيف أيضاً للطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه : لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها ، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبدالله ابن عمر رحمة الله عليهما : ما أتينا من العراق فأكهه أحب إلينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فأكهه .

وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة بشهواته . قال بعض أهل البصرة : نازعتني نفسي خبز أرز وسمكا فنتعتها ، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة ، فلما مات قال بعضهم : رأيته في المنام فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال : لا أحسن أن أصف ما التقاني به رب من النعم والكرامات ، وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسمكا . وقال : كل اليوم شهواتك هنيئاً بغير حساب . وقد قال تعالى « كانوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان : ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . وفقنا الله لما يرضيه .

(١) حديث « أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم » أخرجه الطبراني وابن السني في اليوم واليلة من حديث عائشة بسند ضيف .

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق : الوسط ، إذ خير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم . وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يوصى إلى أن الإفراط فيه مطلوب وهيئات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه ، على وجه يوصى عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان . والعالم يدرك أن المقصود الوسط ، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينهى أن يمدح غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاربان ويحصل الاعتدال ، فإن من يقدر على قمع الطبع بالسكينة بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية ؛ فإنه إن أسرف - مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته ، كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه ^(١) فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها . فالمقصود أن يأكل أكلاً لا يبقى الماء كوله فيه أثر ليكون متشبهاً بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع ، وغاية الإنسان الاقتداء بهم . ولذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال

ومثال طلب آدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض ، فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط ، فلومات مانت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة : فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط ، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها » ^(٢) ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع .

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع ، كما يبالغ في إيلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مرينه بما لا يتعاطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ، ويمنعه الفواكه والشهوات ، وقد لا يتمتع هو منها ، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجحاح والامتناع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتتكسر نفسه . والمقصود أن تنكسر حتى

(١) حديث : النهي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله . تقدم (٢) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم .

تعتدل فتد بعد ذلك الغذاء أيضا إلى الاعتدال . وإنما يتمتع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة : إما صديق وإما مغرور أحق .

أما الصديق المستقيم : فلا استقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق . وأما المغرور : فإظنه بنفسه أنه الصديق المستغنى عن تأديب نفسه الظان بها خيرا . وهذا غرور عظيم وهو الأغلب . فإن النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا ، وكثيرا ما تغتر فتتظر إلى الصديق ومساحته نفسه في ذلك فيساع نفسه ، كما لمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك . والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير - في وقت مخصوص ونوع مخصوص - ليس مقصودا في نفسه - وإنما هو مجاهدة نفس متناهية عن الحق غير بالغة رتبة السكال - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم ^(١) وكان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إني إذن صائم » ^(٢) ، وكان يقدم إليه الشيء فيقول « أما إني قد أردت الصوم » ثم يأكل ^(٣) . وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال « إني صائم » فقالت له عائشة رضي الله عنها : قد أهدى إلينا حيس فقال « كنت أردت الصوم ولكن قربه » ^(٤) .

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له : كيف كنت في بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات ، منها : أنه كان يقاتل ورق النبق مدة . ومنها : أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقليل له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ فقال : آكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت : أنى آكل كثيرا ، بل أنى لا أقدر بمقدار واحد ما آكله . وقد كان معروف الكرخي يهدي إليه طيبات الطعام فيأكل ، فقليل له : إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطعمني أكلت وإذا جوعني صبرت ، مالي والاعتراض والتمييز ؟ ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا فقليل : يا أبا إسحق بهذا كله ؟ قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه نفرا يسيرا فيهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف إنما الإسراف في اللباس والأثاث .

فألذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة . وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دبس فما فعل . فيراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطئ . والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى

(١) حديث عائشة : كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم . متفق عليه . (٢) حديث : كان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إني صائم » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتي . (٣) حديث : كان يقدم إليه الشيء فيقول « أما إني قد أردت الصوم » أخرجه البيهقي من حديث عائشة بلفظ « وإن كنت قد فرضت الصوم » وقال لمسانده صحيح وعند مسلم « قد كنت أصبحت صائما » (٤) حديث : خرج وقال « إني صائم » فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى إلينا حيس فقال « كنت أردت الصوم ولكن قربه » أخرجه مسلم بلفظ « قد كنت أصبحت صائما » وفي روايه له « أدنيه فقد أصبحت صائما » فأكل وفي لفظ للبيهقي « إني كنت أريد الصوم ولكن قربه » .

اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسميها فطن محتاط أو غبي مغرور . فيقول المحتاط : ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سرى السقطى ومالك بن دينار ، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم . والمغرور يقول : ما نفسي بأعصى على من نفس معروف الكرخى وإبراهيم بن أدهم فاقتدى بهم وأرفع التقدير في مأكولى ، فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فمالى والاعتراض ؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض ، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحق ، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة ، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بذية ، فيكون عاملا لله في أكله وإفطاره ، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله ^(١) ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة مزوجة بعسل جعل يدير الإناء في يده ويقول : أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعثها . اعزلوا عنى حسابها ، وتركها .

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ إن يكشف بها مریده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعو إلى الاعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعو إليه . فينبغي أن يدعو إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال . ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة ، فإن الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيلحق إليه كل ساعة : إنك عارف كامل ، وما الذى فاتك من المعرفة والكمال . بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته . والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه الزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتلطفاً في سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان الاعتدال خفيا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك في كل حال . ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبدالله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مádوماً بسمن ، فعلاه بالدرّة وقال : لا أم لك كل يوما خبزاً ولحماً ، ويوما خبزاً ولبناً ، ويوما خبزاً وسمناً ، ويوما خبزاً وزيتاً ، ويوما خبزاً وملحاً ، ويوما خبزاً قفارا . وهذا هو الاعتدال ، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف ، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم .

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات : إحداهما : أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفى الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفى ، سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له : هل تعلم به بأساً ؟ قال يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة ، بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال ، وهو بدل عن فوات المجاهدات بالأعمال ، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتل ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين .

(١) حديث : كان يحب العسل ويأكله . متفق عليه من حديث عائشة : كان يحب الخلواء والعسل . . . الحديث . وفيه قصة شربه العسل عند بعض نساءه .

ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وسر ، فكان ستره لكفره كفر آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فحاشا الكفر عن ظاهره . والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلة من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشربون عليه حاله .

فنهاية الزهد : الزهد في الزهد بإظهار ضده وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذابين . وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجزعها كأس الصبر مرتين مرة بشر به ومرة برميته ؛ فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . وهذا يضاهي طريق من يعطى جهراً فيأخذ ويرد سرا ليكسر نفسه بالذل جهراً وبال فقر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه . ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان : إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك ، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان لإصلاح نفسه أهم عليه من غيره ، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره ، فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه واعلم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به في الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات ، فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه ، وتلك هي الشهوة الخفية فهما أحسن بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له . قال أبو سليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك منها ، فنكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نخصت عليها إذ لم تعطها شهوتها . وقال محمد بن جعفر الصادق : إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها ، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم ألتها منها شيئاً ، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفرغ إلى حية ؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام والله ولي التوفيق .

القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين ؛ إحداهما : أن يدرك لذته فيقيد به لذات الآخرة . فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد . والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة ، فإن مالا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق .

الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل في تأويل قوله تعالى ﴿ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به﴾ معناه شدة الغلبة ، وعن ابن عباس : في قوله تعالى ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال : هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره : الذكر إذا دخل . وقد قيل : إذا

قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله ^(١) . وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبي وهنى ومني ^(٢) » وقال عليه السلام « النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال ^(٣) » .

روى أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه فقال : السلام عليك يا موسى ، فقال له موسى من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، فقال : لحيالك الله ما جاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمزلتك من الله ومكانتك منه ، قال : فما الذى رأيت عليك ؟ قال : برنس أختطف به قلوب بنى آدم قال : فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوزت عليه قال : إذا أعجبت نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، وأحذر ثلثاً : لاتخل بامرأة لاتحل لك فإنه ما خلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفنته بها وأفتنها به ، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به ، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول : علم موسى ما يحذر به بنى آدم . وعن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عنده منهن ، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح . وقال بعضهم : إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطئ ، وأنت موضع سرى وأنت رسول فى حاجتى . فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب .

وأعظم الشهوات شهوة النساء . وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفریط واعتدال ، فالإفراط : ما يقهر العقل حتى يصرف همه الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين :

أحدهما : أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع - كما قد يتناول بعض الناس أودية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام - وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه فى بعض الاوقات فيحتال لإثارتها وتهيجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها ، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص .

« فإن قلت . فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة ^(٤) » ؟ فأعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تحتة تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتناع ، وحرّم على غيره نكاحهن وإن طلقهن ، فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع .

والأمر الثانى . أنه قد تذهب هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع ، وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحي منه حتى اعتقد أن الشهوة لاتقتضى إلا من محل واحد ، والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به ؟ وهذا لا يكتفى

(١) حديث ابن عباس موقوفاً مسنداً فى قوله تعالى « ومن شر غاسق إذا وقب » قال هو قيام الذكر وقال الذى أسنده : الذكر إذا دخل . هذا حديث لا أصل له (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبي وهنى ومني » تقدم فى الدعوات (٣) حديث « النساء حبائل الشيطان » أخرجه الأصفهاني فى الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهالة . (٤) حديث « شكوت إلى جبريل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة » أخرجه العقيلي فى الضعفاء والطبراني فى الأوسط من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً إلى ذل وعبودية إلى عبودية ، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لئلا يكون غادماً للشهوة ومحتالاً لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لاهمه . وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر ، وإلا فإذا استحك عسر دفعه . فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والبرد والشطرنج ، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة .

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعائه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجيهها إلى باب لتدخله ، وما أهون منعها بصرف عنانها . ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنها ويجرها إلى ورائها . وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر ، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح .

فإذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جداً . وتفريطها : بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحه ، وهو أيضاً مذموم . وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطبعة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم : « معاشر الشباب عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء » (١) .

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الانس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغزئه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى (٢) فلا تقاس الملائكة بالحدادين . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ؟ وقال : ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأول : وقيل له مرة : ما أحوالك إلى امرأة تأنس بها ؟ فقال : لا آتسنى الله بها ، أي أن الانس بها يمنع الانس بالله تعالى ، وقال أيضاً : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم . فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به ؟ وقد كان استغرافه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احترامه فيه إلى حد كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قلبه فيهدمه . ولذلك كان يضرب يده على نخذ عائشة أحياناً ويقول : « كلبني يا عائشة ، لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لتصور طاقة قلبه عنه » (٣) فقد كان طبعه الانس بالله عز وجل ، وكان أنسه بالخلق عارضاً وفقاً ببدنه ، ثم لأنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال : « أرحنا بها يا بلال » (٤) ، حتى يعود إلى ما هو قرة عينه (٥) فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم . فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة ، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلا فهما لم يحفظا عينه لم يحفظ عليه فكره

(١) حديث « معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ... الحديث » تقدم في النكاح (٢) حديث : كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما في الدنيا . تقدم (٣) حديث : كان يضرب يده على نخذ عائشة أحياناً ويقول « كلبني يا عائشة » لم أجد له أصلاً (٤) حديث « أرحنا بها يا بلال » تقدم في الصلاة (٥) حديث : ان الصلاة كانت قرة عينه . تقدم أيضاً

ويفترق عليه همه ، وربما وقع في بلية لا يطيقها . وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج . ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة . وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة . ولذلك قال لابنه عليه السلام : يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام : ما به الزنا ؟ قال : النظر والتمني . وقال الفضيل : يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لأخطى به يعنى النظر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فن تركها خوف من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً يحد حلاله في قلبه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة نبي إسرائيل كانت من قبل النساء ^(٣) ، وقال تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية وقال عليه السلام : لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والفم يزني وزناه القبله ، والقلب يهيم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ^(٤) ، وقالت أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام : احتجبا ، فقلنا : أوليس بأعمى لا يبصر ؟ فقال : وأنتما لا تبصرانه ؟ ^(٥) ، وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة ، وإنما يجوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به ، فإن الشر في الصبيان أكثر ، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح . والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر إليه .

فإن قلت : كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقيح لاجالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة ؟ فأقول لست أعنى تفرقة العين فقط ، بل ينبغى أن يكون إدراك التفرقة كإدراك التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة ، وبين ماء صافٍ وماء كدر ، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها ، فإنه يميل إلى إحداها بعينه وطبعه ولكن ميلاً خالياً عن الشهوة ، ولأجل ذلك لا يشتهى ملاسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ، ولا تقبيل الماء الصافي ، وكذلك الشبهة الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها . ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملاسة . فهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والألوان المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام ، وهذا مما يتهاون به الناس ويجزئهم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون .

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال

(١) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . الحديث » تقدم أيضاً (٢) حديث « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة نبي إسرائيل كانت في النساء » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري

(٤) حديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان ... الحديث » أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أبي هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه (٥) حديث أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال « احتجبا » الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح .

سفيان : لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لسكان لواط . وعن بعض السلف قال : سيكون فى هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف ينظرون ، وصنف يصالحون ، وصنف يعملون .

فاذن آفة النظر إلى الاحداث عظيمة . فهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح : فرب نفس لايسكن توقانها بالجوع .

وقال بعضهم : غلبت على شهوتى فى بدء إرادتى بما لم أطق فأكثر الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصا فى المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدم إلى ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها فى فؤادى وجميع جسدى ، فأصبحت وقد زال ما فى فبقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك فأكثر الاستغاثة فأأتانى شخص فى المنام فقال لى : أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك ؟ قلت : نعم ، فقال : مدت رقبتك ، فمدتها فجرد سيفاً من نور فضرب به عنقى فأصبحت وقد زال ما فى فبقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصاً فيما بين جنبي وصدرى يخاطبني ويقول : ويحك كم تسأل الله تعالى رفع مالا يحب رفعه ؟ قال : فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لى .

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة فى ابتداء النكاح ودوامه ، أما فى ابتدائه فبالنية الحسنة ، وفى دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة - كما فصلنا جميع ذلك فى كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته - وعلاوة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية . قال بعضهم : من تزوج غنية كان له منها خمس خصال ، مخالاة الصداق ، وتسويق الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة . وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها . والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم : ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحققرته : بالسنة ، والطول ، والمال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع : بالجمال ، والآداب ، والورع والخلق وعلاوة صدق الإرادة فى دوام النكاح الخلق .

تزوج بعض المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحييت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيرت فى هذا الرجل أنا فى منزله منذ سنين ما ذهب إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلى إليه ؟ وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدرى فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها ، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك ، فقيل له فى ذلك فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا ، فقيل له : قد سبقت لإخوانك بهذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها ، فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون ، وإن قدر على الترك فهو أولى له ، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله ، كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحما الله تعالى فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبني . فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابي هذا فهي زادك وقدم لمعادك وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا

ترائك ؛ ففهم الدهر وليكن فطرك الموت . وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ماسرنى أن أشتغل عن الله طرفه عين .

وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان ، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجدته في العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به . ودواء هذه العلة ثلاثة أمور : الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بشغل يستولى على القلب . فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذى يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات ، قال سعيد بن المسيب ما أيس لبليس من أحد إلا وأتاه من أجل النساء ، وقال سعيد أيضا - وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعيش بالآخرى - ما شئ أخوف عندي من النساء ، وعن عبد الله بن أبي وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياماً فلما أتيت قال أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، فحمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين - أو قال ثلاثة - قال : فقمى وما أدرى ما أصنع من الفرح ؟ فصرت إلى منزلى وجعلت أفكر من آخذ ومن أستدين فضليت المغرب وانصرفت إلى منزلى فأسرجت ، وكنت صائماً فقدمت عشائى لأفطر - وكان خبزاً وزيتاً - وإذا بابى يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال : فأفكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا لسعيد بن المسيب - وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد - قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلى لايتيتك ؟ فقال : لا ، أنت أحق أن تتوثق ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عرباً فتزوجت ففكرت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، وإذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعتها فى الباب وردته فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجك ؟ قلت : نعم ؛ قالوا وهى فى الدار ؟ قلت : نعم ، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ؛ قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ؛ فإذا هى من أجل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ؟ قال : فكثت شهراً لا يأتىنى سعيد ولا آتية ؛ فلما كان بعد الشهر أتيت وهى فى حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما حال ذلك الإنسان ؟ فقلت : بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت إلى منزلى فوجه إلى بعشرين ألف درهم . قال عبد الله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف . فاستعجال سعيد فى الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة فى الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هى أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح

يستحي منه ويخشى من اقتحامه ، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه ، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنه لا يثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصمة أن لا يقدر في هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأى سبب كان تركه ؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عشق ففعل ففعل ففعل ففعل فهو شهيد ^(١) » ، وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله - وعد منهم : رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إلى أخاف الله رب العالمين ^(٢) » ، وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة ، وقد أنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة .

وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه . قال سليمان : فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له أنت يوسف ؟ قال : نعم أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهتم أشار إلى قوله تعالى ﴿ ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا . وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليمتنع شيئاً ، وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجمل الناس وجهاً وأورعهم ، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه . وعليها البرقع والقفازان - فأسفرت عن وجه لها كأنه فلاة قر وقالت أهنتي ؛ فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت : لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله ؟ فقال : جهزك إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في التحجب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال : خير ذكرت صبيتي . قال : لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها ، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية ، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديداً فقال سليمان : وأنت ما يبكيك ؟ قال : أنا أحق بالبكاء منك لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر ، فاحتجى بثوبه فأخذته عينه فنام ولذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان : رحلك الله من أنت ؟ قال له : أنا يوسف ، قال : يوسف الصديق ؟ قال : نعم ، قال : إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ! فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب .

وروى عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى آوهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسد عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أعقب قبلهما أهلاً ولا مالا ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما

(١) حديث « من عشق ففعل ففعل ففعل ففعل فهو شهيد » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد ، ثم قال : يقال إن يمي لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ورجل غزوت سويداً ورواه الخرائطي من غير طريق سويد إسند فيه نظر (٢) حديث « سبعة يظلهم الله في ظله .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (١٤ — إحياء علوم الدين — ٣)

فوجدتهما نائمين فكهرت أن أغبق قبلهما أهلاً ومالاً ، فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفجرت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى أملت بها سنة من السنين ، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس إلى وتركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إنني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذي له وذهب فمنيبت له أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أعطني أجرى ، فقلت كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ؛ فقال يا عبد الله أتتهزأ بي ؟ فقلت : لا أستهزئ بك نخذه ، فاستاقه وأخذته كله ولم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون ^(١) ،

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين ، فإن العين مبدأ الزنا لحفظها مهم ، وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم « لك الأولى وعليك الثانية » ^(١) ، أى النظرة . وقال العلامة بن زياد . لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلوب شهوة ، وقلما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فهما تخاليل إلية الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل ، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة ويجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر ، وإن استعجب لم يلتذ وتالم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه ، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق . فقد روى عن أبي بكر بن عبد الله المزني : أن قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له : لا تفعل لأننا أشد حبا لك منك لي ولكني أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، قال : تعال حتى ندعو الله بأن تظلتنا بحمالة حتى ندخل القرية ، قال : مالي من عمل صالح فأدعوا ، فادع أنت ، قال : أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتها بحمالة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فالت السحابة معه فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا بحمالة ثم تبعتك ، لم تخبرني بأمرك ، فأخبره فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعب لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السميت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يا فتى اسمع مني كلمات أكلبك بها ثم اعمل ما شئت ،

(١) حديث ابن عمر « انطلق ثلاثة نفر من كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ... فذكر الحديث بطوله رواه البخاري

(٢) حديث « الأولى وليست لك الثانية » أى النظرة أخرجه أبو داود والترمذي من حديث بريدة قاله لعلى قال الترمذي حديث غريب

فضى ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يا فتى اسمع منى كلمات أكلبك بها ، فأطرق مليا وقال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موصفا ، فقالت له : والله ماوقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرى ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى ، والذي حملنى على أن لقيتلك فى مثل هذا الأمر بنفسى لمعرفتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شئ يعيبها ، وجملة ما أقول لك إن جوارحى كلها مشغولة بك فإله الله فى أمرى وأمرى ، قال : فضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى ! فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فالتقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه : بسم الله الرحمن الرحيم اعلمى أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه ، فإن كان ما ذكرت باطلاً فإنى أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعن وتجنوا الأمم لصولة الجبار العظيم ، وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى ؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فإنى أدلك على طيب هدى يداوى الكلوم الممرضة والأوجاع الممرضة ذلك الله رب العالمين فأقصديه بصدق المسألة فإنى مشغول عنك بقوله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مألظامين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ فأين المهرب من هذه الآية ؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلاً يراها فقالت : يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يذى الله تعالى ، ثم بكى بكاء شديداً وقالت : أسأل لك الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرى ، ثم لأنها تبعته وقالت : امنن على بموعظة أحلها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ قال : فأطرقت وبكى بكاء شديداً أشد من بكائها الأول ، ثم لأنها آفأت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كذا ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى ، فيقال له : مم بكائك وأنت قد أياستها من نفسك ؟ فيقول : إنى قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فأنا أستحي منه أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليماً كثيراً .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدله ، وألهمه نور الإيمان فزيه به وجهه ، وعلمه البيان فقدمه به فضله ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثم أرسل عليه ستر من رحمته وأسبله ، ثم أمد به لسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله ،

من علم حصله ونطق سبله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله ، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله ، وأسمى فضله وبين سبله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهله.

أما بعد : فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ، إذا لا يستئين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه مامن موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي ، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له . وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والأذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لجمالة منتهى وحد ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وجبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها . فنذكر أولاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعني ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ؛ ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التقعر في الكلام بالتشديق وتكاف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك ، ما جرت به عادة المتفصحين المذيعين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو لإنسان ، ثم آفة الغناء بالشعر . وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده . ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة إفشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب في القول واليمين ، ثم بيان التعارض في الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النيمة ، ثم آفة ذى اللسانين الذي يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في لغوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن الحروف أهى قديمه أو محدثة ؟ وهى آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجمعتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا »^(١) ، وقال عليه السلام « الصمت حكم وقليل فاعله »^(٢) ، أى حكمة وحزم . وروى

كتاب آفات اللسان

(١) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد (٢) حديث « الصمت حكم وقليل فاعله » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ « حكم » بدل « حكمة » وقال غلط فيه همام بن سعد والصحيح رواية ثابت قال

عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يارسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك قال وقل آمنت بالله ثم استقم ، قال : قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه ^(١) وقال عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ^(٢) . وقال سهل بن سعد الساعدي . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من وقى شر قلبه وذنبه وإفلقه فقد وقى الشر كله ^(٤) ، القبقب : هو البطن والذنب : الفرج ، واللقلق : اللسان . فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوات البطن والفرج ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال : الأجوفان : الفم والفرج ^(٥) ، فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ؛ فقد قال معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أتؤاخذ بما نقول ؟ فقال : تكلمتكم أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ ^(٦) ، وقال عبد الله الثقي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعصم به فقال : قل ربى الله ثم استقم ، قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال : هذا ^(٧) ، وروى أن معاذاً قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه ^(٨) وقال أنس بن مالك : قال صلى الله عليه وسلم : لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من سره أن يسلم فليزم الصمت ^(١٠) ، وعن سعيد بن جبيرة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان أى تقول اتق الله فينا فإنك إن استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » ^(١١) ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يد لسانه بيده فقال له : ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردني الموارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حديثه » ^(١٢) ، وعن ابن مسعود

= والصحيح عن أنس أن أماناً قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس ^(١) حديث سفيان الثقي : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ... الحديث ، أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان ^(٢) حديث عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال : « ألك عليك لسانك ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن ^(٣) حديث سهل بن سعد : « من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة » رواه البخارى ^(٤) حديث : « من وقى شرفيه وذنبه ولقفه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : « فقد وجبت له الجنة » ^(٥) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة . . الحديث : أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس هريرة ^(٦) حديث معاذ : قلت يارسول الله أتؤاخذ بما نقول ؟ فقال : « تكلمتكم أمك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ^(٧) حديث عبد الله الثقي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعصم به ... الحديث . رواه النسائي قال ابن صاكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقي كما رواه الترمذي وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .

(٨) حديث : إن معاذاً قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه . أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال : « أصبعه » مكان « يده » ^(٩) حديث أنس : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس سره أن يسلم فليزم الصمت ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس بأسناد ضعيف ^(١٠) حديث : « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبيرة مرفوعاً وإنما هو عن سعيد بن جبيرة عن أبي سعيد رفعه ورواه الترمذي موقوفاً على عمار بن زبید وقال هذا أصح ^(١٢) حديث : لأن عمر أطاع علي بن بكر وهو يد لسانه فقال له : ما تصنع يا خليفة رسول الله =

أنه كان على الصفا يلبى ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم ، فقيل له يا أبا عبد الرحمن لهذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »^(١) ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره »^(٢) ، وروى أن معاذ بن جبل قال . يارسول الله أوصني قال « اعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه »^(٣) وعن صفوان بن سليم قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق »^(٤) .

وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »^(٥) وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تسكلم فغنم أو سكت فسلم »^(٦) ، وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لانستطيع ذلك ، فقال : فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال « أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليتنق الله امرؤ علم مايقول ، وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة »^(٩) وقال ابن مسعود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب . فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يخوض في الباطل »^(١٠) ، وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه »^(١١) ، وقال عيسى عليه السلام : العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت

== قال : إن هذا أوردني الموارد لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطني لأن المرفوع وهم على الدراوردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له .

(١) حديث ابن مسعود : أنه كان على الصفا يلبى ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم . وفيه مرفوعاً « إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه » أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن (٢) حديث ابن عمر « من كف لسانه ستر الله عورته الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن (٣) حديث : أن معاذاً قال أوصني قال « اعبد الله كأنك تراه .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات وفيه انقطاع (٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعاً « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا حسناً ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضاً مرفوعاً .

(٥) حديث أبي هريرة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » متفق عليه . (٦) حديث الحسن : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تسكلم فغنم أو سكت فسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية لسماعيل بن هياش عن الحجازيين (٧) حديث البراء : جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال « أطعم الجائع .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا بأسناد جيد (٨) حديث « اخزن لسانك إلا من خير ... الحديث » أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر (٩) حديث « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة » وقد تقدم . (١٠) حديث ابن مسعود « الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب .. الحديث » أخرجه الطبراني وأبو يلى من حديث أبي سعيد الحدرى بلفظ « المجلس » وضعه ابن هدى ولم أجده « ثلاثة » من حديث ابن مسعود (١١) حديث « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم =

وجزه في الفرار من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : من كثر كلامه كثرت سقطته ، ومن كثرت سقطته كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أول به (١) .

الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أخرج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : لسانى سبع إن أرسلته أكلنى . وقال وهب بن منبه : في حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانته مقبلاً على شأنه . وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يخصه . وقال بعضهم : الصمت يجمع الرجل فضيلتين : السلامة في دينه والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد : ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله . وقال الحسن تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والاحنف بن قيس ساكت فقال له : مالك يا أبا بجر لا تسكلم ؟ فقال له : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت . وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك : ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر ، فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقول ، وقال الآخر : لى إذا تسكلمت بكلمة ملكتى ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى ، وقال الثالث : عجبت للتسكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقول أقدر منى على رد ما قلت . وقيل : أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل : ماتكلم الربيع بن خثيم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء .

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهى سيئة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ويكفه عما لا يجب فإن ذلك من غوامض العلم - كما سيأتى تفصيله - ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة . فقد قال الله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفى بالضرر

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه لإثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يحفى دركه فيكون الإنسان به مخاطراً . ومن عرف دقائق

= يعنى تدبره فقلبه ... الحديث « لم أجده صرفوا وإنما رواه الخرائطى في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصرى قال « كانوا يقولون » (١) حديث « من كثر كلامه كثرت سقطته . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة العقلاء والبيهقى في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب .

آفات اللسان - على ما سذكروه - علم قطعاً أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال « من صمت نجا »^(١) ، فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعاً وجوامع الكلم^(٢) ولا يعرف ماتحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء وفيما سذكروه من الآفات وعسر الاحترار عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى إلى الأغلف قليلاً ، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى . الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمرء والجدال وغيرها ، وتتسكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هلك الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فكلم من كلمة يبنى بها قصراً في الجنة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينفذ بها كان خاسراً خسرانا مبيناً . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاتته الريح العظيم بذكر الله تعالى ، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرياً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً^(٣) هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم . بل رأس مال العبد أوقاته ومهماصرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعني »^(٤) ، بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس : استشهد غلام منايوم أحد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع فسحقت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئاً لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره ؟ »^(٥) ، وفي حديث آخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كعب » فقالت أمه هنيئاً لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألية على الله ؟ » قال : هي أمي يا رسول الله قال « وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يضره »^(٦) ، ومعناه أنه إنما تهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه غير مباح فلا تهيأ الجنة مع مناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب .

(١) حديث « من صمت نجا » تقدم (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الآفة الأولى الكلام فيما لا يعنيك

(٣) حديث « المؤمن لا يكون صمته إلا فكرياً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً » لم أجده أصلاً وروى محمد بن زكريا العلاني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله أمرني أن يكون لظني ذكراً وصوتي فكرياً ونظري عبرة » (٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٥) حديث : استشهدنا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع . الحديث وفيه « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره » أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصراً وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض ... الحديث وفيه « لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يضره » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد لا أن الطاهر انقطاعه بين الصواب وبين الراوي منه .

وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجوه فقال : إني لضعيف وإن أوثق ما أرجوه به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعينني ^(١) ، وقال أبو ذر : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان » قلت : بلى يا رسول الله قال « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك ^(٢) » ، وقال مجاهد . سمعت ابن عباس يقول خمس لمن أحب إلى من الدماء الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعينك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعينك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فغنت ، ولا تمار حلياً ولا سفهاً فإن الحليم يقلبك والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه بما تحب أن يعفبك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام . وقيل للقيان الحكيم : ما حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعينني . وقال مورو العجلي : أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا : وما هو ؟ قال : السكوت عما لا يعينني . وقال عمر رضي الله عنه لا تعرض لما لا يعينك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على شرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وحذ الكلام فيما لا يعينك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد وقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر . وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ، ولا تركية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك — وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها — ومن جعلها أن تسأل غيرك عما لا يعينك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألفت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشيء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهر آعبادته فدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال للدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه . وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، وإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه . . وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمع نفسه بأن يقول لا أدري ، فيجيب عن غير بصيرة .

(١) حديث محمد بن كعب « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام الحديث . وفيه : إن أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يعينني . أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو نعيم يحتج به .

(٢) حديث أبي ذر « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ... الحديث » وفيه « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك » أخرجه ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس ، فإنّ هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال ما لا يعنى ما روى أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم ، فجعل يتعجب بما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فتمتته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال : نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . وقيل لأنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال . فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعنى وتركه من حسن الإسلام فهذا حذره .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباشطة بالكلام على سبيل التودد وترجيئة الاوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله . وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فأهماله ذلك وتضييعه خسران مبین . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدّا .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة ، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأذى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول - أى فضل عن الحاجة - وهو أيضا مذموم - لما سبق - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح : إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعتدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتذكرون أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال : إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً . وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحرار : اللهم اخزه وما أشبه ذلك

واعلم أنّ فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عز وجل ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله »^(١) ، فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر

الآفة الثانية فضول الكلام

(١) حديث « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » أخرجه البزوى وابن قانع في مجموعي الصحابة والبيهقي من حديث ركب المصري وقال ابن عبد البر لأنه حديث حسن وقال البزوى : لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لا يعرف له حجة ورواه البرار من حديث أنس بسند ضعيف .

فقالوا : أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت الجفنة الغزاة وأنت وأنت فقال : قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان ^(١) ، إشارة إلى أن اللسان إذا أظنبت بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ؛ حسب امرئ من الكلام ما يبلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليسكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول ، أبتاع لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذاباً . وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكّل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريتيه وبعث نفرأ ينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رموس الناس ما أسرع ما يكتبون ! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون ! وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والفاجر إذا سأله رسلاً رسلاً . وقال الحسن : من كثّر كلامه كثّر كذبه ، ومن كثّر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ، وقال عمر بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاى وأسنانى ، قال : « أفأكان لك ما يرد كلامك ؟ » ^(٢) ، وفي رواية : أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ثم قال : ما أوتي رجل شراً من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : إنه لينعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكناً فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من فتنه العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر الرجل لسانه . ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول المال وفضول الكلام . فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه . وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعنى .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجهير الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يؤمن عليه الخوض في الباطل . وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنتها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاعتصام على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا . وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب

(١) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من عاصم فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ... الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم واليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .

(٢) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال : كم دون لسانك من حجاب .. الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله نقات .

الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة ^(١) ، وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ^(٢) » وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصاً في الباطل ^(٣) » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ وقال سلمان : أكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله . وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجاس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ماتقولون شر من الحدث . فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ماسياتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يومهم الطعن في بعضهم . وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه .

الآفة الرابعة . المراء والجدال

وذلك منى عنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه ^(٤) » وقال عليه السلام « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ^(٦) » ، وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول ماعهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ^(٧) » ، وقال أيضاً « ماضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل ^(٨) » ، وقال أيضاً « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محققاً ^(٩) » ، وقال أيضاً « ست من كن فيه بلغ حقيقة

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

(١) حديث بلال بن الحارث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح . (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذى « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار » لفظ الترمذى « وقال حسن غريب » (٣) حديث « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصاً في الباطل » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسل ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .

الآفة الرابعة : المراء والمجادلة

(٤) حديث « لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٥) حديث « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته » أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ورواه ابن الأثير بأسناد ضعيف دون قوله « لا تفهم حكمته » ورواه بهد الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود . (٦) حديث « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة » تقدم في العلم (٧) حديث أم سلمة « لمن أول ماعهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد روى ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم (٨) حديث « ماضل قوم إلا أوتوا الجدل » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وصححه وزاد « بعد هدى كانوا عليه » وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف (٩) حديث « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وإن كان محققاً » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ « لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحاة والمراء وإن كان صادقاً » .

الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتعجيل الصلاة في اليوم الدجن ، والصبر على المصيبات ، وإسباغ الوضوء على المسكاره ، وترك المراء وهو صادق ^(١) ، وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التثقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلاته . وقيل : ماضل قوم بعد إذ هدام الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا : المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء : كفى بك إثمًا أن لا تزال مماريا . وقال صلى الله عليه وسلم : تكفير كل لحاء ركعتان ^(٢) ، وقال عمر رضي الله عنه : لا تتعلم العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث . لا تتعلمه لتمازى به ، ولا لتباهى به ، ولا لتراعى به . ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقيل لميمون بن مهران : مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال : لأنى لأشاريه ولا أماريه . وماورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى .

وحذ المراء هوكل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته وإن كان حقا فصدق به ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأموال الدين فاسكت عنه .

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله .

وأما في المعنى : فبأن يقول ليس كما تقول ؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا .

وأما في قصده فبأن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإلما أنت فيه صاحب غرض ، وما يجري مجراه ، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنسكاره ، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن .

وأما المجادلة فعبارة عن قصد لإحغام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل ، يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليسين به فضل نفسه ونقص صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأنم به لو سكت عنه .

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه . وهما شهورتان باطنتان

(١) حديث « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان ... الحديث » وفيه « وترك المراء وهو صادق » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ « خصال من الخير ... الحديث »

(٢) حديث « تكفير كل لحاء ركعتان » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

لنفس قويتان لها . أما لإظهار الفضل : فهو من قبل تركيبة النفس وهي من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية . وأما تنقيض الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمواظب على المراء والجدال مقوق لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير . ولا تنفك الماهرة عن الإيذاء وتهيج الغضب وحمل المعارض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدر في قائله بكل ما يتصور له ؛ فيثور الشجار بين المتبارين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعرض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إلحامه وإلجائه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره - كما سيأتى ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب - فإن علاج كل علة بإمالة سببها . وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه .

روى أن أبا حنيفة رحمه الله عليه قال لداود الطائي : لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم ، قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها . وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جداً . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد . فإن المراء طبع ؛ فإذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغي للإنسان أن يكشف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها وأرادوا ، فاستمر البدعة في قلبه بالجدل وتأكّد فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ^(١) » ، وقال هشام بن عروة : كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات : وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟

الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؛ فالمرء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقيق الغير . وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجأح في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبغض

(١) حديث « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ « رحم الله امرأً كف لسانه عن أعراض المسلمين » وهو منقطع وضعيف جداً .

الرجال إلى الله الألد الخصم^(١) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع^(٢) » ، وقال بعضهم : إياك والخصومة فإنها تمحق الدين . ويقال : ما خصم ورع قط في الدين . وقال ابن قتبية : مربى بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال : ما يجلسك ههنا ؟ قلت : خصومة بيني وبين ابن عم لي ، فقال : إن لأبيك عندي يدا وإني أريد أن أجزيك بها ، وإني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للبرومة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة ؟ قال : فقلت لأنصرف فقال لي خصمي : مالك ؟ قلت : لأأصمك ، قال : إنك عرفت أن الحق لي ، قلت : لأولكن أكرم نفسي عن هذا قال : فإني لا أطلب منك شيئا هو لك .

فإن قلت . فإذا كان الإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تدم خصومته ؟ فأعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ؛ مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان ؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذى يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلب أو على قصد الإيذاء ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق ، ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدي عناده وكسر عرضه ، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي ، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا . فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويحزن بسرته ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المخدورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة يذنب أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تدم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وماورد فيه من الثواب ؛ إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله إما تجهيل وإما تكذيب ، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام^(٣) » ،

الآفة الخامسة الخصومة

(١) حديث عائشة « إن أبش الرجال إلى الله الألد الخصم » أخرجه البخارى وقد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع » أخرجه ابن أبي الدنيا والأسفهاى في الترغيب والترهيب وفي رجاء أبو يحيى ضعه الجمهور .

(٣) حديث « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه الطبرانى من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانى" أبى شريح باسناد جيد « يوجب الجنة لطعام الطعام وحسن الكلام » .

وقد قال الله تعالى ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسياً إن الله تعالى يقول ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام ^(١) ، وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال : مر بسلام ، فقيل : ياروح الله اتقول هذا للخنزير ؟ فقال : أكره أن أعود لساني الشر . وقال نبينا عليه السلام : الكلمة الطيبة صدقة ^(٢) ، وقال : اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة ^(٣) ، وقال عمر رضي الله عنه البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليستك فلا تكن به عليه بخيلاً ، فإنه إله يعوضك منه ثواب المحسنين . وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخسومة والمرء والجدال والبجاج ، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

الآفة السادسة

التقعر في الكلام بالتشديق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاحين المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا وأتقياء أمتي برءاء من التكلف ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفهبون المتشدقون في الكلام ^(١) ، وقالت فاطمة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ألا هلك المتنطعون - ثلاث مرات - ^(٣) ، والتنطع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضي الله عنه : شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ! إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلام بلسانها ^(٤) ، وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتسكفة . وهذا أيضاً من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاسيح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل

(١) حديث أنس : إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها ... الحديث ، أخرجه الترمذي وقد تقدم (٢) حديث : الكلمة الطيبة صدقة ، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث ، متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

الآفة السادسة : التقعر في الكلام والتشديق

(٤) حديث : إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفهبون المتشدقون ، أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أبغضكم إلى (٥) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم . الحديث وفيه : ويتشدقون ، أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب (٦) حديث : ألا هلك المتنطعون ، من حديث ابن مسعود (٧) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلام بلسانها ، رواه أحمد .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال : أجمعاً كسجع الأعراب ^(١) ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده : ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم . ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلا شاقة اللفظ تأثير فيه فهو لا تقى به . فاما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدد والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم : إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش ^(٢) ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال : لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلبة قدعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يا عائشة لو كان الفحش رجلا لسكان رجل سوء ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق ^(٨) ، فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى يفتى إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى ، فإن إلقاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه ؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ، ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الإنسان من بيانه ، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يحب الفاحش

(١) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل .. الحديث « أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبه وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضا .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

(٢) حديث « إياكم والفحش ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة (٣) حديث : النهي عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر صريحا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بأسناد صحيح : إن رجلا وقع في آب للمباس كان في الجاهلية فطمه .. الحديث « وفيه » لا تسبوا أمواتا فتؤذوا أحياءنا « (٤) حديث « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » أخرجه الترمذي بأسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى موقوفا قال الدارقطني في المال والموقوف أسع (٥) حديث « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى .. الحديث » وفيه « أن الأبعد كان ينظر إلى كل كلبة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مانع واختلف في صحبته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره البخاري وابن حبان في التابعين (٧) حديث « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لسكان رجل سوء » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها . (٨) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

المتفحش الصياح في الأسواق^(١) ، وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي فقال صلى الله عليه وسلم : إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً^(٢) ، وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوم الداء : اللسان البذي والخلق الدني ،

فهذه مذمة الفحش وأما حدته وحقيقتة فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجرى في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عماً . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حيي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستبجح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها ألحش من بعض . وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التخووظ والخزاء وغيرهما ، فإن هذا أيضاً مما ينبغي وكل ما ينبغي يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن الذماء فلا يقال : قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد . فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير . بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجرى مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان .

قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقته : فخرج تحت إبطه خراج فأثنيته نسأله لئرى ما يقول ؟ فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد . والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتقاد الحاصل من مخاظة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عاداتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال : عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبني شيئاً ، قال : فما سببت شيئاً بعده^(٣) وقال عياض بن حمار : قلت يارسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال : المتسبان شيطانان يتعاونان ويتهاجان^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « المتسبان ما قالوا فعلى البادى منهما حتى يعتدى المظلوم »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه »^(٧) وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل

(١) حديث « إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الأسواق » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد « إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش » وإسناده جيد (٢) حديث جابر بن سمرة « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ... الحديث » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه . الحديث » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قبل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر (٤) حديث عياض ابن حمار : قلت يارسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال « المتسبان شيطانان يتسكاذبان ويتهاجان » أخرجه أبو داود والطيالسي وأصله عند أحمد (٥) حديث « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٦) حديث « المتسبان ما قالوا فعلى البادى حتى يعتدى المظلوم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال « ما لم يعتد » (٧) حديث « ملعون من سب والديه » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

والديه ، قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب الآخرا أباه .

الآفة الثامنة : اللعن

إما الحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤمن ليس بلعان (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم (٢) ، وقال حذيفة : ما تلعن قوم قط لإلحاق عليهم القول . وقال عمران بن حصين : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعتتها فقال صلى الله عليه وسلم : خذوا ماعليها وأعروها فإنها ملعونة (٣) ، قال : فكأنني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : ما لعن أحد الأرض إلا قالت : لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضي الله عنها : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال : يا أبا بكر أصدقيين ولعائنين كلا ورب الكعبة - مرتين أو ثلاثا - (٤) ، فأعق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : لا أعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن للعائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (٥) ، وقال أنس : كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون (٦) ، وقال ذلك إنكارا عليه . واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده عن الله عز وجل وهو الكفر والظلم ، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه .

والصفات المقتضية للعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفسق . وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب :

الأولى : اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والفسقة .

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أو على الزناة والظلمة وأكلى الربا ، وكل ذلك جائز . ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا .

الثالثة : اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنة الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع ، والتفصيل

الآفة الثامنة : اللعن

(١) حديث « المؤمن ليس بلعان » تقدم حديث ابن مسعود « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان .. الحديث » قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر « لا يكون المؤمن لعانا » (٢) حديث « لا تلعنوا بلعنة الله .. الحديث » أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي : حسن صحيح (٣) حديث عمران بن حصين : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعتتها ... الحديث « رواه مسلم .

(٤) حديث عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن رقيقه فالتفت إليه فقال « يا أبا بكر لعائنين وصدقيين .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه . (٥) حديث « إن للعائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء

(٦) حديث أنس : كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون « أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد

فيه أن كل شخص ثبتت اعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك . فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودي مثلهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ .

فإن قلت : يلحق لكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم : رحمه الله ، لكونه مسلما في الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد ؟ فأعلم أن معنى قولنا رحمه الله : أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائر أن يقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، وللعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلحق الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قریش : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة ^(١) ، وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روى : أنه كان يلحق الذي قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى : ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ^(٢) ، يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، فإن كان لم يجز كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مربره وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر : يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اكشف عن أبي بكر ، فأنصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال : يا أبا بكر إذا ذكرت الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء ، فكف الناس عن ذلك ^(٣) وشرب نعيم الخمر فخذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم : لا تسكن عونا للشيطان على أخيك ^(٤) ، وفي رواية : لا تغفل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن

(١) حديث : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة ، وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود .
(٢) حديث : أنه كان يلحق الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) أخرجه الشيخان من حديث أنس : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ... الحديث . وفي رواية لها : قنت شهرا يدعو على رجل ودكوان . . . الحديث . ولها من حديث أبي هريرة : وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ... الحديث . اللهم العن لحيان ورعلا ... الحديث . وفيه : ثم بلدنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء . لفظ مسلم .

(٣) حديث : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مربره وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه . . . الحديث . أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال : لما امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فورهم ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد بن العاص فقال أبو بكر : إن هذا القبر ؟ قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر : لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله ... الحديث . وفيه : فإذا سبتم المعركين فحبوهم جميعا . . . (٤) حديث : شرب نعيم الخمر فخذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تغفل هذا فإنه يحب الله ورسوله . أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك والبخاري من حديث عمر : أن رجلا على عهد =

لعن فاسق بعينه غير جائز . وعلى الجملة ففى لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر فى السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره .

فإن قيل . هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به ؟ قلنا . هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به مالم يثبت ، فضلا عن اللعنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ، إن كان كافرا فهو كما قال . وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه ^(٢) » ، وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا . وقال معاذ : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنهارك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا ، والتعرض للأموات أشد ^(٣) » ، قال مسروق دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت . ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفى قالت : رحمه الله ، قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا ^(٤) » وقال عليه السلام « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء ^(٥) » ، وقال عليه السلام « أيها الناس احفظوني فى أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبهم ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ^(٦) » .

فإن قيل ؛ فهل يجوز أن يقال . قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الأمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا . الصواب أن يقال . قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولا تنتهى إلى رتبة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس فى السكوت خطر فهو أولى .

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فلا اشتغال

= رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلدته فى الشراب ، فأبى به يوما فأمر به جلد فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلغوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » من حديث أبي هريرة فى رجل شرب ولم يسم فيه « لا تعينوا عليه الشيطان » وفى رواية « لا تكونوا عون الشيطان على أخيك » ^(١) حديث « لا يرى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » متفق عليه والسياق للبخارى من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق ^(٢) حديث « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال ، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

^(٣) حديث معاذ « أنهارك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا » أخرجه أبو نهيم فى الحلية فى أثناء حديث له طويل ^(٤) حديث عائشة « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » أخرجه البخارى وذكر المصنف فى أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك فى الزهد والرفائق مع القصة ^(٥) حديث « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » أخرجه الترمذى من حديث المنيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المنيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم ^(٦) حديث « أيها الناس احفظوني فى أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبهم ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عباس الأنصارى « احفظوني فى أصحابي وأصهارى » وإسناده ضعيف وللمنيرة من حديث أبي سعيد وأبي هريرة « لا تسبوا أصحابي » ولأبي داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم » وللنسائي من حديث عائشة « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » وإسناده جيد .

بذكر الله أولى فإن لم يكن ففي السكوت سلامة .

قال مكي بن إبراهيم . كذا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا . يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ولعن الله فلانا ، فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله ، أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال : أوصيك أن لا تكون لعانا ^(١) ، وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم لعن المؤمن يعد قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لوقلت إنه مرفوع لم أبال ؟ وعن أبي قتادة قال : كان يقال : من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله ^(٢) ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً : لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله وما يجرى مجراه ، فإن ذلك مذموم . وفي الخبر : إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ^(٣) .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خير له من أن يمتلي شعرا ^(٤) » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : أجعل مكان هذا ذكر إله خير من الشعر وعلى الجملة فإن إلهاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة ^(٥) » نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب ، وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح ^(٦) فإنه وإن كان كذبا فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبع لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكانت جالسة

(١) حديث قال رجل : أوصني قال « أوصيك أن لا تكون لعانا » أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الأحاد والثاني من حديث جرهم الهجيمي وفيه رجل لم يدم أسقط ذكره ابن أبي عاصم (٢) حديث « لعن المؤمن كقتله » متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاک (٣) حديث « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » لم أقف له على أصل ولا ترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

(٤) حديث « لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خير من أن يمتلي شعرا » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشبخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد (٥) حديث « إن من الشعر لحكمة » تقدم في العلم وفي آداب السماع (٦) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين . متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجم وجبريل معك » .

أغزل ، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت : فبهت فنظرت إلى فقال : مالك بهت ؟ ، فقلت :
يارسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رأيك أبو كبير الهدلى لعلم أنك أحق
بشعره قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الهدلى ، قلت : يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبل ما بين عيني وقال : جزاك الله خيرا يا عائشة
ماسررت منى كسرورى منك ^(١) ، ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس
بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اقطعوا عنى لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الإبل
ثم رجع وهو من أَرْضَى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أتقول فى الشعر ؟ ، فجعل يعتذر إليه ويقول : بأبى
أنت وأمى إني لأجد للشعر ديبيا على لسانى كدبيب النمل ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجذبدا من قول الشعر ،
فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لاتدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين ^(٢) .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم : لاتمار أخاك ولا تمزحه ^(٣) ،
فإن قلت : الماراة فيها إيذاء لأن فيها تكديراً للأخ والصديق أو تجهيلاً له وأما المزاح فطائفة وفيه انبساط وطيب

(١) حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصف نعله وكنت أغزل قالت : فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل
عرقه يتولد نورا .. الحديث . وفيه لمناد عائشة لشعر أبى كبير الهدلى :

ومبرأ من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

على آخر الحديث رواه البيهقي فى دلائل النبوة .

(٢) حديث : لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اقطعوا عنى لسانه الحديث « أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه
وسلم أباً سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأفرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى
عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أنجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأفرع
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد فى رواية أعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة « اقطعوا عنى لسانه » فليست
فى شيء من الكتب المشهورة .

الآفة العاشرة : المزاح

(٣) حديث « لاتمار أخاك ولا تمزحه » أخرجه الترمذى وقد تقدم

قلب فلم ينهى عنه ؟ فاعلم أنّ المنهى عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه . أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميمت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فابخلو عن هذه الأسور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني لأمرح ولا أقول إلا حقا »^(١) ، إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى في النار أبعد من الثريا »^(٢) ، وقال عمر رضي الله عنه : من أكثر ضحكك قلت هيبتك ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن أكثر كلامه أكثر سقطه ، ومن أكثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه . ولأنّ الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتكم كثيرا ولضحكتكم قليلا »^(٣) ، وقال رجل لأخيه : يا أخى هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : مهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ قيل فأروى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف بن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ؟ وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ؟ وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : اتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ؟ وقال ابن عباس : من أذن ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألسنتك تعجب من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فالذى يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه ؟ فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا ، والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) قال القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّ به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ، ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله فقييل : يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوبه وقد هلك ، فقال : نعم ، وأفواهكم ملأى من دمه^(٥) ، وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد بن المنكدر : قالت لى أمى يابنى لاتمازح الصبيان فتهمون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه : يابنى لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيا فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجزى إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن نقل عليكم لحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضي الله عنه : أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال : لأنه أزعج صاحبه عن الحق . وقيل : لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح . ويقال : المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء .

» فإن قلت : قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول : إن قدرت

(١) حديث « إني أمرج ولا أقول إلا حقا » تقدم (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من الثريا » تقدم (٣) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم كثيرا ولبكيتكم كثيرا » متفق عليه من حديث أنس وعائشة (٤) حديث : كان ضحكة التبسم . تقدم (٥) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّ به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله ، فقبل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوبه فهلك قال : نعم وأفواهكم ملأى من دمه » أخرجه ابن المائكة في الزهد والرفائق وهو مرسل .

على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذى قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الدور فلا حرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد ، وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ^(١) نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا فقال : « إني وإن دأبتكم لأقول إلا حقاً » ^(٢) ، وقال عطاء : إن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال : نعم ، قال : فما كان مزاحه ؟ قال : كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها : البسيه واحدى وجرى منه ذبلاً كذيل العروس ^(٣) ، وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفسكه الناس مع نسائه ^(٤) وروى أنه كان كثير التبسيم ^(٥) وعن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لها صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة عجوز ، فبككت فقال : « إنك لست بعجوز يومئذ » ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً لِّجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ ^(٦) ، وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي يدعوك ، قال : « ومن هو أهو الذي بعينه بياض ؟ » قالت : والله ما بعينه بياض ! فقال : « بلى إن بعينه بياضاً » فقالت : لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد إلا وبعينه بياض ، وأراد به البياض المحيط بالحدقة » ^(٧) وجاءت امرأة أخرى فقالت : يا رسول الله احملني على بعير فقال : « بل نحملك على ابن البعير » ، فقالت ما أصنع به إنه لا يحملني فقال صلى الله عليه وسلم : « ما من بعير إلا وهو ابن بعير » ^(٨) ، فكان يمزح به وقال أنس : كان لابي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول « يا أبا عمير ما فعل النغير » ^(٩) ، لتغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور . وقالت عائشة رضي الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال : « تعالى حتى أسابقك » ، فشددت درعى على بطني ثم خططنا خطاً فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال : « هذه مكان ذى الحجاز » ^(١٠) ، وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذى الحجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال : « اعطينيه » ، فأبيت وسعيت وسمي في أثرى فلم يدركني وقالت أيضاً : سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقني فسبقني ، وقال : « هذه بتلك » ^(١١) ، وقالت أيضاً رضي الله عنها . كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة : كلي ، فقالت لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقتك ، فأخذت

(١) حديث : إذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة : قالوا إنك تداعبنا قال : « إني وإن دأبتكم فلا أقول إلا حقاً » أخرجه الترمذي وحسنه . (٣) حديث عطاء : إن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس : نعم . . . الحديث فذكر منه قوله لاسرأة من نسائه « البسيه واحدى وجرى منه ذبلاً كذيل العروس » لم ألق عليه (٤) حديث أنس : كان من أفسكه الناس . تقدم (٥) حديث « أنه كان كثير التبسيم » تقدم (٦) حديث الحسن « لا يدخل الجنة عجوز » أخرجه الترمذي في المعاجل هكذا مرسل وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف . (٧) حديث زيد بن أسلم : في قوله لاسرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك « أهواق بعينه بياض . . . الحديث » أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث هيبدة بن سهم الفهري مع اختلاف (٨) حديث : قوله لاسرأة استعملته « نحملك على ابن البعير . . . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ « أنا حاملة على ولد الناقة » (٩) حديث أنس « أبا عمير ما فعل النغير ؟ » متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة (١٠) حديث عائشة : في مسابقته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال « هذه مكان ذى الحجاز » لم أجده أصلاً ولم تسكن عائشة معه في غزوة بدر (١١) حديث عائشة : سابقني فسبقته . أخرجه النسائي وابن ماجه وقد تقدم في التكاثر (١٧ — أحياء علوم الدين — ٣)

بيدي من الصحيفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس يئني ويئنها، فحفض لهارسول الله ركبتيه لتستفيد مني فتناولت من الصحيفة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بضحك^(١) وروى أن الضحاك بن سفيان الكلبي كان رجلاً دميماً قبيحاً، فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء - وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب - أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع ، فقالت : أي أحسن أم أنت ؟ فقال : بل أنا أحسن منها وأكرم ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها لماه لأنه كان دميماً^(٢) . وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن ابن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزاري : والله ليكونن لي الإبن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم^(٣) فأكثر هذه المطالبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا : أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم^(٤) ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى أن خوات ابن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة ؟ فقال يفتلن صميرا لجل لي شرود ، قال : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال : يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ قال : فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفر من كل ما رأيته حياء منه ، حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال : فرآني في المسجد يوما أصلي فجلس إلى فطوئت فقال : لا تطول فإني أنتظرك ، فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ قال : فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفر من كل ما رأيته حتى لحقني يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد. فقال : يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ فقلت والذي بعثك بالحق ما شرده منذ أسلمت فقال : الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله ، قال : فحسن إسلامه وهداه الله^(٥) وكان نعيمان الأنصاري رجلا من أحناف كان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالمهم ، فلما كثر ذلك منه

(١) حديث عائشة : في اطلع وجه سودة بحريرة واطح سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك . أخرجه الزبير بن بكار في كتاب المسكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد (٢) حديث : أن الضحاك بن سفيان الكلبي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة - قبل أن يضرب الحجاب - فقالت أي أحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميماً . أخرجه الزبير بن بكار في المسكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معصلاً وللدارقطني نحوه هذه الفصة مع عيينة بن حسن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي فيهش لياه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري : والله ليكونن لي الإبن رجلاً قد خرج وجهه وما قبلته قط ! فقال : إن من لا يرحم لا يرحم^(١) أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن حصن بن بدر وسب إلى جده . وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك أحدهما : أنه عيينة بن حصن ، والثاني : أنه الأقرب بن حابس . وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرب بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لا يرحم لا يرحم^(٢) (٤) حديث : قال لصهيب وبه رمد : أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم . أخرجه ابن ساجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٥) حديث : أن خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن صميرا لجل لي شرود ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات : ربعة بن عمرو

قال له رجل من الصحابة : لعنك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله ، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : يا رسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أعطه ثمن متاعه ، فيقول له صلى الله عليه وسلم : أو لم تهده لنا ، فيقول : يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأجبت أن تأكل منه ، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمانه ^(١) فهذه مطايبات يساح مثلها على الدور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب .

الآفة الحادية عشر : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾ ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتثنية على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه : وقد يكون ذاك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : والله ما أحب أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا ^(٢) ، وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ إن الصغيرة التيسم بالاستهزاء بالأمم ، والكبيرة التهقعة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمعة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال : علام يضحك أحدكم مما يفعل ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكره وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيجىء بكره وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم لهم فلا يأتيه ^(٤) ، وقال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل ^(٥) » وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له . وعليه نبه قوله تعالى ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ أى لا تستحقره استصغارا فاعله خير منك .

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مستخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح - وقد سبق ما يذم منه وما يمدح - وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما

(١) حديث : كان لعيمان رجلا مزاحا وكان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ... الحديث . وفيه : أنه كان يشترى الشيء ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يبيع بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه .. الحديث . أخرجه الزبير بن بكار في المصنف ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن حزم مرسل وقد تقدم أوله .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

(٢) حديث عائشة : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : ما يسرنى أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا « أخرجه أبو داود والترمذي وصححه (٣) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم في الضحك من الضرطة وقال « علام يضحك أحدكم مما يفعل » متفق . (٤) حديث « ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكره وغمه فإذا جاء أغلق دونه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسل وروناه في تأملات النجيب من رواية أبي هريرة أحد المالكين عن أنس (٥) حديث معاذ بن جبل « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل » أخرجه الترمذي دون قوله « قد تاب منه » وقال حسن غريب وليس إسناده بمتصل قال أحمد بن منيع قالوا « من ذنب قد تاب منه » .

فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقه إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية للنهي عنها

الآفة الثانية عشر : إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة ^(١) ، وقال مطلقا : الحديث بينكم أمانة ^(٢) ، وقال الحسن : إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك . ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثنا وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاء كان الخيار عليه قال : فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأبيت معاوية فأخبرته فقال : يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ إفشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار . ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة .

الآفة الثالثة عشر : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم العدة عطية ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم الوأى مثل الدين أو أفضل ^(٤) ، والوأى : الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ قيل إنه وعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي ، فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره . ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قریش وقد كان إليه منى شبه الوعد ، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق ! أشهدكم أنى قد زوجته ابنتي . وعن عبد الله بن أبي الحنفية قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فأنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال ديافتي لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ^(٥) ، وقيل

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

(١) حديث « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر .

(٢) حديث « الحديث بينكم أمانة » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

(٣) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا (٤) حديث « الوأى مثل الدين أو أفضل » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبي الحنفية : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فأنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال « يا بني قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » رواه أبو داود واختلف في اسناده وقال ابن مهدي ما أظن إبراهيم بن طهمان الا أخطأ فيه .

لإبراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء ، قال : ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدا قال : عسى ^(١) ، وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا يقول إن شاء الله وهو الأول .

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر ، فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ^(٢) ، وقال عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهم كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ^(٣) ، وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما : فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحدا ، فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحي بيدي ؟ فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول : كيف بموعدي لأبي الهيثم ؟ ^(٤) ، فأثره به على فاطمة - لما كان قد سبق من موعده له - مع أنها كانت تدبر الرحي بيدها الضعيفة . ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لي عندك موعدا يا رسول الله قال : صدقت ، فاحتكم ماشئت ، فقال : أحتكم ثمانين ضائمة وراعيها ، قال : هي لك ، وقال : احتكتك يسيرا ^(٥) ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكما موسى عليه السلام فقالت حكى أن تردني شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعلوا مثلا فقيلا : أشع من صاحب الثمانين والراعي . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي ^(٦) ، وفي لفظ آخر : إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجده ، فلائمه عليه .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب . قال اسمعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول - ثم بكى -

(١) حديث : كان إذا وعد وعدا قال « عسى » لم أجده أصلا (٢) حديث أبي هريرة « ثلاث من كن فيه فهو منافق ... الحديث وفيه « إذا وعد أخلف » متفق عليه وقد تقدم .

(٣) حديث عبدالله بن عمرو « أربع من كن فيه كان منافقا ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما : فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحدا ، فجاءت فاطمة تطالب منه .. الحديث . وفيه لجعل يقول « كيف بموعدي لأبي الهيثم » فأثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذى من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة (٥) حديث : أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال : لى عندك موعدا ، قال : صدقت فاحتكم ماشئت ... الحديث وفيه « لصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك .. الحديث » أخرجه ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر . (٦) حديث « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي » وفي لفظ آخر « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجده فلائمه عليه » أخرجه أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قال « فلم يجده »

وقال « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار »^(١) وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق »^(٢) وقال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذي بنى عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب »^(٣) ، وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^(٤) ، ومر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما : والله لأنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر : والله لأزيدك على كذا وكذا ، بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال « أرجب أحدهما بالإثم والكفارة »^(٥) ، وقال عليه السلام « الكذب ينقص الرزق »^(٦) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن التجار هم الفجار » فقيل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع ؟ قال « نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون »^(٧) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعبطيته والمنفق سلعته بالخلف الفاجر والمسبل لإزاره »^(٨) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة »^(٩) ، وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يحبهم الله : رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا . فتحنى يصلى حتى يوقط أصحابه للرحيل . وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البائع الخلاف ، والفقير المختال والبخیل المنان »^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له »^(١١)

الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

(١) حديث أبي بكر الصديق : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامى هذا عام أول - ثم بكى - وقال « إياكم والكذب الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليالي وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وإنما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن (٢) حديث أبي أمامة « إن الكذب باب من أبواب النفاق » أخرجه ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجهي ضعيف جدا ويبنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أربع من كن فيه كان منافقا » قال في كل منهما « وإذا حدث كذب » وما في الصحيحين وقد تقدم في الآفة التي قبلها . (٣) حديث « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسير وضيفة ابن عدى ورواه أحمد والطبراني من حديث الزواس بن سميان بإسناد جيد . (٤) حديث ابن مسعود « لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » متفق عليه (٥) حديث . برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ... الحديث ، وفيه فقال « أرجب أحدهما بالإثم والكفارة » أخرجه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناها في أمالي ابن سمون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عند الله ابن ناسخ (٦) حديث « الكذب ينقص الرزق » أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأصمانيين من حديث أبي هريرة ورويناها كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف (٧) حديث « إن التجار هم الفجار ... الحديث » وفيه « ويحدثون فيكذبون » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل (٨) حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعبطيته والمنفق سلعته بالخلف الكاذب والمسبل لإزاره » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر (٩) حديث « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذي والحاكم وصححه إسناده من حديث عبد الله بن أنيس (١٠) حديث أبي ذر « ثلاثة يحرمهم الله ... الحديث » وفيه « وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الخلاف » أخرجه أحمد واللعظه وفيه ابن الأحس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد والنسائي من حديث أبي هريرة « أربعة يمهضهم الله البائع الخلاف .. الحديث » وإسناده جيد (١١) حديث « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » أخرجه أبو داود والترمذي وضيفة والنسائي في الكبرى من رواية يهز بن حكيم عن أبيه عن جده

وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان ، فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة (١) » وعن عبد الله بن جراد قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل يزني المؤمن ؟ قال « لا » ثم اتبعها صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقول الله تعالى « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » (٢) وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعو فيقول في دعائه « اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب (٣) » ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك كذاب ، وعامل مستكبر (٤) » وقال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي . يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « وما أردت أن تعطيه » قالت تمرأ ، فقال « أما إنك لو لم تفعل لكنت عليك كذبة (٥) » ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جابا (٦) » ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ألابشكم بأكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين » ثم قعد وقال « لا تقول الزور (٧) » ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به (٨) » ، وقال أنس . قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « تقبلوا إلى بسبب اتقبل لكم بالجنة » فقالوا وما هن ؟ قال « إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم (٩) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن للشيطان ككلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب . وأما ككله فالنوم (١٠) » ، وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كقيامي هذا فيكم فقال « احسنوا إلى أصحابي

(١) حديث « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل (٢) حديث عبد الله بن جراد : أنه سأله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هل يزني المؤمن ؟ قال « قد يكون من ذلك » قال : هل يكذب ؟ قال « لا » ... الحديث أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء .

(٣) حديث أبي سعيد « اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب » هكذا وقع في نسخ الإحياء عن أبي سعيد وإنما هو عن أم معد وكذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله « وفرجني من الزنا » وزاد « وعملي من الرياء وعيني من الحباثة وإسناده ضعيف (٤) حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ... الحديث » وفيه « والإمام الكذاب » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطيك فقال « وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرأ فقال « إن لم تفعل كنت عليك كذبة » رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يسمع منه . قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وأن مسعود ورجلها ثقات لما أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة (٦) حديث « لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جابا » رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة (٧) حديث « ألابشكم بأكبر الكبائر ... الحديث » وفيه ألا « وقول الزور » متفق عليه من حديث أبي بكر (٨) حديث ابن عمر « إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

(٩) حديث أنس « تقبلوا إلى بسبب اتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ... الحديث » أخرجه الحاكم في المستدرک والحرط في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعيف أحمد والنسائي وثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد .

(١٠) حديث « إن للشيطان ككلا ولعوقا ... الحديث » أخرجه الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد^(١) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان^(٣) » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب^(٥) » وقالت عائشة رضي الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها^(٦) . وقال موسى عليه السلام : يارب أي عبادك خير لك عملاً ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزين فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شئ كلحم العصفور عما قليل يقلده صاحبه . وقال عليه السلام في مدح الصدق « أربع إذا كن فيك لا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة^(٧) » وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول - ثم بكى - وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة^(٨) » وقال معاذ : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وإداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح^(٩) » .

وأما الآثار : فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على لزامي . وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إيلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً فإذا رأيناكم فاحبكم إيلينا أحسنكم خلقاً فإذا اخترناكم فأحبكم إيلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتاباً فأتيت على حرف إن أنا كنيته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وقال الشعبي : ما أدري أيهما أبعد غور في النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السماك : ما أراني أوجر على ترك الكذب لأنني إنما أدعه أنفه . وقيل الخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذباً بكذبة واحدة ؟ قال : نعم وقال مالك بن دينار : فرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقاً صدق وإن

(١) حديث : خطب عمر بالجالية ... الحديث . وفيه « ثم يفشو الكذب » أخرجه الترمذي وصححه والذسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٢) - حديث « من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٣) - حديث « من حلف على يمين مآثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) - حديث : أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها . أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شعبة حرسل وموسى روى معمر عنه من أكبر قاله أحمد بن حنبل (٥) - حديث على « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمه الكامل من حديث سعد بن أبي وهاس وابن عمر أيضاً وأبي أمامة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد حرث ورواه الموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في اللعل (٦) - حديث : ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة . أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح (٧) - حديث « أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ... الحديث » أخرجه الحاكم والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة (٨) - حديث أبي بكر « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة » أخرجه ابن ماجه والذسائي في اليوم والليلة وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع (٩) - حديث معاذ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه أبو لعيم في الحلية وقد تقدم .

كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلها قرضتا نبتاً . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له : كذبت ، فقال عمر : والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب

أعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب يحصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً .

قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال : أرأيت فلاناً ؟ ما كنت قائلاً ؟ ألسنت تقول : لم أره ؟ وما تصدق به . وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمال قلب المجنى عليه إلا بالكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يحتزم منه ما يمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة .

والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها ^(١) . وقالت أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمي خيراً ^(٢) ، وقالت أسماء بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما ^(٣) ، وروى عن أبي كامل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلك نفسي وأصلحت بين هذين ! فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا كامل أصلح بين الناس ^(٤) ، أي ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أ كذب على أهلي ؟ قال : لا خير في الكذب ، قال : أعدتها وأقول لها ، قال : لا جناح عليك ^(٥) ،

(١) حديث أم كلثوم : ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . أخرجه مسلم وقد تقدم (٢) حديث أم كلثوم أيضاً : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ... الحديث « متفق عليه وقد تقدم ، والذي قبله عند مسلم بعض هذا (٣) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما » أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه . (٤) حديث أبي كامل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام ... الحديث . وفيه « يا أبا كامل أصلح بين الناس » رواه الطبراني ولم يصح (٥) حديث عطاء بن يسار : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أ كذب على أهلي ؟ قال : لا خير في الكذب ، قال : أعدتها وأقول لها ، قال : لا جناح عليك » أخرجه ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلاً وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم معضلاً من غير ذكر عطاء بن يسار (١٨ — لمحياء علوم الدين — ٣)

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت : لا تنشدنى ، قال : فلانى أنشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أنسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال : إنكم لتحدثون لى أظلم النساء وأخلمهن فاسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هى وعمتها فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : لى أقول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدنى فتحرّجت أن أكذب ، أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم فاكذبى فإن كانت لحدان لآحب أحدنا فلا تحدثه بذلك ، فإن أقل البيوت الذى يبنى على الحب ولسكن الناس يتعاشرون بالإسلام والاحساب .

وعن النّوّاس بن سمعان الكلّابى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما لى أراكم تتهافون فى الكذب تهافت الفراش فى النار ؟ كل الكذب يكسب على ابن آدم لآمحالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شخاء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها (٣) ، وقال ثوبان الكذب كله لائم إلا مانع به مسلما أو دفع عنه ضررا . وقال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبى صلى الله عليه وسلم فلان آخر من السماء أحب لى من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فالجرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو غيره . أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك ، فيقول : ما زليت وما سركت . وقال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله (٤) ، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا .

وأما عرض غيره : فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها فى الحال تطيباً لقلبه ، أو يعتذر لى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولآجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحتز الإنسان من الكذب ما أمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به ؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ولا مور لى فواتها

(١) حديث النّوّاس بن سمعان « ما لى أراكم تتهافون فى الكذب تهافت الفراش فى النار ؟ كل الكذب مكتوب ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن بلال لى مكارم الأخلاق بالفظ « تبايعون » لى قوله « فى النار » دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيهما شهرين حوشب . (٢) حديث « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » الحاكم من حديث عمر بلفظ « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها فن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله » وإسناده حسن .

محذورا ، حتى إن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرة وإنى أتكث من زوجى بما لم يسل أضرارها بذلك فهل على شئ فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من تطعم بما لا يطعم أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة ^(٢) » ، ويدخل فى هذا فنوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذى لا يثبت له إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدري ، وهذا حرم : وبما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب فى المكتب إلا وعد أو عيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا . نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيع بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه وإنما يتعمل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض . إذ قال صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ^(٣) » ، وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة لذى الصدق مندوحة عن الكذب فيها ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلى . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شئ . نسأل الله العفو عا . وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض ما يكفى الرجل عن الكذب ؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ما روى أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأ فتعلل بمرض وقال : مارفعت جنبى منذ فارقت الأُمير إلا مارفعتنى الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شئ فكهرت أن تكذب فقل : إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شئ . فيكون قوله « ما » حرف نفى عند المستمع ، وعنده الإبهام . وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتى به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشئ . فقال : كان عندي ضاغط ، قالت : كنت أُمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضى الله عنه . فبعث عمر

(١) حديث أسماء : قالت امرأة : إن لى ضرة وإنى أتكث من زوجى بما لم يفعل . الحديث . متفق عليه وهى أسماء بنت أبي بكر الصديق . (٢) حديث « من تطعم بما لا يطعم وقال لى وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة » لم أجده بهذا اللفظ . (٣) حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم .

معك ضاغطا ؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر ، فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال : بعثت معك ضاغطا ؟ قال : لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا فقال . أرضها به - ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقبيا وأراد به الله تعالى - وكان النخعي لا يقول لابنته : أشتري لك سكرأ بل يقول : رأيت لو اشتريت لك سكرأ ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية : قولي له أطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس ههنا كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب في المنزل هو يكرهه خط دائرة وقال للجارية : ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا . وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبدالله بن عتبة قال : دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب ، فجعل الناس يقولون هذا كساك أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا ، فقال لي أبي يا بني اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه .

نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة عجوز »^(١) وقوله للأخرى « الذي في عين زوجك بياض » وللأخرى « نحمك على ولد البعير » وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضير إذ قال له إنه نعيان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق بتغريهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك ؛ فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه »^(٢) وأما قوله عليه السلام « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من النريا »^(٣) أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا ، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب . وبما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول : لا أشتهي ؛ وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد : قالت أسماء بنت عبيس ، كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى لسوة قالت : فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قد حامن لبن : فشرب ثم ناوله عائشة ، قالت : فاستحييت الجارية فقلت : لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال « ناولي صواحبك » فقلن : لا نشتهي ، فقال « لا تجمعن جوعا وكذبا » قالت : فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا شيء لا نشتهي لا أشتهي أيعد ذلك كذبا ؟ قال

(١) حديث « لا يدخل الجنة عجوز » وحديث « في عين زوجك بياض » وحديث « نحمك على ولد البعير » تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة . (٢) حديث « لا يستكمل المؤمن لإيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة القدري وقال فيه نظر ولشيوخ من حديث أنس « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ولإدراكه في المؤلفات والمختلف من حديث أبي هريرة « لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه » قال أحمد بن حنبل منكر . (٣) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من النريا » تقدم في الآفة الثالثة .

« إن الكذب ليكتب كذبا ، حتى تكتب الكذبة كذبة »^(١) ، وقد كان أهل الورع يحتزون عن التسامح بمثل هذا الكذب .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك فأقول : لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه أنسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي قال : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فأنكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يابني ؟ لجلس الربيع وقال : أرضعتني ؟ قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت ، يا ابن أخي فصدت ؟ ومن العادة أن يقول : يعلم الله ، فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من عظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم ، لما لا يعلم . وربما يكذب في حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام « إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقول »^(٢) وقال عليه السلام « من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقده بينهما أبدا »^(٣) ،

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

والنظر فيها طويل فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ وقال عليه السلام ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه^(٤) ، والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزة : قال عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا »^(٥) ، وعن جابر وأبي سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه »^(٦) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة سرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم »^(٧) ، وقال سليم بن جابر : أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت علني خيرا أنتفع به ، فقال « لا تحقرن

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس : كنت صاحبة عاتقة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث وفيه « قال لا تجمن جوعا وكذا » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب ، فإن أسماء بنت عميس كانت لاذ ذاك بالحشة ، لكن في طبقات الأصمعيين لأبي الفصح من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس : زفنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه . الحديث . فإذا كانت غير عاتقة ممن تزوجها بعد خير فلا مانع من ذلك (٢) حديث « إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول على ما لم أقول » أخرجه البخاري من حديث وثالة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر « من أفرى الفري أن يرى عينيه ما لم تريا » (٣) حديث « من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرة » أخرجه البخاري من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

(٤) حديث « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يفتب بعضكم بعضا وكروا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا يفتب بعضكم بعضا » وقد تقدم في آداب الصحبة (٦) حديث جابر وأبي سعيد « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا » الحديث ... الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير . (٧) حديث أنس « مررت ليلة سرى بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ... الحديث » أخرجه أبو داود مسندا ومرسلا والمسلم أصح .

من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي ، وأن تلقى أحاك ببشر حسن وإن أدبر فلا تغتابه^(١) ، وقال البراء : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته^(٢) » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام : من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار . وقال أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال : لا يفطرون أحد حتى آذن له « فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يحس فيقول : يا رسول الله ظلمت صائماً فأذن لي لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يا رسول الله فماتان من أهلك ظاناً صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتيك فائذن لهما أن يفطرا ! وأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فقال : « إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس ؟ اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيتا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقامتا ، فقامت كل واحدة منهما علة من دم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار^(٣) » ، وفي رواية : أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم « ائتوني بهما » فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر فقال لاحدهما « قيتي » فقامت من قبيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال الأخرى « قيتي » فقامت كذلك ، فقال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس^(٤) ، وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنها الرجل وأرأى الربا عرض المسلم^(٥) » ، وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأقنى على قبرين يعذب صاحباهما فقال « إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يفتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله » فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرها ثم أمر بكل كسرة فغرس على قبر وقال « أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين - أو ما لم ييبسا -^(٦) » . ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عزا إلى الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب ، فتر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال « انهشا منها » فقالا : يا رسول الله نهش

(١) حديث سليم بن جابر : أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمني خيراً ينفعني الله به . . . الحديث . أخرجه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد « ولذا أدبر فلا يغتابه » وفي إسنادهما ضعف (٢) حديث البراء « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال « لا يفطرون أحد حتى آذن له فصام الناس . . . الحديث » في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقامت كل واحدة منهما علة من دم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وإن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ويزيد ضعيف (٤) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه « لأن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . . . الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المتهمة (٥) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه . . . الحديث . وفيه « وأرأى الربا عرض الرجل المسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف . (٦) حديث جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأقنى على قبرين يعذب صاحباهما فقال « أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يفتاب الناس . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الفضولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه التهمة بدل الغيبة . وللطائسي فيه « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » وأحمد والطبراني من حديث أبي بكر نحوه بإسناد جيد .

حيية ؟ فقال « ما أصبتهما من أخيكما أنتن من سعد » (١) وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلافون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون حلافة عادة المذاقتين . وقال أبو هريرة : من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة وقيل له كاه ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله فينضج ويكلىح (٢) وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدتين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مختثا فترك ذلك . فقالا : لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلنا فصلينا مع الناس ، فحاك في أنسهما ما قالوا فأثيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال في ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ الهمزة : الطعان في الناس ، والهمزة : الذى يأكل لحوم الناس . وقال قيادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أمثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من التهمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكل في الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فادكر عيوبك . وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول : ابن آدم إلك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تغيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك الغيب فنصلحه من ، فإذا وصلت ذلك كان شعلك في حاسة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الخواريون بجيفة كلب فقال الخواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

بيان معنى الغيبة وحدودها

أعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته .

أما البدن : فكذلك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب : فبأن تقول أبوه نبطي أو هندی أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال ، أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق : فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مرأء شديد الغضب - نبال عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما في أفعاله المتعلقة بالدين : فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صدومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا : فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس ، أو لا يرى لأحد

(١) حديث : قوله لرجل الذى قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقص كما يقص الكلب فربحمة فقال « انشأ منها... الحديث » أخرجه أبو داود والذئلي عن حديث أبي هريرة نحوه بأسناد جيد (٢) حديث أبي هريرة « من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة » فقال له كاه ميتا كما أكلته حيا ... الحديث « أخرجه ابن مردويه في التهذيب مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن إسحاق رواء بالعمنة .

على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نثوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فيكقولك إنه واسع السكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة في الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز ، بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال « هي في النار »^(١) ، وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فإخبرها إذن »^(٢) ، فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه ، بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « ذكرت أخاك بما يكرهه » قيل : أرايت إن كان في أخى ما أقوله ؟ قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »^(٣) ، وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما أعجزه ! فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم » قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال « إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه »^(٤) ، وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها »^(٥) ، وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل ؛ فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذاك الرجل الأسود ، ثم قال أستغفر الله إني أرايت قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل إلا عور . وقالت عائشة لا يغتابن أحدكم أحداً فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فنالني « الفظى » فلفظت مضغة لحم^(٦) .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه ، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالتقول ، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومات يدي أنها قصيرة فقال عليه

(١) حديث : ذكرت له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكان تؤذى جيرانها فقال « هي في النار » أخرجه ابن حبان والمحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٢) حديث : ذكرت امرأة أخرى بأنها بخيلة قال « فإخبرها إذن » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسل ورويناه في أمالي ابن شيمون هكذا (٣) حديث « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « ذكرت أخاك بما يكره » الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٤) حديث معاذ : ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ... الحديث . أخرجه الطبراني بسند ضعيف (٥) حديث عائشة : أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال « اغتبتيها » رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف من حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب (٦) حديث عائشة : قلت لامرأة ولئن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم « الفظى » فلفظت بضعة من لحم . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي إسناده امرأة لأعرها .

السلام ، اغتبتها ^(١) » ومن ذلك المحاكاة يمشى متعارجاً أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهم ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال « ما يسرنى أنى حاكيت إنساناً ولى كذا وكذا » ^(٢) . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترب به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره - كما سيأتى بيانه - وأما قوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئاً قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ^(٣) ، فكان لا يعين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة .

وأخبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرأين فلأنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بحملهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الخطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان : ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجعله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ما أعجب هذا ! حتى يصغى إليه ويعلم ما يقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبثه ، وهويته على الله عز وجل بذكره جهلاً منه وغروراً . وكذلك يقول : ساء ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذباً في دعوى الاغتنام وفي إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لإخفاء في خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يغتم به لاغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده ، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب اينريد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ما علمت أنه كذلك ! ما عرفته إلى الآن إلا بالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه ، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك

(١) حديث عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أى قصيرة فقال الله صلى الله عليه وسلم « قد اغتبتها » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن غزاق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقين ثقات (٢) حديث « ما يسرنى أنى حاكيت ولى كذا وكذا » تقدم في الآفة الحادية عشرة (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئاً قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله « وكان لا يبره » ورجاله رجال الصحيح .

المقتاب . قال صلى الله عليه وسلم « المستمع أحد المغتابين »^(١) وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانا لنشوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز فقال صلى الله عليه وسلم « قد ائتمتيا » فقالا : مانعله ؟ قال « بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما »^(٢) ، فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما : أقعص الرجل كما يقعص الكلب « انهما من هذه الجيفة »^(٣) « لجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من لثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ، ولا يخرج من الإثم ما لم يكرهه بقلبه ، ولا يكتفى في ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أو يشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقاق للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذهب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق »^(٤) وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة »^(٥) وقال أيضاً « من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار »^(٦) وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا : ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية ؛ فالأول أن يشنى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه يشتنى بذكر مساوية فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشنى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثاني : موافقة الأقران وبجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استنقلوه ونفروا عنه فيساعدتهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه بجاملة في الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم لإظهارا للمساهمة في المراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوى .

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محادثته ، أو يشهد عليه بشهادة

(١) حديث « المستمع أحد المغتابين » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة . وهو ضعيف » (٢) « يت : أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لنشوم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قد ائتمتيا » فقالا : مانعله ؟ فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما » أخرجه أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه (٣) حديث « انهما من هذه الميتة » قاله للرجلين اللذين قال أحدهما : أقعص كما يقعص الكلب . تقدم قبل هذا باني عقر حديثا (٤) حديث « من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (٥) حديث « من رد عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ « رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » وفي رواية له « كان له حجابا من النار » وكلاما ضعيف (٦) حديث « من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار » أخرجه والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

فيآدره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادى الكذب ، فإن أخبركم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله ، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله .

الخامس : لإرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف : وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ويربهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يشغل عليه أن يسمع كلام الناس وثناهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعى جنائيا من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق .

السابع : اللعب والهزل والمطايبة وترجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة وممشؤه التكبر والعجب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة وممشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضا وأدقها ، لأنها شرور خباها الشيطان فى معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تنبعت من الدين داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة ؟ وكيف يحاس بين يدى فلان وهو جاهل ؟ .

الثانى : الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يتلى به فيقول : مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاغتمام يمكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قاره إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستتر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلاء فضلا عن العوام ، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى . كان عذرا فى ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم - كما سيأتى ذكره - روى عن عامر بن وائلة : أن رجلا من علي قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله لنذبنه ، ثم قالوا : يا فلان لرجل منهم - قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعو له ، فدعاه وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : لم تبغضه ؟ ، فقال : أنا جاره وأنا به خابر ، والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى آخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى نقصت منها أو ما كست فيها طالبها الذى يسألها؟ فسأله فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل : قم فلعله خير منك (١) .

بيان العلاج الذى يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الاخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل :

أما على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الاخبار التى روينها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمفت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة بمن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب .

قال صلى الله عليه وسلم : ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد (٢) ، وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تفتابى ، فقال : ما بلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى . فهما آمن العبد بما ورد من الاخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم : طوي لمن شغله عيبه عن عيوب الناس (٣) ، ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل يذنبى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها .

قال رجل لحكيم : يا قبيح الوجه ، قال : ما كان خلق وجهى إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبه غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه . فهذه معالجات جملة .

(١) حديث عامر بن وائلة : أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا فى الله ... الحديث بطوله ، وفيه فقال : قم فلعله خير منك ، أخرجه أحمد بإسناد صحيح .

(٢) حديث : ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد ، لم أجده أصلا . (٣) حديث : طوي لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، أخرجه البزار من حديث أنس بن مالك ضعيف .

أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة يقطع سببها وقد قدمنا الأسباب .
أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إني إذا أعضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن لجهم بابا لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله تعالى »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء »^(٣) ، وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أحقك فيمن أحق .

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى ؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضاً على رفقاك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بألحش الذنوب وهى الغيبة .

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك فى الدنيا بالتهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتلتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذر كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقه لسفه عقلك . فبما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وعبواتك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهى أيضاً تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعدر وصرخت بالعدر وقالت : العز أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل ، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك .

وأما قصدك المباهاة وتركية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلث الناس فتكون قد بعث ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا .

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد ، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضاً خاسرا فى الآخرة

(١) حديث « إن لجهم بابا لا يدخله إلا من شق غيظه بمعصية الله » أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » أخرجه أومصور الديلمى فى مـند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه فى الأربعين البدائية لسانى (٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفعه ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبحت نفسك وأهديت إليه حسناتك . فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضره ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقد حاك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيله طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فقصودك منه إخراج غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت في حسرتك وجناتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخراج صاحبك ! ولوعرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فإنك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملا من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك ومسروراً بنصرة الله تعالى لمياه عليك وتسلطه على الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك لإبليس فأضلك ، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك ، فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً ، وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً ، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت ؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدينه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا ! وهو أن يهلك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فإذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكشف لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسمي الظن بأخيك ، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضاً معفو عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركز إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فيذبغى أن تكذبه فإنه أفسق الفاسق ، وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بذي فتيينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم محيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجوز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خيره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به ، حتى إن من استنكاه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يتحدث ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تضرع بالخمر وجهاً وشاربها ، أو حمل عليه قهراً ، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب

ولإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء »^(١) ، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيئته عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مآربه منه يحتمل الخير والشر .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فتقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه والاعتناء بسببه ؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فخرجه من سوء الظن أن لا يحققه^(٢) ، أى لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب : فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما في الجوارح : فبالعمل بموجبه . والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى خيلة مساءة الناس ، ويلقي إليه أن هذان فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته .

وأما إذا أخبرك به عدل قال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا ، لأنك لو كذبتك لكنت جانبا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعت فتتطرق التهمة بسببه ؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتممة ورد شهادة العدو^(٣) فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك : المذكور حاله كان عندى في ستر الله تعالى ، وكان أمره محجوبا عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساوئهم ، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل ، فإن المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتیاد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكثرثوا بتناول أعراض الخلق .

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة . ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فالصح في السر ولا يحد عنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور بإطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنتظر إليه بعين الاستحقار وترفع عليه ، بإيذاء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عيلا نقصان في دينك ؛ وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحتك أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيته وأجر الإعانة له على دينه .

(١) حديث « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف وابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر . (٢) حديث « ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج » أخرجه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف . (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصفه « لا يجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا جلود حدا ولا ذى غمر لأخيه » وفيه « ولا ظنين في ولاء ولا مراية » ولأبي داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغم على أخيه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهى عنه ، قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه في آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه . وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف بحكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك لائم الغيبة وهي ستة أمور :

الاول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان معتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم « إن لصاحب الحق مقالا ^(١) » ، وقال عليه السلام « مطل الغنى ظم ^(٢) » ، وقال عليه السلام « لى الواجد يحل عقوبته وعرضه ^(٣) » .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة - رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ الآية فتاب ، ولم ير ذلك عمر عن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينبهه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما لإباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما .

الثالث : الاستفتاء كما يقول المفتى ؛ ظلمت أبى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى في الخلاص ؟ والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أهأأخذ من غير عليه فقال « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف ^(٤) » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعبية آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن سكوتك ضرر المشتري وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا ، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصيح للمستشير لا على قصد

(١) حديث « لصاحب الحق مقال » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « مطل الغنى ظم » متفق عليه من حديثه

(٣) حديث « لى الواجد يحل عرضه وهوقبه » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد بإسناد صحيح

(٤) حديث : إن هنداً قالت إن أبا سفيان رجل شحيح . متفق عليه من حديث عائشة .

الواقعة : فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا يزوج إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس »^(١) ، وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش ، فلا لائم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بمعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستكف . من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا لائم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »^(٢) ، وقال عمر رضي الله عنه . ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذا المستتر لابد من مراعاة حرمة . وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لا غيبة لهم ؛ صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر فهو لاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال : إن الله حكم عدل ، ينتقم للحجاج من اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظله ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ؛ ويذنب أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله ؟ إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً ، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن . يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدلل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كفارة من اغتابته أن تستغفر له^(٣) ، وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك : أن تئني عليه وتدعوله بخير . وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشي إلى صاحبك فتقول له ؛ كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح ؛ وقول القائل : العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار

(١) حديث « أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذرهم الناس » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله « حتى يعرفه الناس » ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت . (٢) حديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب نواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم (٣) حديث « كفارة من اغتابته أن تستغفر له » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف

ولادرم ، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزبدت على سيئاته ^(١) ، وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل : قد اغتبتها فاستحلها . فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ . فأقول : لا ، لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه ، فإن لم يطيب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة .

وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب . لا أحلل من ظلمنى . وقال ابن سيرين : إنى لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدا .

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم يذنبى أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن ؟ فنقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل غيره الغيبة .

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس ^(٢) » فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحديث عليه ؟ فنقول : معناه إنى لأطلب مظلمة في القيامة منه ولاأعاصمه ، ولاأفلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، فإن رجع وعاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك . بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل .

قال الحسن إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا . وقد قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل ما هذا العفو ؟ » فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك ^(٣) . وروى عن الحسن أن رجلا قال له : إن فلانا قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت لى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

الآفة السادسة عشرة : النعمة

قال الله تعالى ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ ثم قال ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال عبدالله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتفى الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يكتفم الحديث ومشى بالنعمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ والزنيم هو الدعوى وقال تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قيل الهمزة : التمام ،

(١) حديث « من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أول مال فليصله .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٢) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى تصدقت بعرضى على الناس » أخرجه البرز وأبو السنن فى البوم والليلة والعقبلى فى الضمفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسل عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة قلت ولأعما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البرز والعقبلى .
(٣) حديث . نزول ﴿ خذ العفو ﴾ الآية فقال يا جبريل « ما هذا » فقال إن الله يأمرك أن تغفر عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك : تقدم فى رياضة النفس .

وَال تَعَالَى ﴿حالة الخطب﴾ قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى ﴿لخائتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا﴾ قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة نمام» (١) وفي حديث آخر «لا يدخل الجنة قتات» والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنيمة» ، المفرقون بين الإخوان ، الملتصقون للبراء العثرات (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بشراركم ، قالوا : بلى ، قال « المشاءون بالنيمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب (٣) ، وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة (٤) ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار (٥) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار (٦) ، ويقال : إن تلك عذاب القبر من النيمة . وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعدت من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس ، لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به (٧) ، وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فاسقوا فأوحى الله تعالى إليه : إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النيمة . فقال موسى : يارب من هو ؟ دلني عليه حتى أخرجه من بيتنا . قال : يا موسى أنها كم عن النيمة وأكون نماما ، فتابوا جميعا فسقوا . ويقال اتبع رجل حكما سبعة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إني جئت لك للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحرز منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرى أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرز من النار ، والحاجة

الآفة السادسة عشرة : النيمة

(١) حديث « لا يدخل الجنة نمام » وفي حديث آخر « قتات » متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة « وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا » أخرجه الطبراني في الأوسط والمصنفون في آداب الصلوة (٣) حديث « ألا أخبركم بشراركم » قالوا بلى ، قال « المشاءون بالنيمة .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في معارج الأئمة وفيه عبد الله بن مسعود فإن يكن القداح فهو متروك الحديث (٥) حديث أبي الدرداء « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار .. أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفا على أبي الدرداء . ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم (٦) حديث أبي هريرة « من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا في الاسناد . (٧) حديث ابن عمر « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت : سعدت من دخلني قال الجبار : وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية » فذكر منها « ولا قتات » وهو النمام ، لم أجد هكذا بنامه ولأحمد « لا يدخل الجنة عاق لوالده ولا ديوث » وللنسائي من حديث عبد الله بن عمرو « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » وللشيباني من حديث حذيفة « لا يدخل الجنة قتات » ولهما من حديث جبير بن مطعم « لا يدخل الجنة قاطع » وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمي تزني فتزني . فقالت : طوبى لمن دخلني ورخصي عنه لمي ، فقال الله عز وجل : لا يسكنك مخنث ولا نائمة »

إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والتمام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

بيان حد النيمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النيمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النيمة مختصة به . بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن . بل حقيقة النيمة إفشاء السرو هتك الستر عما يكره كشفه ، بن كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نيمة وإفشاء للسر ، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنيمة . فالباعث على النيمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له ، أو التفرج بالحديث والخصوض في الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه النيمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في عمالة عدوك أو تقييع حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور ، الأول : أن لا يصدقه لأن التمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ الثاني : أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ الثالث : أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى . الرابع : أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ الخامس : أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقيق ، اتباعاً لقول الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ السادس : أن لا ترضى لنفسك مانهيت التمام عنه ولا تحكى نيمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا ، فتكون به نماماً ومغتتاباً وقد تكون قد أتيت ماعنه نهيته . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً . وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنائيات ، بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبي الفارغ ، واتهمت نفسك الآمينة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت ؟ فقال سليمان : إن الذي أخبرني صادق ، فقال له الزهرى : لا يكون التمام صادقا ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال للرجل : اذهب بسلام .

وقال الحسن من نم إليك نم عليك . وهذا إشارة إلى أن التمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته . وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسمعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ؟ وقال تعالى ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ والتمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم : إن من شرار الناس

من اتقاء الناس لشره ^(١) ، والانسام منهم . وقال « لا يدخل الجنة قاطع » قيل وما القاطع ؟ قال « قاطع بين الناس ^(٢) » وهو النام وقيل قاطع الرحم .

وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقا مقتتاك وإن كنت كاذبا عاقبتك وإن شئت أن نقيلك أقلتك ، فقال : أقلني يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظي أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله ابن عامر - وكان أميرا - بلغني أن فلانا أعلم الأمير أبي ذكرته بسوء ، قال : قد كان ذلك ، قال : فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك ؟ قال : ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي أني لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال .

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتفقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان إثما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة . والسعاية هي النيمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم « الساعي بالناس إلى الناس أغبر رشدة ^(٣) » يعنى ليس بولد حلال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال : إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراه ماتحب إن قبلته ، فقال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما أئتمنك الله عليه ولا تصخ لإيهم فيما استحفظك الله إياهم إن يألوا في الأمة خسفا وفي الأمانة تضديعا والأعراض قطعاً وانتهاكا ، أعلى قربهم البغي والنيمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسؤولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنياه غيره . وسعى رجل بزياد الأعمى إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للوفاقة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما أئتمنتك غالبا نختت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمر بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكر في قصصه بشر ، فقال له عمرو : يا هذا ما رعت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أدبت حتى حين أعلمتني عن أخى ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمننا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين . ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لسكرته ، فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصح ففسدتك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك ، فتوق يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعي لعنه الله . وقال لقمان لابنه : يا بني أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل

(١) حديث « إن من شر الناس من اتقاء الناس لشره » متفق عليه من حديث عائشة نحوه (٢) حديث « لا يدخل الجنة قاطع » متفق عليه من حديث جابر بن مطعم (٣) حديث « الساعي بالناس إلى الناس لدير رشدة » أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى « من سعى بالناس فهو لغير رشدة » أو فيسه نبي . منها وقال : له أسانيد هذا أمثلها ، قالت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية ، قال والمحدث لا أصل له وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بإفظ « لا يسعى على الناس إلا ولد بني ولأ من فيه عرق منه » وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي بردة : أبا الوليد القرشي .

سيدنا أبسط خلقك للقریب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم والقيم ، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك وبروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك . وقال بعضهم : النعمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أئافی الذل . وقال بعضهم : لو صح ما نقله النعام إليك لكان هو المجترى بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحملك لأنه لم يقابلك بشتمك .

وعلى الجملة فشر النام عظیم ينبغي أن يتوقى . قال حماد بن سلمة : باع رجل عبدا وقال المشتري : ما فيه عيب إلا النعمة ، قال : رضيت ، فاشتراه ، فسكت الغلام أياما ثم قال لزوجته مولاة : إن سيدى لا يحبك وهو يريد إن يتسرى عليك ، فغذى موسى واحلق من شعر ففساه عند نومه شعرات حتى أصبح عليها فيحبك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها لحاءات المرأة لموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها . فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافق ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »^(١) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شرعباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث^(٢) » وفى لفظ آخر « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة : لا ينبغي لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة السكذابون والمستكبرون والذين يكثر البغضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا »^(٣) وقال ابن مسعود : لا يكون أحدكم لمعة ، قالوا : وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح . وانفقوا على أن ملاقة الاثنين بوجهين نفاق ، ولانفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم ، فقال : نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ولا تؤمن منها أحدا بعدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء - كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة - نعم لو نقل

الآفة السابعة عشرة . كلام ذى اللسانين

(١) حديث عمار بن ياسر « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن . (٢) حديث أبي هريرة « تجدون من شرعباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ... الحديث » متفق عليه بلفظ « تجد من شر الناس » لفظ البخارى وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث « أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة السكذابون والمستكبرون والذين يكثر البغضاء لإخوانهم فى صدورهم ، فإذا لقوهم تملقوا لهم ... الحديث » لم أقف له على أصل

كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النخيمة ، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام ، وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثني على واحد منهما في معاداته ، وكذلك إذا أثني على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاضدين . ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه .

قيل لابن عمر رضي الله عنهما : إنا ندخل على أمراءنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه ، فلواستغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق ، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنيا عن الدخول لوقوع بالقليل وترك المال والجاء فدخل لضرورة الجاء والغنى وأثنى فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : حب المال والجاء يثبتان النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل ^(٢) ، لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم أنت له القول ، فقال : « يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره » ^(٣) ، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم : فأما الثناء فهو كذب ، صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله - كما ذكرناه في آفة الكذب - بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينسأ ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهو منهى عنه في بعض المواضع . أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها . والمدح بدخله ست آفات : أربع في المادح ، واثنان في الممدوح .
فأما المادح ، فالأولى : أنه قد يفرط فيمتهن به إلى الكذب . قال خالد بن معدان : من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رموس الأَشهاد بعنه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه .
والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيا منافقا .

الثالثة : أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وروى أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام : « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال : « إن كان أحدكم لابد مادحا

(١) حديث . قيل لابن عمر إذا ندخل على أمراءنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال : كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الطبراني من طرق (٢) حديث « حب الجاء والمال يثبتان النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال « حب الثناء » وقال « العشب مكان » البقل (٣) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » وفيه « إن شر الناس الذي يكرم اتقاء لشره » متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها .

أخاه فابتل أحسب فلانا ولا أركى على الله أحدا حسبي الله إن كان يرى أنه كذلك ^(١) ، وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه ، فأما إذا قال رأيتَه يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يحزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال : أسأفرت معه ؟ قال : لا ، قال : أعاطلته في المبايعه والمعاملة ؟ قال : لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : والله الذى لا إله إلا هو لا أراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح المدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق ^(٢) ، وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح .

وأما المدوح فيضره من وجهين ؛ أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال : مالى ولك بأمر المؤمنين ؟ قال : مالى ولك أما سمعتها ؟ قال : سمعتها فمه ، قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطى منك .

الثاني : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر رضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام وقطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على خلقه موسى وميضا ^(٣) ، وقال أيضا لمن مدح رجلا : عقرت الرجل عقرك الله ^(٤) ، وقال مطرف : ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسى . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا انراى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم : لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه ^(٥) ، وقال عمر رضى الله عنه : المدح هو الذبح . وذلك لأن المذبح هو الذى يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ؛ لذلك شه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والمدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه . ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح ^(٦) ، وقال في عمر : لو لم أبعث لبعثت الله عليه وسلم على الصحابة فقال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح ^(٦) ، وقال في عمر : لو لم أبعث لبعثت

الآفة الثامنة عشرة : المدح

(١) حديث : إن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ويحك قطعت عنق صاحبك » متفق عليه من حديث أبي بكر بن عمار وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٢) حديث : « إن الله يغضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى بلفظ : « إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز الدرش » قال الذهبي في الميزان : منكر ، وقد تقدم في آداب الكسب .

(٣) حديث : « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على خلقه موسى وميضا » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسل (٤) حديث : « عقرت الرجل عقرك الله » قاله لمن مدح رجلا ، لم أجده أصلا (٥) حديث : « لو مضى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه » لم أجده أيضا (٦) حديث : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » تقدم في العلم .

ياعمر^(١) ، وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة . وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وهجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »^(٢) ، أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه . وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت »^(٣) ، لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لئبى آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك بمثل ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة : يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الاعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المداح ولو انكشف له جميع أسرارها وما يجرى على خواطرها لكف المداح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المداح . قال صلى الله عليه وسلم « احشوا التراب فى وجوه المداحين »^(٤) ، وقال سفیان بن عيينة : لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه : اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيراً مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال : أتهلكنى وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على على كرم الله وجهه فى وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه — فقال : أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك .

الآفة التاسعة عشر

الغفلة عن دقائق الخطأ فى خفى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت »^(٥) ، وذلك لأن فى العطف المطلق تشريفاً وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت ، فقال

(١) حديث « لولم أبعث لبعثت ياعمر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو منكر والمعروف من حديث عقبة بن عامر « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » رواه الترمذى وحسنه .

(٢) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والمالك من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عباد بن الصامت « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر » وللمسلم من حديث أبى هريرة « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » (٣) حديث « وجبت » قاله لما أثنوا على بعض الموتى متفق عليه من حديث أس

(٤) حديث « احشوا فى وجوه المداحين التراب » أخرجه مسلم من حديث المقداد .
الآفة التاسعة عشرة : فى الغفلة عن دقائق الخطأ

(٥) حديث حذيفة « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح .
(٢١) — لحياء علوم الدين — (٣)

صلى الله عليه وسلم : « أجعلتنى لله عديلاً بل ما شاء الله وحده ^(١) » . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال : قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ^(٢) » ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . وأن يقول : لولا الله ثم فلان ؟ ولا يقول : لولا الله وفلان ؟ وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورد . وكانوا يستجيبون من النار ويتعوذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمؤمنين من المسلمين . وقال إبراهيم : إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير ! قيل له يوم القيامة ، حماراً رأيتنى خلقتك خنزيراً رأيتنى خلقتك ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلمة ، فيقول : لولاه لسرقنا الليلة . وقال عمر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت ^(٣) » قال عمر رضى الله عنه : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها : وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسموا العناب كرمالنا الكرم الرجل المسلم ^(٤) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقوان أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله وليتمل غلامى وجارىتى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربى وليقل سيدى وسيدتى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا للفساق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أعظمتم ربكم ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال أنا براء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الإسلام سالماً ^(٦) » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره .

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم . من صمت نجا ^(٧) ، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل ، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغتم فكُن ممن سكت فسلم فالسلامة لإحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب . والعامى يفرح بالخوض فى العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كافر وهو

(١) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم فسلمه فى بعض الأمر فقال : ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله عديلاً قل ما شاء الله وحده » أخرجه النسائي فى الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه (٢) حديث : خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى . . الحديث « أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم (٣) حديث عمر : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . متفق عليه (٤) حديث « لا تسموا العناب الكرم لأنما الكرم الرجل المسلم » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث « لا تقولوا للمنافق سيدنا . . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح (٦) حديث « من قال أنا براء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال . . الحديث » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح . (٧) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

لا يدري . وكل كبيرة يرتكبها العاصي فهي أسلم له من أن يتسكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته . وإنعاش أن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر ، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عاصي . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ^(١) ، وقال أنس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فأكثرُوا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال : سلوني لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا : يا رسول الله من أبونا ؟ فقال : أبوكما الذي تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار ؟ فقال : لا بل في النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فقال : اجلس يا عمر رحمك الله إنك ما علمت لموفق ^(٢) .

وفي الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال ^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ^(٤) » .

وقال جابر : ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال ^(٥) . وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أو ان استحقاقه إذ قال ﴿ فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ فلم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ وفارقه .

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن ، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها ، وضعيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة . فكذلك تضيع العاصي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم .

الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى

(١) حديث : « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
(٢) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حتى أكثرُوا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال : « سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ... الحديث » متفق عليه مقتصرًا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبي موسى : فقام آخر فقال من أبي ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة . (٣) حديث : النهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال : متفق عليه من حديث المنذرة بن شعبة .

(٤) حديث : « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
(٥) حديث جابر : ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال . رواه البزار بإسناد جيد .

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يتشكل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يفضبون ، ثم حفهم بالمسكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، وامتنح بهم حبههم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون فقال ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وإنها المستكنة في طي الفؤاد . استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد ، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع من عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ، ومفوضهما مضغة إذا صلت صلت معها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوجهم إلى معرفة معاطبه ومساوئيه ليحذر ذلك ويتقيه ، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه ، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه ، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه .

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ، ويجمعها بيان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ؟ ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقة أسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته ، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكد وقولته في غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبالله التوفيق .

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى

المؤمنين ﴿ الآية . ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقلل ، قال . « لا تغضب » ، ثم أعاد عليه فقال . « لا تغضب »^(١) ، وقال ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لي قولاً وأقلله لعل أعقله ، فقال . « لا تغضب » فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى « لا تغضب »^(٢) ، وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب »^(٣) ، وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما تعدون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال « ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٥) ، وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله عورته »^(٦) ، وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى ﴿ وسيداً وحسوراً ﴾ قال : السيد الذي لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله ذلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : « لا تغضب »^(٧) ، وقال يحيى لعيسى عليهما السلام : لا تغضب ، قال : لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر ، قال : لا تقنن مالا ، قال : هذا عسى . وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما غضب أحد إلا أشنى على جهنم »^(٩) ، وقال له رجل : أي شيء أشد على قال « غضب الله » قال : فما يبعدني عن غضب الله ؟ قال « لا تغضب »^(١٠) .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار . وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال : علني علماً ازداد به إيماناً وبقيناً ، قال : لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت . أخطأت حظك ، وكن سهلاً لنا للقريب والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً . وعن وهب بن منبه : أن راهباً كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع ، فجاءه حتى ناداه فقال له : افتح ، فلم يجبه فقال : افتح فإني إن ذهبت ندمت ، فلم يلتفت إليه فقال إني أنا المسيح ، قال الراهب : وإن كنت المسيح فما أصنع بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك ؟ فقال : إني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ؟ فجئت لك لتسألني

كتاب الغضب والحقد والحسد

- (١) حديث أبي هريرة : أن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب » رواه البخاري
- (٢) حديث ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولاً وأقلل ... الحديث . أخرج نحوه أبو يعلى بإسناد حسن
- (٣) حديث عبد الله بن عمرو : سألت رجلاً رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » أخرجه الطبراني في معارج الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن ، وهو عند أحمد : وأن عبد الله بن عمرو هو السائل .
- (٤) حديث ابن مسعود « ما تعدون الصرعة ... الحديث » رواه مسلم (٥) حديث أبي هريرة « ليس الشديد بالصرعة ... الحديث » متفق عليه (٦) حديث ابن عمر « من كف غضبه ستر الله عورته » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات ودم الغضب وفي الصمت ، وتقدم في آفات اللسان (٧) حديث أبي الدرداء : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال « لا تغضب » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن (٨) حديث « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف (٩) حديث « ما غضب أحد إلا أشنى على جهنم » أخرجه البزار وابن عدى من حديث ابن عباس « لتأثر باب لا يدخله إلا من شئ غيظه بمصيبة الله » وإسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان (١٠) حديث : قال رجل أي شيء أشد علي ؟ قال « غضب الله » قال : فما يبعدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث .

عما شئت فأخبرك ، فقال : ما أريد أن أسألك عن شيء ، قال : فولى مدبرا ، فقال الراهب : ألا تسمع ، قال : بلى ، قال : أخبرني أي أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم ؟ فقال : الحدة إن الرجل إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقال خيشمة : الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه ؟ وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه ؟ وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار : رأس الحق الحدة وقائده الغضب ، ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحق جوابه . وقال مجاهد : قال إبليس ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزائمه فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، وبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه . وقيل للحكيم . ما أملك فلانا لنفسه ! قال : إذا لا تذله الشهوة ولا يصصره الهوى ولا يغلبه الغضب . وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل : اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه وما عليك بحلمه إذا لم يغضب ، وما عليك بأمانته إذا لم يطمع ؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لاتعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبس ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقه على قدر ذنبه ، ولا تتجاوز به خمسة عشر سوطا . وقال علي بن زيد : أغلظ رجل من قریش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال : أردت أن يستغفرني الشيطان بعز السلطان فأنا لك منك اليوم ما تناله منى غدا ؟ وقال بعضهم لابنه : يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحى في التناير المسجورة ، فأقل الناس غضبا أعقلهم ، فإن كان للدينا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حلما وعلما ، فقد قيل : الغضب عدو العقل والغضب غول العقل . وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال في خطبته : أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب . وقال بعضهم : من أطاع شهوته وغضبه قاده إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق وإعطاء في حق وقصد في غنى وتحمل في فاقة وإحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ولا يتجملح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بظنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا ييخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يفتقر ، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل . نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء . وقيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة . فقال اترك الغضب . وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه : من يتكفل لى أن لا يغضب فيكون معى في درجتي ويكون بعدى خليفتي ؟ فقال شاب من القوم : أنا ، ثم أعاد عليه فقال الشاب : أنا أوفى به ، فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذوالكفل ، سمى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به . وقال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان ؛ الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع .

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه ؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه .

أما السبب الداخلى : فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاءها يخالها يتصاعد منها ، فلم يصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في

الحيوان شهوة تبعته على تناول الغذاء ؛ كالموكل به في جبرما انكسر وسدما انثلم ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجية التي يتعرض لها الإنسان : فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمة تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، خلق الله طبيعة الغضب من النار وعرزها في الإنسان وعجنها بطيبته . فهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثورانها يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن ، كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجات لون ما فيها . وإنما ينسبط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه . وكان معه بأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنا ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب .

وبالجملة ففوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشنى والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشوتها وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به . ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال . أما التفريط : فبفقد هذه القوة أضعفها وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه إنه لاجية له . ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار . فن فقد قوة الغضب والحمة أصلا فهو ناقص جدا ، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمة فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ الآية ولأنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمة وهو الغضب . وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى المرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار ^(١) كما قال صلى الله عليه وسلم . وإنما برودة المزاج تطعمه وتكسر سوره . وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يخالط قوما يتبعجون بتشنى الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أنا الذي لأصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا ، ومعناه لا عقل في ولا حلم . ثم يذكره في معرض الفخر بجهله . فن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا ، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطق نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب ، فإن معدن الفكر الدماغ ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر ، وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار . فأسود تجوؤه وحى مستقره وامتأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحي أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغى

(١) حديث « الغضب من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « الغضب جرة في قلب ابن آدم » ولأبي داود من حديث عطية السعدي « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار »

أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق : فكذلك يفعل الغضب بالقاب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب فتغنى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهت أعاليه على أسفله ، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة المسكة الجامعة لأجزائه ، فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا ؛ إذ في السفينة من يمتثل لتسكينها وتديرها وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الاحداق وتقلب المناخر وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالثمرة فهذا أثره في الجسد :

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائمه عند فتور الغضب ، وذلك مع تخطيط النظم واضطراب اللفظ .

أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه أوفاته بسبب وعجز عن التثني رجوع الغضب على صاحبه فزق ثوب نفسه ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها . ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول : إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك .

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالخذل والحسد وإضرار السوء والشتمات بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك السر والاستهزاء وغير ذلك من القبايح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة بما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والآمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقيام وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوة قال صلى الله عليه وسلم « إن سعدا لغيري وأنا أغير من سعد وإن الله أغير مني ^(١) » ، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الانساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الانساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها . ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم ، خير أمتي أحداؤها ^(٢) ، يعنى في الدين وقال تعالى ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة . ففقد الغضب مذموم ، وإنما الحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « إن سعدا لغيري ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المنيرة بنعوه
وقدم في التكميل . (٢) حديث « خير أمتي أحداؤها » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بن إسحاق
صديق وزاد « الذين إذا غضبوا رجعوا »

وسلم حيث قال « خير الأمور أوسطها »^(١)، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ؛ فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ﴿ وإن تستطيعوا أن تعدلوا بين الفساد ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله يذنب أن يأتي بالشر كله ؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض . فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة : أم لا ؟

أعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالسكينة ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد ، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج . وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير ، وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه ما ذكره وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب ، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه ، والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأول : ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب ، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه أو أريق مأثقه الذي لعطشه ، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها .

القسم الثاني : ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيسكنزان ، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت ، فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه ، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب ، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمور الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاه والصيت والتصدر في المجالس والمباهاة في العلم ، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل ، ومن لا يحب ذلك فلا يبالي ولو جاس في صف النعال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكارمه فأكثر غضبه ، وكلما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أخطر رتبة وأنقص ، لأن الحاجة صفة نقص فهما أكثر نقص ، والجاهل أبداً جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته ، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن ، حتى يفتن بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرنائه السوء إلى أن يغضب لو قيل له : إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير ، وما يجري مجراه من الرذائل ، فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري .

(١) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم .

القسم الثالث ؛ ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض ، كالكتاب مثلا في حق العالم لأنه مضطر إليه فيجبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه ، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها ، فإنما هو وسيلة إلى الضروري ، والمحجوب يصير ضروريا ومحجوبا ، وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(١) » ، ومن كان بصيرا بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها .

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكليف الحلم والاحتمال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن ، وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ، ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ما صار ضروريا في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه .

وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القلب ، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ويمحو حبها عن قلبه ، ولو كان للإنسان كلب لا يجبه لا يغضب إذا ضربه غيره ، فالغضب تبع للحب . فالرياضة في هذا تنتهى إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدا ، وقد تنتهى إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون .

فإن قلت : الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب ، فن له شاة مشلا وهي قوته فانت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة ، وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصد والحجام فن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه ؛ إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم ، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد . ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة ، وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه ، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب في أحوال مختلفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه ^(٢) حتى قال « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيا مسلم سببته

(١) حديث « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محسن دون قوله « بحذافيرها » قال الترمذي حسن غريب .

(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . ولما كان ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه . وقد تقدم في أخلاق النبوة .

أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة^(١) » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذي بعثي بالحق نبيا ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه^(٢) فلم يقل إني لا أغضب ، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق ، أى لا أعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضى الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مالك ؟ جاءك شيطانك » فقالت : وما لك شيطان ؟ قال « بلى ولكنى دعوت الله فأعاني عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بالخير^(٣) » ولم يقل : لا شيطان لى ، و اراد شيطان الغضب لكن قال : لا يحملنى على الشر . وقال على رضى الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدينيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له^(٤) فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة ، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التى لا بد له فى دينه منها فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى إذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه ، فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهات يمنع الإحساس بما عداه .

وهذا كما أن سلمان لما شتم قال : إن خفت موازيتى فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيتى لم يضرنى ما تقول . فقد كان همه مصروفا إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعها لم يضرنى ما تقول ، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه فقال : ما ستر الله عنك أكثر ؛ فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتق الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته ، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان ، وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرائى ، فقال : ما عرفنى غيرك ؛ فكأنه كان مشغولا بأن يبنى عن نفسه آفة الرياء ، ومنكرا على نفسه ما يلقى الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال : إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك .

فهذه الأقاويل دالة فى الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم ، فإذا اشتغال القلب ببعض المهات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب ؛ فإذا يتصور فقد الغيظ إما باشتغال القلب بهم ، أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث : وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يفتاظ فيطغى شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال فى أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب نحو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها - كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا - ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر

(١) حديث « اللهم أنا بصر أغضب كما يغضب البشر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة دوز قوله « أغضب كما يغضب البشر » وقال « جلده » بدل « ضربته » وفى رواية « اللهم لأنما بصر يغضب كما يغضب البشر » وأصله متفق عليه وتقدم ولمسلم من حديث أنس « لأنما أنا بصر أرى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر » ولأبى بلى من حديث أبى سعيد أو ضربته (٢) حديث عبد الله بن عمرو : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا ؟ قال « اكتب فوالذى بعثى بالحق ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . أخرجه أبو داود بنحوه (٣) حديث : غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « مالك جاءك شيطانك ؟ ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث على : كان لا يغضب للدينيا ... الحديث أخرجه الترمذى فى المعائل وقد تقدم .

أسباب الغضب ، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه لأنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

بيان الاسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى عيسى عليهما السلام : أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله ، قال فما يقرب من غضب الله ، قال أن تغضب ، قال : فما يبدى الغضب وما يذبته ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والتعزز والحمية .

والاسباب المهيجة للغضب هى : الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمهارة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاء ، وهى بأجمعها أخلاق رديئة ، مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلا بد من إزالة هذه الاسباب بأضدادها .

فينبغى أن تमित الزهو بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك - كما ساقى بيانه فى كتاب الكبر والعجب - وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد ؛ وإنما اختلفوا فى الفضل أشتانا فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها ، فإذا لم تغل عنها فلا فضل لك على غيرك ، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والاعضاء الظاهرة والباطنة ؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فالخذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصمة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبورها ، ثم المواظبة على مباشرة أضرادها مديدة حتى تصير بالعادة مألوقة هيئة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة ، وتلقيبه باللقاب المحموده غباوة وجهلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكبر فى معرض المدح بالشجاعة ، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهبغ الغضب إلى القلب بسببه ، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها ، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل ، وذو الخلق السيئ* والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، ولجعله إذا فاتته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »^(١) ، بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه

(١) حديث « ليس الشديد بالصرعة » تقدم قبله .

حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسّن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأكراذ والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم .

بيان علاج الغضب بعد هييجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج ، فإذا جرى سبب هييجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هييجانه بمعجون العلم والعمل .
أما العلم فهو ستة أمور ؛ الأول : أن يتمسك في الأخبار التي سنورها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه ، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشنق والانتقام وينطق عنه غيظه ، قال مالك بن أوس ابن الحدثان : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فكان عمر يقول ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فكان يتأمل في الآية وكان وقافاً عند كتاب الله مهما تلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلي الرجل . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ فقال لغلامه خل عنه .

الثاني : أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو . فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا تحمك فيمن أحق . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفاً إلى حجة فأبطأ عليه فلما جاء قال : لولا القصاص لأوجعتك ^(١) ، أي القصاص في القيامة . وقيل ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى في هدم أغراضه والشاة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي ، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتقيل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والمذلة والمهانة وتصير حقيراً في عين الناس ! فيقول لنفسه : ما أعجبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا يدك وانتقم

(١) حديث « لولا القصاص لأوجعتك » أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

ملك ؟ وتحذرين من أن تصغرى في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبين ؟ فهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه الله ، وذلك يعظمه عند الله ، فإله للناس ؟ وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن ، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة : ليقيم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده ، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه .

وأما العمل فإن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ ^(١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن ^(٢) » فيستحب أن تقول ذلك ، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضجع إن كنت جالساً واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك ، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب جمة توقد فى القلب ^(٣) » ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحرمة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء : فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار ^(٤) » وفى رواية « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وإذا غضبت فاسكت ^(٥) » وقال أبو هريرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ^(٦) وقال أبو سعيد الخدرى : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ألا إن الغضب جمة فى قلب ابن آدم ^(٧) ألا ترون إلى حرمة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض » وكأن هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعر الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزایل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب .

وروى أن عمر غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب . وقال عروة

- (١) حديث : الأمر بالعمود بالله من الشيطان الرجيم عند البيهقي . متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه . الحديث . وفيه « لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد » فقالوا له : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... الحديث »
- (٢) حديث : كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى ... الحديث » أخرجه ابن السنن فى اليوم واليلة من حديثها وتقدم فى الأذكار والدعوات (٣) حديث « إن الغضب جمة توقد فى القلب ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله « توقد » وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البيهقي فى الشعب .
- (٤) حديث « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عطية السهمى دون قوله « بالماء البارد » وهو بلفظ الرواية الثانية التى ذكرها المصنف وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس : إذا غضبت فاسكت . أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب الإيمان وفيه لىث بن أبى سليم (٦) حديث أبى هريرة : كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه . أخرجه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم ولا أحمد باسناد جيد فى أثناء حديث به وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع ففعل له : لم تجلس ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب والألفاضطجع » والمرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود (٧) حديث أبى سعيد « ألا إن الغضب جمة فى قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن .

ابن محمد : لما استعملت على ابن قال لي أبي : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خاتهما . وروى أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحراء - في خصومة بينهما - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمة ، فقال : نعم ، فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل ، ثم قال ، إذا غضبت فإن كنت قائما فاقعد وإن كنت قاعدا فاتكى^(١) ، وإن كنت متكئا فاضطجع^(٢) ، وقال المعتز بن سليمان : كان رجل من كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا غضبت فأعطني هذه ، وقال للثاني : إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبي فأعطني هذه ، فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا ، فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك . أى لا تعطل الحدود . وغضب المهدي على رجل فقال شبيب : لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ وذكر ذلك في معرض المدح . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كف غضبه كفى الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحكمكم من عفا عند القدرة^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه مالا الله قلبه يوم القيامة رضا ، وفي رواية : ملا الله قلبه أمنا وإيمانا^(٥) ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى^(٦) ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم : إن لجهنم بابا

(١) حديث أبي ذر : أنه قال لرجل : يا ابن الحراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ... الحديث : وفيه ثم قال « إذا غضبت » إلى آخره . أخرجه ابن أبي الدنيا في المعروض الغضب بإسناد صحيح وفي الصحيحين من حديثه قال : كان بيني وبين رجل من أخواني كلام وكانت أمه أعجبة فغيرته بأمة فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية » ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإنك لست بخير من أحر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » ورجاله ثقات .

فضيلة كظم الغيظ

(٢) حديث « من كف غضبه كفى الله عنه عذابه ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر « من ملك غضبه وقاه الله عذابه ... الحديث » وقد تقدم في آفات اللسان (٣) حديث « أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحكمكم من عفا عند القدرة » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن مجلان مرسل بإسناد جيد ، ولا يزال الطبراني في مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث « أشدكم أمركم لنفسه عند الغضب » وفيه عمران القطان مختلف فيه . (٤) حديث « من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه مالا الله قلبه يوم القيامة رضا » وفي رواية « أمنا وإيمانا » أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكن بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم (٥) حديث ابن عمر « ما جرع رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » أخرجه ابن ماجه .

لا يدخله إلا من شق غيظه بمعصية الله تعالى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ومن كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفعه دعاء الله على رءوس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء ^(٣) ،

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك . وقال ايوب : حلم ساعة يدفع شراً كثيراً . واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل ، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه . فقال له رجل . يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنما كانت ناراً فأطفئت . وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه في الباطل وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان فقال : يا عبد الله أوصني ، قال : لا تغضب ، قال لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من حاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يسهج الغيظ ، وإن حاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداءه التحلم وكظم الغيظ تسكفاً . قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه » ^(٤) ، وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم » ^(٥) ، وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذى يسهج الغضب وينزع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم أغني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملي بالعافية ^(٦) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ابتغوا

(١) حديث ابن عباس « إن لهم باباً لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلف من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم وقد تقدم (٣) حديث « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفعه دعاء الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » تقدم في آفات اللسان .

فضيلة الحلم

(٤) حديث « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ... الحديث » أخرجه الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ... الحديث » أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين بسند ضعيف (٦) حديث : كان من دعائه « اللهم أغني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملي بالعافية » لم أجد له أصلاً

الرفعة عند الله . قالوا : وماهى يارسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحمل عن جهل عليك ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم ، خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر ^(٢) ، وقال على كرم الله وجهه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتسب جبارا عنيدا ولا يملك إلا أهل بيته ^(٣) ، وقال أبو هريرة : إن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيثون لى ويجهلون على وأحلم عنهم ، قال : إن كان كما تقول فكأنما تسفهم الممل ولا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك ^(٤) ، الممل : يعنى به الرمل . وقال رجل من المسلمين : اللهم ليس عندى صدقة اتصدق بها فأبى رجل أصاب من عرضى شيئا فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى لى النبي صلى الله عليه وسلم لى قد غفرت له ^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم » قالوا : وما أبو ضمضم ؟ قال : رجل من كان قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم لى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى ^(٦) .

وقيل فى قوله تعالى ﴿ ربانين ﴾ أى حلماء علماء . وعن الحسن فى قوله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبى رباح ﴿ يمشون على الأرض هونا ﴾ أى حلماء . وقال ابن أبى حبيب فى قوله عز وجل ﴿ وكهلا ﴾ قاله : السكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى إذا أودوا صفحوا .

وروى أن ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ^(٧) . ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الخليم ، قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليلين منكم ذوو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق ^(٩) . وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله

(١) حديث « ابتنوا الرفعة عند الله » قالوا : وماهى ؟ قال : تصل من قطعك . . الحديث « أخرجه الحاكم والبيهقى وقد تقدم (٢) حديث « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر » أخرجه أبو بكر بن أبى عاصم فى المثنى والآحاد والترمذى الحكيم فى نواذر الأصول من رواية مبيح بن عبد الله الخطمى عن أبيه عن جده ، وللمزمذ وحسنه من حديث أبى أيوب « أربع » فأسقط « الحلم والحجامة » وزاد « النكاح » (٣) حديث على « أن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف (٤) حديث أبى هريرة : أن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيثون لى ويجهلون على وأحلم عنهم ... الحديث . رواه مسلم (٥) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأبى رجل أصاب من عرضى شيئا فهو صدقة عليه ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الصحابه والبيهقى فى الشعب من رواية عبد المجيد بن أبى عيسى بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين ، زاد البيهقى عن عليه بن زيد وهلية هو الذى قال ذلك كما فى أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أنه رواه ابن عينة عن عمرو بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة : أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبى ضمضم قلت وليس بأبى ضمضم إنما هو عليه بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم (٦) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان (٧) حديث أن ابن مسعود مر ببلو معرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبح ابن مسعود وأمسى كريما « أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة (٨) حديث « اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الخليم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف (٩) حديث « ليلين منكم أولو الأحلام والنهى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » فهى عند أبى داود والترمذى وحسنه وهى عند مسلم فى حديث آخر لابن مسعود .

صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام « إن فيك يا أشجع خلقتين يحبهما الله ورسوله » قال : ما هما بأبى أنت وأبى يا رسول الله ؟ قال « الحلم والأناة » فقال : خلطان تخلقتهما أو خلطان جبلت عليهما ؟ فقال « بل خلطان جبلك الله عليهما » فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقتين يحبهما الله ورسوله ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحلیم الحبی الغنی المتعفف أبا العیال التقى ویبغض الفاحش البذی السائل الملهف الغبی ^(٢) » ، وقال ابن عباس : قال النبی صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تسكن فيه واحدة منهم فلا تعدوا بشئ من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله عز وجل . وحلم يكف به السفیه ، وخلق یعیش به فی الناس ^(٣) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم إن أنراكم سراعاً إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل ، فيقولون لهم ما كان فضلكم ؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسئنا إلینا عفونا وإذا جهل علينا حملنا . فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعلم أجر العاملين ^(٤) » .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والحلم . وقال على رضى الله عنه : ليس الخیر أن یكثر مالک وولدک ، ولكن الخیر أن یكثر علمک وبعظم حلمک ، وأن لا تباهی الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزینوه بالوقار والحلم . وقال أکثم بن صیق : دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء : أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه ، إن عرفتهم نقدوك وإن تركتهم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : تقرضهم عن عرضك لیوم ففرك . وقال على رضى الله عنه : إن أزل ما عوض الحلیم من حلمه أن الناس کلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى : لا یبلغ العبد مبلغ الرأى حتى یغلب حلمه جهله وصبره شهوته ، ولا یبلغ ذلك إلا بقوة العلم ، وقال معاوية لعمر بن الاهیتم : أى الرجال أشجع ؟ قال : من رد جهله بحلمه . قال : أى الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنیاه لصلح دینه . وقال أنس بن مالک فی قوله تعالى ﴿ فإذا الذى بینک و بینة عداوة كأنه ولی حمیم ﴾ إلى قوله ﴿ عظیم ﴾ هو الرجل یشتمه أخوه فیقول : إن كنت کاذباً فغفر الله لك وإن كنت صادقاً فغفر الله لی . وقال بعضهم : شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم على فاستعبدنى بها زماناً . وقال معاوية لعرابة بن أوس : بهم سدت قومك یا عرابة ؟ قال : یاأمیر المؤمنین كنت أحلم عن جاهلهم واعطى سائلهم وأسعی فی حوائجهم . فمن فعل فعلی فهو مثلی ومن جاوزنی فهو أفضل منی ومن قصر عنی فأنا خیر منه . وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال : یا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال : ليس تقبل شهادتك . وعن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إلیه بخمصة كانت علیه وأمره بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما یبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشتري جميع ذلك بشئ من الدنيا یسیر وقال رجل لجعفر بن محمد

(١) حدیث « یا أشجع إن فیک خصلتین یحبهما الله : الحلم والأناة ... الحدیث » متفق علیه (٢) حدیث : لمن الله یحب الحبی الحلیم الغنی المتعفف ... الحدیث » أخرجه الطبرانی من حدیث سعد « إن الله یحب العبد التقى الغنى الحفی (٣) حدیث ابن عباس « ثلاث من لم تسكن فيه واحدة منهم فلا تمتدوا بشئ من عمله » أخرجه أبو نعیم فی کتاب الإیماز بإسناد ضعیف والطبرانی من حدیث أم سلمة بإسناد لین وقد تقدم فی آداب الصیبة (٤) حدیث « إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس ... الحدیث » وفيه « إذا جهل علينا حملنا » أخرجه البيهقی فی شعب الإیمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقی فی إسناده ضعف .

إنه قد وقع بينى وبين قوم منازعة فى أمر وإنى أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لى : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد : كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأحنف بن قيس : لست بحليم ولكنى أنحلم . وقال وهب بن منبه : من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يغلب ، ومن يعجل يخطئ ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يعصم ، ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله ينجى ، ومن يستعين بالله يظفر . وقال مالك بن دينار : بلغنى أنك ذكرتني بسوء ، قال ، أنت إذن أكرم على من نفسى إنى إذا فعلت ذلك أهديت لك حسنا . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبئك سبا يدخل معك فى قبرك ، فقال : معك يدخل لامع . ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام يقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له : إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا ؟ فقال : كل ينفق بما عنده . وقال لقمان : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم - وكانت سيئة الخلق - فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم ، فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا فى منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا ؟ قال : نعم ، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة ؛ فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال : صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له فى ذلك فقال : أقتته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب . وقال محمود الوراق :

سالم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذى فوق فاعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن إجابته عرضى وإن لام لأثم
وأما الذى مثل فإن زل أو هفا تفصلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذى يحوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله ، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصى . وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه فى الفقه . وأما السب فلا يقال بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن امرؤ عيرك بما فىك فلا تعيره بما فيه »^(١) ، وقال « المستبان ما قاله فهو على البادئ مالم يعتد المظلوم » وقال « المستبان شيطانان يتهاوران »^(٢) « وشتم رجل أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ يذمه منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : إنك كنت ساكتا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال ، لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس فى مجلس فيه الشيطان »^(٣) ، وقال قوم : تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، وإمامنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « إن امرؤ عيرك بما فىك فلا تعيره بما فيه » أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم . وقد تقدم (٢) حديث المستبان شيطانان يتهاوران « تقدم (٣) حديث : شتم رجل أبا بكر رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ يذمه منه قام رسول الله عليه وسلم . أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلا ومرولا قال البخارى المرسل أصح .

عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيهه ، والأفضل تركه ولكنه لا يعصى به . والذي يرخص فيه أن تقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بني فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بني هذيل ؟ وقال ابن مسعود : وهل أنت إلا من بني أمية ؟ ومثل قوله : يا أحق ، قال مطرف : كل الناس أحق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض . وقال ابن عمر في حديث طويل : حتى ترى الناس كلهم حقي في ذات الله تعالى (١) وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل ؛ فقد آذاه بما ليس بكذب . وكذلك قوله ياسي الخلق ، يا صفيق الوجه يا أيليا للإعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، وأخزأك الله وانتقم منك .

فأما النيمة والغيبة والكذب وسب الوالدين لغرام بالاتفاق ، لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالدًا عند سعد ، فقال سعد : مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا . يعني أن يأثم بعضنا في بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب : ما روت عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت : يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة ، والنبي صلى الله عليه وسلم نائم ، فقال : يا بنية أنحين ما أحب ؟ قالت : نعم ، قال : فأحبي هذه ، فرجعت لأمهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ما أغنيت عنا شيئاً ؛ فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت : وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت : بنت أبي بكر وبنت أبي بكر ، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فأذن لي ، فسببتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلا إنها ابنة أبي بكر (٢) ، يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط وقولها : سببتها ، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : المستبان ما قاله فعل البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم (٣) ، فأثبت للمظلوم انتصار إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق . ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يحجره إلى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام . والناس في الغضب أربعة : فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخود ، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخود وهو الأحمد ما لم يلبثه إلى فورة الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخود وهذا هو شرهم . وفي الخبر : المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك (٤) ، وقال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . وقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطيء الغضب سريع النية ، ومنهم سريع الغضب سريع النية ؛ فتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطيء النية ، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع النية وشرهم السريع الغضب البطيء النية (٥) ، ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب

(١) حديث ابن عمر في حديث طويل « حتى ترى الناس كأنهم حقي في ذات الله عز وجل » تقدم في العلم (٢) حديث عائشة إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت : يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة . . . الحديث . رواه مسلم (٣) حديث « المستبان ما قاله فعل البادئ » الحديث . رواه مسلم وقد تقدم (٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى » تقدم (٥) حديث أبي سعيد الخدري « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات . . . الحديث » تقدم

أحدا في حال غضبه ، لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشغيا بغضه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحبه حظه نفسه ، فيذبغى أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لأنفسه . ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعززه فشمته السكران فرجع عمر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته ؟ قال : لأنه أغضبني ولو عززته لكان ذلك لغضبي لنفسي ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسي . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه : لولا أنك أغضبتني لعاقبتك .

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لم كظمه لعجز عن التشنق في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استئصاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : المؤمن ليس بحقد (١) ، فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد يشمر ثمانية أمور (الأول) الحسد : وهو أن يحملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه فتغتيم بنعمة إن أصابها وتسرم بصيية إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين . وسيأتى ذمه إن شاء الله تعالى . (الثاني) أن تريد على إضمار الحسد في الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء . (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له . (الخامس) أن تسكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه . (السابع) لإذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه . (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستنقله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له ، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ويحول بيدك وبين فضل عظيم وثواب جليل وإن كان لا يعرضك لعقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح - وكان قريبه - لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم ﴾ إلى قوله ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه (٢) .

والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين . فللمحقد ثلاثة أحوال عند القدرة (أحدها) أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل . (الثاني) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني : هو اختيار الصديقين ، والأول : هو منتهى درجات الصالحين ولندكر الآن فضيلة العفو والإحسان .

فضيلة العفو

(١) حديث « المؤمن ليس بحقد » تقدم في العلم (٢) حديث : لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم ﴾ الآية متفق عليه من حديث عائشة .

فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ؛
 فلذلك أفرده . قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وقال الله تعالى ﴿ وأن تعفوا
 أقرب للتقوى ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذي نفسى بيده لو كنت حلالاً لحلفت عليهن :
 ما نقص مال من صدقة فتصدقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ،
 ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد
 إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا بعزكم الله ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة
 فتصدقوا يرحمكم الله ^(٢) » وقالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة
 ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم في ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا
 اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ^(٣) » وقال عقبه « لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فابتدرته فأخذت بيده
 أو بدرني فأخذ بيدي فقال « يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطي من
 حرمك وتعفو عمن ظلمك ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أعز عليك ؟
 قال الذى إذا قدر عفا ^(٥) » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو إذا قدر فاعفوا بعزكم الله
 وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له
 بمظلمته ، فقال له صلى الله عليه وسلم « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة ^(٦) » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث : وقالت
 عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وهن أنس قال : قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحدين إن
 الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض ^(٧) » وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت
 وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادق الباب فقال « ماتقولون وما تظنون ؟ » فقالوا : نقول أخ وابن عم حليم رحيم
 - قالوا ذلك ثلاثاً - فقال صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال يوسف ﴿ لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
 الراحمين ﴾ »

(١) حديث « ثلاث والذي نفسى بيده أن كنت حلالاً لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال ... الحديث » أخرجه الترمذى من
 حديث أبي كبشة الأنمارى وسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا
 يرفعكم الله » أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف
 (٣) حديث عائشة : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ... الحديث » أخرجه الترمذى في
 التمهال وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عقبه بن عامر « يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟
 تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في معارج الألقاب والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم
 (٥) حديث : قال موسى يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال الذى إذا قدر عفا : أخرجه الخرائطى في معارج الألقاب من حديث
 أبي هريرة وفيه ابن أبي عمير (٦) حديث « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة » وفي أوله قصة روى ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من
 رواية أبي صالح الحنفى مسلاً (٧) حديث أنس : إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة
 أصوات : يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض : أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ في كتاب
 التبصرة والتذكير بلفظ « ينادى مناد من بطان العرش يوم القيامة : يا أمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لى قبلكم فقد وهبته
 لكم وبقيت التبعات فتواهبوا وادخلوا الجنة برحمتى » وإسناده ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ « نادى مناد يا أهل الجمع
 تباركوا المظالم بينكم وثوابكم على » وله من حديث أم مولى « ينادى مناد : يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب »

الراحمين ﴿١﴾ ، قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون ؟ قال : قلت يا رسول الله نقول خيراً ونظن خيراً أخ كريم وابن عم كريم وقد قدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ (٢) ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل ومن ذا الذى له على الله أجر ؟ قال : العافون عن الناس ، فيقوم كذا وكذا ألفاً فيدخلونها بغير حساب (٣) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفويحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصنعوا ﴾ الآية (٤) ، وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء : من أدى ديناً خفياً وقرأ في دبر كل صلاة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات وعفا عن قاتله ، قال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله قال : أو إحداهن (٥) .

الآثار : قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم : إذا أراد الله أن يتحف عبداً قيض له من يظلمه . ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه فقال له عمر : إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد افتتصتها . وقال يزيد بن ميسرة : إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك واجبنا عليك وإن شئت أخرتكم إلى يوم القيامة فيسعكم عفوى . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقرن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال : بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شيء فليقيم فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه وقال :

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها

ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها

إلا ليعرف حلها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر ، قال : فكنت عنده إذا أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر ، فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثاً سمعته

(١) حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة طاف بالبیت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادتي الباب فقال « ما تقولون ... الحديث » روى ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف (٢) حديث سهيل بن عمرو : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحوه : لم أجده (٣) حديث أنس : إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله ؟ قال : العافون عن الناس ... الحديث « أخرجه الطبراني في معارج الأئمة وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه (٤) حديث ابن مسعود : لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفويحب العفو ... الحديث « أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وتقدم في آداب الصحبة (٥) حديث جابر : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ... الحديث « أخرجه الطبراني في الأوسط في الدماء بسند ضعيف .

من الحسن ؟ قال : وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعون الداعي وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادى من له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا ، فقال : والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه ، فقال : خيلنا عنه . وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتياط حتى تتمكنكم الفرصة ، فإذا أمكنتمكم فعليكم بالصفح والإفضال . وروى أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب : رأيت ذا القرنين أكان نبياً ؟ فقال : لا ، ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد . وقال بعضهم : ليس الحليم من ظلم الحليم . حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا . وقال زياد : القدرة تذهب الحفيظة يعنى الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام : وتكلم أيضاً ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أفنجد الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاماً ؟ قال هشام : بلى ويحك تكلم . وروى أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له اقطعه فإنه من أعدائنا ، فقال بلل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدتها قد حلت فقال لقد جلست ولانها لمعى ، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها اللهم افعل به كذا ، فقال عبد الله : اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حمله جرامة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل : ما رأيت أزهده من رجل من أهل خراسان جلس إلى في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنائير كانت معه فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا ، ولكن مثلتنى وإياه بين يدي الله عز وجل فأشرف عني على لإحاض حجته فبكأتى رحمة له ؟ وقال مالك بن دينار : أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلاً وهو على البصرة أمير . وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فاكنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج ، فذكر الحسن قصه يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم لإياه وطرحهم له في الجب فقال : باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم ، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ثم قال : أيها الأمير ماذا صنع الله به ؟ أذاله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض ، فإذا صنع حين اكمل له أمره وجمع له أهله ؟ ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه . قال الحكم فأنا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبى هذا لو اريتكم تحتته . وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه : فلان هارب من زلته إلى عفوك لائذ منك بك . واعلم أنه إن يرداد الذنب عظماً إلا ازداد العفو فضلاً . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة . ما ترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم . وروى أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج فأفكته منه فأخذ أخاه فقال له . إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك ، فقال . رأيت إن جئت بك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى ؟ قال نعم قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فقال زياد خلوا سبيله ، هذا رجل قد لقن حجته ، وقيل مكتوب في الإنجيل . من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان .

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة . والرفق واللين نتيجة حسن

الحق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاؤه بحسب يدش عن التفكير وينع من التثبت فالرفق في الأمور ثمرة لا يشمرها إلا حسن الخلق ، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالح في فقال : يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى ^(٣) وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة ارفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من يحرم الرفق يحرم الخير كله ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أيما وال ولي فرفق ولا رفق الله تعالى به يوم القيامة ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : تدررون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرفق يمن والخرق شؤم ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : التاني من الله والعجلة من الشيطان ^(١٠) ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يا رسول الله : إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصني منك بخير فقال : الحمد لله ، مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال : هل أنت مستوص ؟ مرتين أو ثلاثاً قال : نعم . قال : وإن أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فانته ^(١١) ، وعن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه ^(١٢) ،

الآثار . بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عمله فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه

فضيلة الرفق

(١) حديث « يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ... الحديث » رواه أحمد والعليل في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضمة من القاسم عن عائشة . وفي الصحيحين من حديثها « يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمور كله » (٢) حديث « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة (٣) حديث « إن الله ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف (٤) حديث « إن الله رفيق يحب الرفق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٥) حديث « يا عائشة ارفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق » أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأن داود « يا عائشة ارفقي » (٦) حديث « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله « كله » فهي عند أبي داود (٧) حديث « أيما وال ولي فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه « ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » (٨) حديث « تدررون على من يحرم النار على كل هين لين سهل قريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصعبة (٩) حديث « الرفق يمن والخرق شؤم » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف (١٠) حديث « التاني من الله والعجلة من الشيطان » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ « الأناة من الله » وقد تقدم (١١) حديث : أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ... الحديث وفيه « فإذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه . . . الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق من حديث أبي جعفر هو المسمى بهد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جداً ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده « إذا همت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته » وإسناده ضعيف .

(١٢) حديث عائشة « عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ... الحديث » رواه مسلم (٢٤ — إحياء علوم الدين — ٣)

قام لحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقاً النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقاً فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه ، ليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرجه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهره يرزق العافية ممن هو دونه . وقال وهب بن منبه : الرفق ثنى الحلم .

وفي الخبر موقوفاً ومرفوعاً : العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده ^(١) . وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله . ما الرفق ؟ قال : تكون ذا أناة فتلاين الولاية . قال فما الخرق ؟ قال : معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه : تدرون ما الرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور من مواضعها ؛ الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والوسط في موضعه ؛ وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والغلظة بالرفق كما قيل .

ووضع الندى في موضع السيف بالعملا مضر كوضع السيف في موضع الندى فالحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر ، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسناً كما أن الرفق في محله حسن ، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو الذم الزبد بالشهد وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأنى فكتب إليه معاوية . أما بعد ، فإن الفهم في الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الجانب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً ، وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئاً ، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي . وعن أبي عون الانصاري قال : ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفي : لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه فإن مع كل إنسان شيطاناً . واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن : المؤمن وقاف متأن وليس تكاطب ليل . هذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الدور ، ولما اكتمل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجاح معه في الأكثر ؛

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغايه الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة : قال رسول الله صلى الله

(١) حديث « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه الفضاعي في مسند المهذب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاما ضعيف .

عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تبادروا وكونوا عباد الله إخوانا »^(٢) ، وقال أنس : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم ، فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له . إني لأحيت أبي فأقسمت أن لأدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث ففعلت ، فقال « نعم » فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم لصلاة الفجر ، قال : غير أني مسمعتة يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكسدت أن أحقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالخروج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ؛ وإذا ظننت فلا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ^(٤) » ، وفي رواية « ثلاث لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن ، فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفسوا السلام بينكم^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنه سيصيب أمتي داء الأمم » قالوا . وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم المهرج^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تظهر الشimate لأخيك فيعافيه الله ويبتلي^(٨) » ، وروى أن موسى عليك السلام لما تعجل إلى ربه تعالى

القول في ذم الحسد

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « لا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تبادروا وكونوا عباد الله إخوانا » الحديث « متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث أنس : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » الحديث « بطله » وفيه : أن ذلك الرجل قال لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له سعداً وفيها ابن لهيعة (٤) حديث « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطمع والحسد الحديث » وفي رواية « وقل من ينجو منهن أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزمري وموسى بن يعقوب الرمي ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف والطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم في آفات اللسان (٥) حديث « دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ... الحديث أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير (٦) حديث « كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر » أخرجه أبو مسلم السكفي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ « كاد الحاجة أن تكون كفراً » وفيه ضعف أيضاً (٧) حديث « إنه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم » قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٨) حديث « لا تظهر الشimate لأخيك فيعافيه الله ويبتلي » أخرجه الترمذي من حديث وثابة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا فبرحه الله .

رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه فقال : إن هذا الكريم على ربه ، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله ثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ، ولا يمشى بالثيعة . وقال زكريا عليه السلام : قال الله تعالى : الحاسد عدو لنعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي . وقال صلى الله عليه وسلم : أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : استعينوا على قضاء الحوائج بالسكتان فإن كل ذي نعمة محسود ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن لنعم الله أعداء ، فقيل : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة ، قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : الأمراء بالجور والعرب بالعصية واليهود بالهناقين بالتكبر والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد ^(٤) .

الآثار ، قال بعض السلف : أول خطيئة هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية . وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال : إني أريد أن أعظك بشيء فقال : وما هو ؟ قال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به ، ثم قرأ ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ ﴿ اهبطوا منها ﴾ إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنه قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ ، الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكر القدر فاسكت ، وإذا ذكرت النجوم فاسكت . وقال بكر بن عبد الله : كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بجذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيك إساءته ، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بجذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال : تدعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر ، فقال له : انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بجذاء الملك على عادته فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيك إساءته ، فقال له الملك : أدن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ؟ قال : وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واحش جلدَه تبنًا وابعث به إلى فأخذ الكتاب وخرج فلقية الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة ، فقال : هبه لي !

(١) حديث « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد « إن ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولهما من حديث عمرو بن عوف البدرى « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا . الحديث » وسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا فتحت عليكم فارس والروم . الحديث » وفيه يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث . ولأحمد والبراز من حديث عمر « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألبى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » (٢) حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بالسكتان فإن كل ذي نعمة محسود » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بن عبد الله بن مسعود . (٣) حديث « إن لنعم الله أعداء » قيل ومن أولئك ؟ قال « الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم » (٤) حديث « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قيل يا رسول الله ومن هم ؟ قال « الأمراء بالجور ... الحديث » وفيه « والعلماء بالحسد » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بن مالك .

فقال : هو لك ، فأخذه ومضى به إلى العامل : فقال العامل : في كتابك أن أذبحك وأسلحك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي فآله الله في أمرى حتى تراجع الملك ؛ فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة ، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله ؛ فمجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له ، قال له الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ؟ قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفى المسىء لسأته . وقال ابن سيرين رحمه الله : ما أحسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حفيرة في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ؟ وقال رجل للحسن : هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ؟ نعم ، ولكن غمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده أو قال معاوية : كل الناس أقدر على رضا إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إِمَاتِهَا إِلَّا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقي . وقال أعرابي : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه . وقال الحسن : يا ابن آدم لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمه وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا ، ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما ، ولا ينال عند النزاع إلا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن النعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حرج في الاسمي بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْطِ الْمُنَافِقَ بِحَسَدٍ ^(١) » .

فأما الأول فهو حرام بكل حال ، إلا لنعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها ، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة ، وأي معصية تزيد على كراهتك

بيان حقيقة الحسد وحكمه

(١) حديث « المؤمن يغط والمنافق يحسد » لم أجده له أصلا مرفوعا ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد .

لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله ﴿ إن تمسكتم حسنة نسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا الفرح شمانة والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل ﴿ ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ﴾ وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فلما كرهوا حب أبيهم له وساء لهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيروه عنه وقال تعالى ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أى لا تضيق صدورهم به ولا يفتخرون فأثني عليهم بعدم الحسد . وقال تعالى في معرض الإنكار ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ قيل في التفسير : حسدا . وقال تعالى ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذى وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذى تنزله إلا ما نصرتنا ^(١) . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ إلى قوله ﴿ أن يكفروا بما أنزل الله بغياً ﴾ أى حسدا . وقالت صفية بنت حيى للنبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبى وعمى من عندك يوماً ، فقال أبى لعمى : مات قول فيه ؟ قال : أقول إنه النبي الذى بشر به موسى . قال : فما ترى ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة ^(٢) فهذا حكم الحسد فى التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هى إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة - قال لعمى حين قال لهما : لا تنذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليهما - فقالا له : ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فأنفسنا ذلك عليك ^(٣) أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة .

والمنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة . والذى يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاها ؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاة بمنزلة لا يحظى هو بها ،

(١) حديث ابن عباس : قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا : نسألك بالنبي الذى وعدتنا أن ترسله . . الحديث : فى نزول قوله تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أخرجه ابن اسحاق فى السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروه نحوه وهو منقطع . (٢) حديث : قالت صفية بنت حيى للنبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبى وعمى من عندك يوماً فقال أبى لعمى : مات قول فيه ؟ قال أقول لأنه النبي الذى بشر به موسى . الحديث . أخرجه ابن اسحاق فى السيرة قال حدثنى أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً .

(٣) حديث قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قال لعمى . . الحديث . هكذا وقع للمصنف أنه قثم والفضل وإنما هو الفضل والمطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لوبعثنا هذين النملين قال لى والفضل بن عباس اثنيا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلناه ؟ فذكر الحديث .

فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما فهو يعمل به ويعلمه الناس ^(١) » ، ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال : « مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء - وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال - ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معاصي الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء ^(٢) » ، فذمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة تمنية للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله . فإذا لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة ، وهو أن يجب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يجب ذلك فيكون راضيا بالمعصية وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كالإنفاق الأموال في المسكرم والصدقات والمنافسة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته والحق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المتعم عليه ، والآخر . ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل وبناقض الزهد والتوكل والرضا ويوجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان . وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يجب زوال النقصان ، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا انسدت أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره ، وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسمى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما ، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعني عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ، ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ^(٣) » ثم قال وله منهن مخرج : « إذا حسدت فلا تبغ ، أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعيد أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة ؛ إذ يجد لاحالة ترجيحها له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر ، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الإيمان رزين التقوى . ومهما كان محتركا خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد

(١) حديث « لا حسد إلا في اثنتين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمرو وقد تقدم في العلم (٢) حديث أبي كبشة : مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا ... الحديث » رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .
(٣) حديث « ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ... الحديث » تقدم غير مرة .

الدنيا ، ولكن يعنى عنه فى ذلك مالم يعمل به إن شاء الله تعالى ، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه هى حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الخبث . (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فى تلك النعمة ، مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها . (الثالثة) أن لا يشتهى عينها لنفسه بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . (الرابعة) أن يشتهى لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعصية عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة حسدا فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة ، فإن كان ذلك أمرا دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته ، وإن كان دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإنما نظرنا الآن فى الحسد المذموم ومدخله كثيرة جداً ، ولكن يحصر جملة سبعة أبواب : العداوة ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه ، أو لى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتعزز . وإما أن يكون فى طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيم فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته فى أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التى تفنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . ولابد من شرح هذه الأسباب .

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وعالفه فى غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشنى والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظن أنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساء ذلك لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه . وبالجمله فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقي أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى ﴿ وإذا لقوكم فآلوا آمناً وإذا خلوا عضوا عليكم إلا نامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

السبب الثاني : التعزز ؛ وهو أن يشغل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علواً أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد رضى بمساواته مثلاً ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه .

السبب الرابع : التعجب ، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا ﴿ ما أنتم إلا بشر مثنا ﴾ ﴿ وقالوا أنؤمن لبشرين مثنا ﴾ ﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأنكم لإذاً لخاسرون ﴾ فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحى والقرب من الله تعالى بشر مثلكم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلكم في الخلقة ، لآعن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أوسبب آخر من سائر الاسباب ، وقالوا متعجبين ﴿ أبعث الله بشراً رسولا ﴾ وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ وقال تعالى ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ الآية .

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود . وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستغفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر

(١) حديث : سبب نزول قوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ذكره ابن اسحاق في الميرة ، وابن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال : أنزل على محمد وأترك وأما كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عبد الثقفي سيد تميم فنحن عظماء القريتين ، فأمر الله فيما بلغني هذه الآية . ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنها قالها مسعود بن عمرو ، وفي رواية لابن مردويه حبيب بن عبد الثقفي وهو ضعيف .

وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظيره في أقصى العالم لسأله ذلك وأحب موته أوزوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرد ، وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود يشكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ عليهم .

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع في إلزائها ، وهذا خبث في الجبلة لاعت سبب عارض فتحسر لإزالتها إذ يستحيل في العادة إلزائه . فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أجمعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة . وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ، وقلما يتجرد سبب واحد منها .

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقربان والإخوة وبنى العم والأقارب

وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

لعل أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتظاهر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عذر ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض ، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحققه ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وترادف جملة من هذه الأسباب ، إذ لارابطة بين شخصين في بلدين متباعدتين فلا يكون بينهما محاسدة ، وكذلك في محلتين ، نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتنافض فيها أغراضهما ، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ، ومنه تنويع أسباب الحسد ، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، يل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد زوجها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته . لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتراحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينزاع فيه بزاز آخر ؛ إذ حريف البزاز لا يطلبه

الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق ، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر . وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقير والطبيب ، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص . فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعين بل متناسين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد عن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين : أما الآخرة فلا ضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوته سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين . بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذبه ، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأناس وثمرة الاستفادة والإفادة . فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً ، فيما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأناس بكثرتهم . نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام وإذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة : فيكون ذلك سبباً للمحاسدة ، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره به وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه ، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يملكه غيره ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه ، فن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوته أرضه وسمائه صار ذلك ألد عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعاً ولا مزاحماً فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء في مطابقة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة ، فإن نعيم العارف وجمته معرفته التي هي صفة ذاته ، يأمن زوالها وهو أبداً يحظى ثمارها فهو بروحه وقلبه معتد بفاكهة علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دائية ، فهو وإن غبض العين الظاهرة فروحاً أبداً ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة ، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا ، فإذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبي ؟ فإذا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محاسدة ، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً ، فأهل الجنة بالضرورة برءاء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً ، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين ، ولذلك وسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتهاد ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى . فقد عرفت أنه لا حسد إلا للثوار دعى لمقصود

يضيق عن الوفاء بالكل . ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التى هى جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها توازن ولا تحاسد أصلا . فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطالب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ؟ ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك فى الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً . فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت فى ذلك معذور ؛ إذ العنين لا يشاق إلى لذة الواقع ، والصبي لا يشاق إلى لذة الملك ، فإن هذه لذات يختص بادراكها الرجال دون الصبيان والمختفين . فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها الرجال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشقى ، ومن لم يشقى لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيص له شيطاناً فهو له قرين ﴾ .

بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصدىق عدوك فارت الحسد لا محالة . أما كونه ضرراً عليك فى الدين فهو أنك بالحسد سخط قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده ، وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكيمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدة التوحيد وقذى فى عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه فى حبه الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار فى محبتهم للمؤمنين البلىا وزوال النعم . وهذه خبائث فى القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يمحو الليل النهار . وأما كونه ضرراً عليك فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال فى كمد وغم إذ أعدائك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتجنزت فى الحال محنتك وغمك نقداً ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك . ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساوته مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العذاب الشديد فى الآخرة ؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة ؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه فلا حيلة فى دفعه ، بل كل شئ عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكنا من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه : فتر من قدامها حتى تنقضى أيامها أى ما قدرناه فى الأزل لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتى تنقضى المدة التى سبق القضاء بدوام إقبالها فيها . ومهما

لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا ولا يكون عليه لائم فى الآخرة ، ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدوك يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كافرين ﴾ . فمن اشتبهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم . وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخالق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة ، فإن كل واحد من حق الحساد أيضا يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها .

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح . أما منفعته فى الدين : فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيا إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذ ثر مساويه ، فهذه هدايات تهديها إليه ؛ أعنى أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة ، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته فى الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ، ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتتظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسدا . ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خسلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بنعمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده ، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فى الدنيا والآخرة . وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا فى الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك عنك عاف أن تحب ذلك له فتشاركه فى الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير ، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر فى الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك ، يخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فيهضنه إليك حتى لا تلحقه بحبك كالم تلحقه بعملك .

وقد قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يالحق بهم فقال النبي صلى الله

عليه وسلم « المرء مع من أحب »^(١) ، وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحطّ به فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال « ما أعددت لها ؟ » قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا إني أحب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم « أنت مع من أحببت »^(٢) ، قال أنس : فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس : فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم . وقال أبو موسى : قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويحب الصوام ولا يصوم ، حتى عد أشياء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هو مع من أحب »^(٣) ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما ، فإن لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم ، فقال : سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أئمت ، وكيف لاوعسك تحسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم وأي إثم يريد على ذلك ؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والسكاف عنه »^(٤) ، أي من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك ، بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته البني فيقلعها ، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظة فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه ، بل حاله في الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة . والحسد يعود بالإثم والإثم لا يفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار ، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لhib النار . فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن الحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد ؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والسكند نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ وربما يبتلى بعين ما يشتهي لعدوه ، وقبلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها : ماتت لعمري شيئا إلا نزل بي ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت . فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يحق إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشني من الأعداء ؟ وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة .

فهذه هي الأدوية العلوية فهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه ، وعلم

(١) حديث : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : سؤال الأعرابي متى الساعة ؟ فقال « ما أعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث

أبي موسى : قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ... الحديث « وفيه » هو مع من أحب » متفق عليه من حديث بلال . آخر مختصرا : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال « المرء مع من أحب » (٤) حديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والسكاف عنه » لم أجده أصلا

أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنهض عيشه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه ، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الإلزام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإلزام عليه ، فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويستترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً : طبعاً آخرًا ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت وأثبتت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل الجمالة تكلفاً كانت أو طبعاً - تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباعد . فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء المر . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ؛ وإنما تهون سرارة هذا الدواء ، أعنى التواضع للأعداء والتقرب إليهم ، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه . وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد أو بقاء المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الدل إلا بأحد أمرين : إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني : فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلى .

فأما الدواء المفصل : فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني - وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى - فإنها مواد هذا المرض ولا ينقم المرض إلا بقمع المادة ، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده ، فإنه مادام محباً للجاء فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاء والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويغمه ذلك لا محالة ، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق .

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذى محقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً ، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوى ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسبك ، وإن كفت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال الله تعالى ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ وقال ﴿ إن تمسكم حسنة تسؤم ﴾ أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن

الحسد وليس هو عين الحسد ، بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كفت ظاهرك وأزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تتمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أدبت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرجه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد يذهب أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ، ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله ، ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته - أعنى الشيطان - فإنه يتنازع بالوسوسة . فهما قابل ذلك بكراهته والزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأتيهم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده . وروى عنه موقوفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج ، فخرجه من الحسد أن لا يبغي ، والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ما ورد من الإخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال . فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذا كان كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد ، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ، إذ يبعد أن يعنى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال ، أحدها : أن تحب مسأمتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه قطعا لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثاني : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمسأته إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحذور قطعا .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ، وهذا في محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه . والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتنا . وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدا وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعملوا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجهاها ، ولها أسرار سوء فبأشنع تهلك الراغبين في وصلها ، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحه بإقبالها ، وإذا أقبات لم يؤمن شرها ووبالها ، إن أحسنت ساعة أساءت سنة . وإن أساءت مرة جعلتها سنة ، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بذلها خاسرة باثرة ، وآفاتنا على التوالي لصدور طلابها راشقة ، ومجاري أحوالها بذل طالبها ناطقة . فكل مغرور بها إلى الدل مصيره . وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها والطلب لها ربها ، ومن خدمها فاته ، ومن أعرض عنها واته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة ، طيارة فرارة ، لا تزال تزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها ، وشوشت عليهم مناظم أسبابها ؛ وكشفت لهم عن مكثون عجائبها ، فإذا قتم قوائل سمائها ؛ ورشقتهم بصوائب سهامها . بينما أصحابها منها في سرور وإنعام إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام . ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملكك واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا وتعدم غرورا حتى يأملون كثيرا ويبنون قصورا . فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا . وسعيهم هباء منثورا ودعائهم ثبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا . وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله وعدوة لأوليائه الله وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها . وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل : فانها تزينت لهم بريئتها وعتمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها . وأما عداوتها لأعداء الله : فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكاتها حتى وثقوا بها . وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها . فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد . ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد . فهم على فراقها يتحسرون ومن مكابدها يستغيثون ولا يفتأون . بل يقال لهم ﴿ اخشوا فيها ولا تكلمون - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ .

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هي ؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم

الدنيا وأمثلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى . وهو المعين على ما يرتضيه .

بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر على شاة ميتة فقال « أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها ألقوها . قال : والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسق كافرا منها شربة ماء ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ^(٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » ^(٣) وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب دنياه أضرب آخرته ومن أحب آخرته أضرب دنياه فأثروا ما يبق على ما يفنى » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه تعالى وآله وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ^(٥) ، وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بهاء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت : ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرُونَ على مسألته قال : ثم مسح عينيه فقالوا : يا خليفة رسول الله ما أبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيتَه يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا ؛ فقلت يارسول الله ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال ، هذه الدنيا مثلت لى فقلت لها : إليك عنى ثم رجعت فقالت : إنك إن أفلت منى لم يفلت منى من بعدك ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا عجباً كل العجب المصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » ^(٧) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال « هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال : هذه الدنيا ^(٨) ، وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق وأن الأجسام التى ترى بها تصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بنى إسرائيل لما

كتاب ذم الدنيا

(١) حديث : مر على شاة ميتة فقال « أترون هذه الشاة هينة على صاحبها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذى وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ، ولمسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد « إلا ذكر الله وما والاها وعالم ومتعلم » (٤) حديث أبي موسى الأشعري « من أحب دنياه أضرب آخرته . الحديث » أخرجه أحمد والبخاري والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه (٥) حديث « حب الدنيا رأس كل خطيئة » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقى في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا .

(٦) حديث زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر فدعا بمراب فأتى بهاء وعسل فلما أدناه من فيه بكى ... الحديث . وفيه : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيتَه يدفع عن نفسه شيئا ... الحديث . أخرجه البخاري بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصححه إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقى من طريقه بلفظه (٧) حديث « يا عجباً كل العجب المصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلا (٨) حديث : إنه وقف على مزبلة فقال « هلموا إلى الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقى في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميثون اللخمي مرسلا ، وفيه بقية بن الوليد وقد عنفنه وهو مدلس .

بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب ^(١) ، وقال عيسى عليه السلام : لاتتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامعشر الحواريين إني قد كبت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدى فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لاتدرك إلا بتركها ، ألافاعبرواالدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا . وقال أيضا : بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينزعكم فيها الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تنازعهم الدنيا فإنهم ان يعرضوا لكم ماتركتموهم ودينهم ، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا : الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يموت فيأخذ بعنفه . وقال موسى ابن يسار : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » ^(٢) ، وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والإانس عن يمينه وشماله قال : فر بعباد من بنى إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، فإن ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « أهلكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ؟ » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له ، وعليها يعادى من لاعلم له ، وعليها يحسد من لافقه له ، ولها يسعى من لايقين له » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شيء وألزم الله قلبه أربع خصال : هما لاينقطع عنه أبدا ، وشغلا لايتفرغ منه أبدا ، وفقرا لايلبغ غناه أبدا ، وأملا لايلبغ منهأه أبدا » ^(٥) وقال أبوهريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياأباهريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ، فقلت : بل يارسول الله ، فأخذ بيده وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رموس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال « ياأباهريرة هذهالرموس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هى اليوم عظام بلاجلد ثم هى صائرة رمادا ، وهذهالعذراتهى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يذئجون عليها أطراف البلاد ؟ فن كان باكياعلى الدنيا فليبك » قال : فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا ^(٦) وروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب وللدلفناء.

(١) حديث « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله « إن بنى إسرائيل ... الخ » والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن سرسلا بالزيادة التى فى آخره . (٢) حديث موسى بن يسار « إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » أخرجه ابن أبى الدنيا من هذا الوجه بلاغا وللبهيقى فى الشعب من طريقه وهو سرسل . (٣) حديث « أهلكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير . (٤) حديث « الدنيا دار من لادار له ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله « ولها يجمع من لاعقل له » دون بقية وزاد ابن أبى الدنيا والبيهقى فى طريقه « ومال من لامال له » وإسناده جيد . (٥) حديث « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شيء وألزم الله قلبه أربع خصال ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله « وألزم الله قلبه ... الخ » وكذلك رواه ابن أبى الدنيا من حديث أسس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة مفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمرو كلاهما ضعيف . (٦) حديث أبى هريرة « ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها » قلت : بل يارسول الله فأخذ بيده وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة ... الحديث لم أجد له أصلا

وقال داود بن هلال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام : يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وترينت لهم ، إنى قدفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقاً أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ولا يدوم لك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم ما لهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض ، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصيباً فيقول اسكني يا لاشيء إنى لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم^(١) ، وروى في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نهى عن أكلها ، قال فجعل يدور في الجنة ، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له : قل له أى شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى ، فقيل للملك : قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم : ليحيين أقيام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار قالوا يا رسول الله مصلين ؟ قال : نعم كانوا يصلون ويصومون يأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ؟ فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأتم خلقتم للآخرة ، والذي نفسى بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار^(٣) . وقال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . قيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتاً يكنك : قال : يكفيني خلقان من كان قبلنا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت^(٤) . وعن الحسن : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال : هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً : ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم ، وهدى بغير هداية : ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ؛ ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقاً^(٥) . وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد

(١) حديث « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها . . . الحديث » تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسل ولم أجده بآية . (٢) حديث « ليحيين أقيام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً . (٣) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى . . . الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع . (٤) حديث « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الرهاوى مرسل ، وقال البيهقي إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة قال قال النبي لا يدري من أبو الدرداء قال وهكذا منكراً لأصل له . (٥) حديث الحسن « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسل وفيه إبراهيم بن الأشعث تسكلم فيه أبو حاتم .

والبرق يوما لجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمه من بعيد فأثابها فإذا فيها امرأة لحاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل فأثابه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه : مأواك في مستقر رحتي لأزواجك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي ولا طعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتغرم ويأمنها ، ويشق بها ويتخذله ، ويل للمغتربين كيف أرتم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون ؟ وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى مالك ولدان الظالمين إنما ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي ، يا موسى إنني مرصد للظالم حتى آخذ منهم للظلم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين ؛ فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأيهم ثم قال « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء » ، قالوا : أجل يا رسول الله ، قال « فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكهم »^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، فقليل ما بركات الأرض ؟ قال « زهرة الدنيا »^(٢) . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا »^(٣) ، فنهى عن ذكرها فضلا عن إصابتها . وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موت في الآفنية والطرق ، فقال : يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطه ولوماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم . فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم يحييوك ، فلما كان الليل أشرف على نشر ثم نادى : يا أهل القرية فأجابه مجيب ليبيك يا روح الله ! فقال : ما حالكم وما قصتكم ؟ قال : بتنا في عافية وأصبحتنا في الهاوية ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم يحييوني ؟ قال لأنهم ملجئون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد ، قال : فكيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال : لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنا معلق على شفيع جهنم لأدري أنجوا منها أم أكبكب فيها ؟ فقال المسيح للحواريين : لا كل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة . وقال أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعضباء لا تسبق لجاء أعرابي بناقة له فسبقتها ، فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وآله وسلم « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه »^(٤) ، وقال عيسى عليه السلام : من الذي يبني على موج البحر دارا ؟ تلكم الدنيا فلا

(١) حديث : بعث أبا عبيدة بن الجراح بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة . متفق عليه من حديث عمرو ابن عوف البصري (٢) حديث أبي سعيد « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن أنضر الحارثي مرسل (٤) حديث أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعضباء لا تسبق . وفيه « حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه » أخرجه البخاري .

تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام : علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه ، قال : ابغضوا الدنيا يحبك الله تعالى . وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانتم عليكم الدنيا ولأترتم الآخرة ^(١) ، ثم قال أبو الدرداء - من قبل نفسه - لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتكم أموالكم لأحارس لها ولا تراجع إليها إلا مالا بد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرت كالأذن لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة بما في عاقبتها ، مالكم لا تحابون ولا تناصون وأنتم إخوان على دين الله مافرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم ، مالكم تناصون في أمر الدنيا ولا تناصون في أمر الآخرة ؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لأترتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموالكم . فإن قلتم : حب العاجلة غالب ؟ فإننا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للأجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلمكم لا تدركونه ، فبئس القوم أنتم ما حققتم لإيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم ! فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأتونا لنبين لكم ولنريك من النور ما تطمئن إليه قلوبكم ! والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذرکم لأنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم ، مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب وتقيمونها فيها المآثم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم ، إني لأرى الله قد تبرأ منكم ياتى بعضكم بعضاً بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم ، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتمكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحوارين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا . وفي معناه قيل :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنيهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : ياطالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب ^(٢) ، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى لا تركن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي ، فقال موسى : يارب عبدك يبكي من مخافتك فقال : يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال على رضى الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً ؛ أولها : من

(١) حديث أبي الدرداء : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانتم عليكم الدنيا ولأترتم الآخرة » أخرجه الطبراني دون قوله « ولهانتم ... الخ » وزاد « ولخرجتم إلى الصعدات ... الحديث . وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر « وما تلذذتم بالنساء على الفرش » وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخارى من حديث عائشة

(٢) حديث « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب » لم أجده له أصلا .

عرف الله وأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبه ، وعرف الباطل فانتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدّوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله : من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتسكن سفينتك فيه تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل : طالبت فكرت في هذه الآية ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا حرزا ﴾ وقال بعض الحكماء : إنك إن تصبّح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغدا يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ويمحّده الآمال ويقرب المنيّة ويبعد الآمنية . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل ، إمامنة زائلة أو منية قاضية . وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لابن حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار ، فقال : انظر ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه . ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لآعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئا فيجىء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خرف يبق ؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خرفا يبق على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خرفا يفنى على ذهب يبق ؟ وقال أبو حازم : إياكم والدنيا فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظما الدنيا فيقال : هذا عظم ما حقره الله . وقال ابن مسعود : ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله طارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة . وفي ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال :

نرفع دنيانا بتعزيق ديننا فلا ديننا يبق ولا ما نرفع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياء لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهتما
وقيل أيضاً في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يا بني بع دنياك بآخرتك ترجحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً . وقال مطرف
ابن الشخير : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك وابن رياشهم ، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم . وقال
ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالؤمن يتزود ،
والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشره الكلاب .
وفي ذلك قيل :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تختطب غدارة قريبة العرس من المسائم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وفي ذلك قيل :
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عذوق في ثياب صديق
وقيل أيضاً :

ياراقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة كر الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملا ك قد كان في الدهر نفاعا وضرارا
يامن يعانق دنيا لا بقاء لها يمسى ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه : لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث
نبي وأخرجت أمة ، قال : يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم ، قال : لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الاوثان ،
ولئما أغدو عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشركه
من هذا تبع . وقال رجل لعلي كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ، قال : وما أصف لك من دار من
صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها
العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقيل : قصر فقال : حلالها حساب ،
وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا . وقال أبو سليمان
الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها ، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الآخرة
كريمة والدنيا لثيمة . وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة
يحتسمان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له . وقال مالك بن دينار : بقدر ماتحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من
قلبك ، وبقدر ماتحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا

والآخرة ضرطان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت ، ذهب إلى ذا أو ذهب إلى ذا ؟ وقال رجل للحسن : ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه ، أحسن له أن يتعيش فيه ؟ - يعني يتنعم - فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بخذا فبرها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أنقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه وقيل : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على الناقة مخضومة بحبل ، فسلم وسأله ، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه : لو اتخذت متاعا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقييل . وقال سفيان : خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك . وقال الحسن : والله لقد عبت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا . وقال وهب : قرأت في بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجاهل لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال نعيم لابنه : يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغنون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر . وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ، والله ما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له ^(١) وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فلا تغزونكم الحياة الدنيا ﴾ من قال ذا ؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها ، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الاشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيبته في دينه ويحزع من مصيبته في دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : سلام عليك ، أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات . فأجابه عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم . عجب لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح ؟ وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ؟ وعجبا لمن رأى قلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب ؟ وأقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء وسنيات رخاء ، يوم فيوم وليلة فليقة يولدولد ويهلك هالك ، فلول المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له : سل ما شئت ، قال : عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه ، قال : لأملك ذلك ، قال : لا حاجة لي إليك . وقال داود الطائي رحمه الله : يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كان منفعتك لغيرك . وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الغنى ، فقال : إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا . وقال أبو سليمان . لا يصبر

(١) حديث عمرو بن العاص : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ... الحديث ، أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .
(٢٧ — لحياء علوم الدين — ٣)

عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال مالك بن دينار : اصطلاحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعري أى عذاب الله ينزل علينا ؟ وقال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة ، وقال الحسن . أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهناً منها لمن أهانها . وقال أيضاً : إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك ، فإذا نفذ أعاد عليه ، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً . وكان بعضهم يقول في دعائه : يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني . وقال محمد بن المنكدر : أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد في سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم في عينه ما صغره الله ، وصغرى عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله ؟ فن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا ؟ وقال أبو حازم : اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً ، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالي تنادى ربه منذ خلقها إلى يوم يفنيها . يارب يارب لم تبعضني ؟ فيقول لها : اسكتي يا لاشيء . وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته ، فتي يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه : من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب عليه هواء فهو الغالب . وقيل لبشر : مات فلان فقال : جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، ضيع نفسه قيل له : إنه كان يفعل ويفعل - وذكروا أبواباً من البر - فقال : وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟ وقال بعضهم : الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نجبها فكيف لو تحببت إلينا ؟ وقيل لحكيم : الدنيا لمن هي قال : لمن تركها ؟ فقيل الآخرة لمن هي ؟ قال : لمن طلبها وقال حكيم : الدنيا دار خراب وأخرى منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأعرس منها قلب من يطلبها . وقال الجنيد : كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا ، وعظ أخاه في الله وخوفه بالله فقال : يا أخي إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارضى برزق الله لا تسلف من دار بقائك إلى دار فنائك ، فإن عيشتك في زائل ودار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك . وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة . فقال دينار في اليقظة فقال : كذبت ، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام ، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة . وعن إسماعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إلبك عنا يا خنزيرة ، فلو وجدوا لها أسماء أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب : لتحبين إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبني قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه . وقال أيضاً : الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كطفيء النار بالنار . وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان . وقال أيضاً : من أقبل على الدنيا أحرقتة نيرانها - يعني الحرص - حتى يصير رماداً ، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب يلتفتع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقتة نيران التوحيد فصار جوهر أ لا حد لقيمه . وقال على كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب

ومنكوح ومشوم ، فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال ، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها ، وأشرف المشعومات المسك وهو دم

بيان الموعظ في ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغفروا بالآمل ونسيان الآجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرف لكم بغورها وفتنتكم بأمانها ، وتزيّن لخطاياها فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكيها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان غليل أو مدنف ثقیل ، فهل على الدواء من دليل ، وهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطق ، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فأنقطع عزادك واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتتها بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بدم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبائه ، فالدنيا أحق بالدم ، هي الآخذة مانعة ، الراجعة فيما تهب ، بينا هي تضحك صاحبها إذ أضحك منه غيره ، وبيننا تبكى له إذ أبكت عليه ، وبيننا هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعقره بالتراب غدا ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى ، تجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، ولأنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة ، فاحذر يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها . والغنى منها فقرها . لها في كل حين قتيل . تذلل من أعزها . وتفقر من جمعها . هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه . فكن فيها كالمدأوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يسكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التي قد تزيّن بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوّفت بخطاياها . فأصبحت كالعروس المجلية . العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لازواجها كلهم قالية . فلا الباقي بالماضى معتبر ولا الآخر بالآقول مزدرج . ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر . فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه ، فعظمت ندامته وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغضته . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد وقدم

على غير مهاد ، فاحذر ها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، السار في أهلها غار ، والتافع فيها غدار ضار ، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء ، فسروها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ماوى وأدبر ، ولا يدري ما هو آت فينتظر . أما نيتها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على الحذر ، فلو كان الخالق لم يخب عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لسكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونهبت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها جزاء وفيها واعظ ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها ، واقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها (١) ، إذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالفه أو يرفع ما وضع ملبسه ، فزواها عن الصالحين اختبأ وبسطها لأعدائه اغتراراً ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؛ ونسى ما صنع الله عز وجل بحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه (٢) ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلمت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين ، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : لدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلاتى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض ، أبنت وليس لى شىء ، وأصبح وليس لى شىء ، وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه : لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يرو عنكما لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى ، ولا يعجبكما ما تمتع به منها فإنما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى لئلا ذودهم عن نعميها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، ولئلا لأجنبهم ملاذها كما يحجب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة ، وما ذاك لهُوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً ، لئلا يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذى يظهرن ، وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى لياهم يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون ، وسبائهم التى بها يعرفون ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أخاف لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا النائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوماً خطبة فقال فيها : اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالفقر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها فى رخاء

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز : عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ... الحديث « أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسل ورواه أحمد والطبرانى متصل من حديث أبى مويهبة فى أسماء حديث فيه « لى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم ألبنته ... الحديث » وسنده صحيح والترمذى من حديث أبى أمامة « عرض على ربي ليجعل لى بطعاء مكة ذهباً ... الحديث » (٢) حديث الحسن مرسل فى شدة الحجر على بطنه . أخرجه ابن أبى الدنيا أيضاً هكذا وللبخارى من حديث أنس : رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرتين ، وقال حديث غريب .

وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور . أحوال مختلفة وتارات منصرفة . العيش فيهما مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها وتقصيمهم بحماها . وكل حثفه فيها مقدور وحظه فيها موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى من كان أطول منكم أعماراً وأشد منكم بطشاً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً . فأصبحت أصواتهم هامة خامدة من بعد طول ثقلها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنفارق الممهدة . الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاتئة الملحدة . فحلها مقرب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين . لا يستأنسون بال عمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار . وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكل كلة البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى ؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً وبعد نصرة العيش رفاتاً فحجهم الأحباب وسكنوا تحت التراب طعنوا فليس لهم إياب . هيهات هيهات ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ فكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار المثلوى وارتبتم في ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع . فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبعثت القبور وحصل ما في الصدور وأوقستم للحصول بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لإشفافها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والأسرار وظهرت منكم العيوب والأسرار ؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عز وجل يقول ﴿ ليجزى الذى أساءوا بما عملوا ويجزى الذى أحسنوا بالحسنى ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب قترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابة متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والذهب يرمى كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزاءك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدنك ؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت من الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، ولما لآمر من العلقم إذا عجزها الحكيم ، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظواهر أفعالها ، وماتأتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال . الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن ماضى عنك فقد فاتك إدراكه ، ومالم يأت فلا علم لك به ، والذهب يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان ، والذهب موكل بتشتيت الجماعات وانحرام الشمل وتنقل الدول ، والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتُمْ لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حق ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى ، إنما خلقتُمْ للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون ، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرايبكم شرق ، لا تصفوا لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تسكرون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

قال على كرم الله وجهه في خطبته : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً وكانهم قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكانهم بلغوه ، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم في

الدنيا وطالب حيث يطلبه حتى يفارقها ؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعيمها فإنه إلى زوال ، عجب لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ،

وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والادب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها ، أكلوا منها قصداً وقدوا فضلاً ، وأخذوا منها مايكفي وتركوا ما يلهي ، لبسوا من الثياب ماستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه مماسد الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين فانية ؛ وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب غربوا الدنيا وعمرها بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، تعبوا قليلاً فتمعموا طويلاً ، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحب ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء ، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عفيفاً ومرحلة ارتحالاً سريعاً ، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها ، وإنما يحس عند انقضائها ، ومثاله الظل فإنه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إن الليب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيراً ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغتراراً بظل زائل حق

وقيل إن هذا من قوله . ويقال : إن أعرابياً نزل يقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقبلوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوماً أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بجبل غرور

مثال آخر للدنيا من حيث التغير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها . تشبه خيالات المنام وأصغاث الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون ^(١) » ، وقال يونس بن عبيد . ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فينبهها وكذلك إذ انتبه ، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به . وقبل لبعض الحكماء . أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال أسلام النائم .

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها . اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخرها ، وهي كامرأة تترين للخطاب حتى إذا نسكتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتاء عليها من كل زينة ، فقال لها . كم تزوجت ؟ قالت . لا أحصيهم ، قال

(١) حديث « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون » لم أجده أصلاً .

فكلهم مات عنك أم كلمم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلتم ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تملكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ؟ !

مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها : اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظواهرها ، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظواهرها . وقال العلاء بن زياد : رأيت في المنام عجوزاً كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها ، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها : ويلك من أنت ؟ قالت : أو ما تعرفني ؟ قلت : لا أدري ! من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا ، قلت : أعوذ بالله من شرك ! قالت : إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم . قال أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة شطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون ، فلما كانت بجذائي أقبلت على فقالت : لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال الفضيل بن عياض : قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شطاء زرقاء ، أنيابها بادية ومشوه خلقها ، فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ! فيقال : هذه الدنيا التي تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم يقذف بها في جهنم فتنادى : أى رب أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل : بلغني أن رجلاً عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته ، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس ، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس ، عجوز شطاء زرقاء عشاء قال : فقلت : أعوذ بالله منك ! قالت : لا والله . لا يعيدك الله منى حتى تبغض الدرهم ! قال : فقلت من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا .

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها : اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الازل ، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الابد ، وحالة متوسطة بين الابد والازل وهي أيام حياتك في الدنيا ؛ فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الازل والابد حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مالى والدنيا ! وإنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها » (٢) ، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية ، بل لا يبنى لبنة على لبنة . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (١) ورأى بعض الصحابة يبنى بيتاً من جص فقال « أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك » (٢) ، وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة ، واللحد هو الميل الآخر ،

(١) حديث « مالى والدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : ما وضع لبنة على لبنة ... الحديث . أخرجه ابن حبان في الثقات ولاطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف « من سأل عني أو سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث » (٢) حديث : رأى بعض أصحابي يبنى بيتاً من جص فقال « أرى الأمر أعجل من هذا » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح .

وبينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها . وكيفما كان فلا بد له من العبور ، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها : اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة لينتة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيئات ! فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب على رضى الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثلها فقال : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها ، وكن أسير ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ، فإن صاحبها كلها اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام .

مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعثها بعد الخوض فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما مثل صاحب الدنيا كالمساكني في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا يبتل قدماء (١) » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة ، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا بما هم فيه لسكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها ، فكما أن المشي على الماء يقتضى بللا لا محالة ياتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظلمة في القلب ، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة . قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذبه من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا ، وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تركب وتمتحن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ ، وبحق أقول لكم ، إن الرزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب ما لم تغرقها الشهوات أو يندسها الطمع أو يقسها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله (٢) » .

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع (٣) »

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها وانصارة أوائلها وخبث عواقبها ، اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيدة كشهوات الأاطعمة في المعدة ، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والقتل والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايته ، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان رجيعه أقدر وأشد نكرا ، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى ، فتنها وكراحتها والتأذى بها عند الموت أشد

(١) حديث « إنما مثل صاحب الدنيا كمثل المساكني في الماء ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره . ورواه البيهقي في الشعب وابن الزهد من رواية الحسن بن أس (٢) حديث « إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات (٣) حديث « مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف :

بل هي في الدنيا مشاهدة ، فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحاك بن سفيان السكلابي « ألسنت تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء ؟ » قال : بلى ؛ قال « فالإم يصير » قال : إلى ما قد علمت يارسول الله ، قال : « فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم ^(١) » ، وقال أبي بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قزحه وملحه للإم يصير ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً وإن قزحه وملحه ^(٣) » ، وقال الحسن : قد رأيتهم يطيبونه بالأفاريه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتهم وقد قال الله عز وجل « فلينظر الإنسان إلى طعامه » قال ابن عباس إلى رجليه وقال رجل لابن عمر « أريد أن أسألك وأستحيي قال فلا تستحيي وأسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما بخلت به أنظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجمل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم بهم يرجع إليه ^(٤) » ،

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها : اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها ، فتنفروا في نواحي الجزيرة فقهض بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان غاليا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوقفها لمراده ، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونبات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من يرتبها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها ، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيقاً حرجا فاستقرت فيه ؛ وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسناتها ولم تسمح لنفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه ووبالا ، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكانا لوضعه ، لحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولى الغياض ونسى المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشيام تلك الأنوار والتفترج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك غائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات

(١) حديث : أنه قال للضحاك بن سفيان السكلابي ألسنت تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ... الحديث . وفيه « فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » أخرجه أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جدمان مختلف فيه (٢) حديث أبي بن كعب : أن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم ... الحديث . أخرجه الطبراني وابن حبان بلفظ : لأن مطعم ابن آدم قد ضرب الدنيا مثلاً ورواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ « جمل » (٣) حديث « أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً ... الحديث » الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان « أن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا » (٤) حديث « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجمل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بهم يرجع إليه » أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد .

والنكبات ، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغضن يجرح بدنه وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفرع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراد ، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف متقلبا معه ولم يجد في المركب موضعا فبقى في الشط حتى مات جوعا . وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع ، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الأوحال ، ومنهم من نهشته الحيات ، فتفرقوا كالجيف المنتنة .

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكادت تلك الألوان والأحجار فظهرت رأتحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنبتها ووحشتها . فلم يجد حيلة إلا أن ألغىها في البحر هربا منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم يفته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا ما فاته إلا سعة المحل فتأدى بضيق المسكن مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما . فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحفظهم العاجلة ونسيانهم موردتهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم النبات وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا وبالا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل .

مثال آخر لا غترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم : قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنما مثل ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غرباء ، حتى إذا لم يدروا ، ماسلكوا منها أكثر أو ما بقي ؟ أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حيلة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه ، فقالوا : هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء : فقالوا : يا هذا ! فقال علام أنتم ؟ فقالوا : على ما ترى ، فقال : رأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضرا تعمالون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئا ، قال : عهدكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهدهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئا قال : فأوردتهم ماء رواء ورياضا خضرا فكث فيهم ما شاء الله ثم قال : يا هؤلاء ! قالوا : يا هذا ! قال : الرحيل ! قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كما كنتم وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجد وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة - وهم أقلهم - ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم ومواثيقكم بالله أن لا نعصوه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره ؟ فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل (١) .

ومثال آخر لتنعيم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها : اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيا دارا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما ، واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليتملكه ويأخذه ، فجعل رسمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له ، فلما استرجع منه ضجر وتفجع ، ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب

(١) حديث الحسن : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنما مثل ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غرباء . أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبرار والعباسي من حديث ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث وفيه « فقال أي أحد المالكين لأن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سافر انتموا إلى مفازة » فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن .

وانشراح صدر ، وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبكت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها ويمتفعوا بما فيها كما يمتنع المسافرون بالعواري ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها . فهذه أمثلة الدنيا وآفاتا وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه .

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ماهي ؟ وما الذي ينبغي أن يحتنب منها وما الذي لا يحتنب ؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المسأور ياجتنبها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهي ؟ فنقول : دنياك واخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمترأخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت ، فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقتك إلا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام . القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرة بعد الموت وهو شيثان : العلم والعمل فقط ؛ وأعني بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وما سكوت أرضه وسماؤه والعلم بشريعة نبيه وأعني بالعمل : العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألد الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلاً في الدنيا . ولكننا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً بل قلنا إنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة »^(١) ، فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الآخر كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً ، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعيم بالمباحاة الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات ، كالتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والغلمان والجواري والخيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة ، لحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة وفيها يعد فضولاً أوفى محل الحاجة نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حصص فأتخذ كنيفاً أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر : من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتني به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم ير لها حتى مات . فهذا رآه فضولاً من الدنيا فتأمل فيه .

(١) حديث « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وتقدم في النسكاح .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه لبتأق للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصبر به من أبناء الدنيا ، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على المقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا . ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب ؛ أغنى طهارته عن الأدناس ، وأفسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والآنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعادات بعد الموت .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار ، وإن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه (١) ، الحديث .

وأما الآنس والحب فهما من المسعادات وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الآنس بدوام ذكره ومطالعة جماله ، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق ؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غضب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الخيلة في الرجوع إليه ؟ ولذلك قيل :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عندما إنما هو فراق لمحباب الدنيا وقدم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا ويغض إليه ملاذها ويقطعه عنها ، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن ، وصحة البدن لا تنال إلا بقوت وملبس ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة ، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التمتع صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها ، إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب (٢) إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عذاب (٣) » وقد قال أيضا « حلالها عذاب » إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام ،

(١) حديث : مناقلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه . . . الحديث « أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمره بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزرجي ضعيف ، البخاري وأبو حاتم والأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر » « إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنا أحضره عمله الصلاة والصيام . . . الحديث » ولمسنداه صحيح (٢) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفا على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ « وحرامها النار » ولم أجده مرفوعا .

بل لو لم يكن الحساب لسكان ما يفوت من الدرجات العلا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيصة لابقاء لها هو أيضاً عذاب ، وقس به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لابقاء لها ؟ منغصة بكدورات لاصفاء لها فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها ؟ فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه « هذا من النعيم الذي تسئل عنه ^(١) » أشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب ، السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : اعزلوا عني حسابها ، حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه . فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد ، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال : رغبت في الدنيا ! وحتى إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحاناً وشدة ، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبيينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياماً ^(٢) وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع ^(٣) . ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباله لاجتلاء عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذي هو لله ؟ فأقول : الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التمتع في المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة : الفكر والذكر والكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليست من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله ، وذلك كالأكل والنسكاح وكل ما يرتبط به بقاءه ولده ، فإن كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً مكثراً مفاخرها لقي الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ^(٤) » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد ، فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونهى النفس عن

(١) حديث هذا من النعيم الذى تسئل عنه تقدم في الأطعمة (٢) حديث : زوى الله الدنيا عن نبيينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياماً أخرجه محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال : قلت يا رسول الله عيال من بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك . . . الحديث . وهو من طريق إسحاق معنوا للترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأمله . . . الحديث . قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث : كان يشد الحجر على بطنه من الجوع . تقدم . (٤) حديث « من طلب الدنيا حلالاً مكثراً مفاخرها لقي الله وهو عليه غضبان . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

الهُوى فَإِنَّ الجنةَ هِيَ المَأْوَى ﴿ وبجامع الهوى خمسة أمور : وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة : يجمعها قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فقد عرفت أنَّ كل ما هو لله فليس من الدنيا ، وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله . وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة . ولها طرفان وواسطة : طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فإنَّ الاقتصاد على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغى أن يحذر منه ، ويبدنها وسائلها متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

والحزم فى الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما ممكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أويسا القرنى كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضيقه على نفسه ، فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتى عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهها ، وكان يخرج أقول الأذان ويأتى إلى منزله بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوته ، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم يا اخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارءوني بأحجار صغار وإني أخاف أن تدموا عقيبى ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء ، فهكذا كانت سيرته . واقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين إشارة إليه رحمه الله (١) » ، ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم ، قال : فقاموا . فقال : اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، اجلسوا ، فقال : اجلسوا إلا من كان من مراد ، اجلسوا فقال : اجلسوا إلا من كان من قرن ، اجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر : أقرنى أنت ؟ فقال : نعم فقال : أنت عرف أويس بن عامر القرنى ؟ فوصفه له ، فقال : نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين ! والله ما فينا أحق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه ، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه ثم قال : ما قلت ما قلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر (٢) » ، فقال هرم بن حيان : لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم إلا أن أطلب أويسا القرنى وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه ، قال : فعرفته بالنعته الذى نعت لى ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلق الرأس كث اللحية متغير جدا كرىه الوجه متهيّب المنظر قال : فسلمت عليه فرد على السلام ونظر إلى ، فقلت : حياك الله من رجل ومددت يدي لأصالحه فأبى أن يصالحنى ، فقلت : رحلك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحلك الله ؟ ثم خنقتنى العبرة من حبي لإياه ورقى عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى ، فقال : وأنت لحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخى ومن ذلك على ؟ قال : قلت الله فقال :

(١) حديث « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين » أشار به إلى أويس القرنى تقدم فى قواعد العقائد لم أجده أصلا .

(٢) حديث عمر « يدخل الجنة فى شفاعته مثل ربيعة ومضر » يريد أويسا وروينا فى جزء ابن السماء من حديث أبى أمامة

« يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمى أكثر من ربيعة ومضر » وإسناده حسن ، وليس فيه ذكر لأويس بل فى آخره : فكان المصيفة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان .

لا إله إلا الله سبحانه الله ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ قال : فعبجت حين عرفني ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رأيته ! فقلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيته قبل اليوم ؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ وعرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل ، قال : قلت حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تسكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله ، ولكن رأيت رجلا قد صحبوه ويلغى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى ، شغل عن الناس ياهرهم بن حيان ! فقلت : يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعا منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فإنى أحبك فى الله حبا شديدا ، قال : فقام وأخذ بيدي على شاطئ الفرات ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى . ثم قال : قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ فشقق شقه ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال : يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة ولما إلى نار ، ومات أبوك آدم ومات أمك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجيى الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ، ومات أبويكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفى ، ثم قال : يا عمر يا عمر ، قال : فقلت رحمك الله إن عمر لم يميت ، قال : فقد نعا إلى ربى ونعى إلى نفسى ! ثم قال : أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال : هذه وصيتى لإياك ياهرهم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعت إلى نفسى ونفسك ، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت ، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعا ، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة ، ادع لى ولنفسك ، ثم قال : اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فعرفى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه مادام فى الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين وأجزه عن خير الجزاء ثم قال : أستودعك الله ياهرهم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لأأراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني فإنى أكره الشهرة والوحدة أحب إلى لى كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلا تسأل عنى ولا تطلبني ، واعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترنى فاذكرنى وادع لى فإنى سأذكرك وأدعوك إن شاء الله ، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا . فحرصت أن أمشى معه ساعة فأبى على وفارقت فبكى وأبكاني وجعلت أنظر فى فناء حتى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرنى عنه بشئ رحمه الله وغفر له .

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا .

وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أطلته الخضراء وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى بما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج إذ حاف أنه فى طريق الحج

لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل مالا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولاً بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا . نعم إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنابغسي : كنت على باب بنى شيبه في المسجد الحرام سبعة أيام طاولا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه . فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقلك . فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم
وخالفهم ومصدرهم وموردتهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملابس ومطعم ومشرب ومنكح .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات : فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوى وأما المعادن : فيطلبها للآلات والأواني ، كالنحاس والرصاص ، وللتنقد ، كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها للآكل وظهورها للركب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الآدمي : أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخروهم كالغلمان ؛ أو ليتستع بهم كالجوارى والنسوان ؛ ويطلب قلوب الناس ليمسكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاء ؛ إذ معنى الجاء ملك قلوب الآدميين . فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ وهذا من الإنس ﴿ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها ﴿ والخيول المسومة والأنعام ﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿ والحرث ﴾ وهو النبات والزرع .

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداينة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن ؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحفظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى ، وأعنى بالدابة البدن ، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال .

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده : مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يلف الناقة ويتعهددها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويرد لها الماء بالثلج ، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهتم من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشى ، فيتعهدده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجة من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها . وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن ، فإن الفوت ضرورى وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتأهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك اشغال الدنيا ، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنسهم عافية أمورهم ؟ فنقول : الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس . فالقوت : للغذاء والبقاء . والملبس : لدفع الحر والبرد . والمسكن : لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه .

نعم خلق ذلك للهائم ، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبع . والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فليستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية ، وهي الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناس ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس . والفلاحة للطعم . والرعاية للمواشى والخيل أيضا للطعم والمركب . والاقتناس لغنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب ، فالفلاح يحصل النباتات والرعى يحفظ الحيوانات ويستتجها . والمقتنص يحصل ما نبت وتنسج بنفسه من غير صنع آدمى ، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمى ، ولغنى بالاقتناس ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عذة . ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناس ، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما ، أو من جلود الحيوانات . فحدثت الحاجة إلى ثلاث أنواع آخر من الصناعات : النجارة ، والحداة ، والخز . وهؤلاء هم عمال الآلات ، ونعنى بالنجارة ؛ كل عامل في الخشب كيفما كان . وبالحداة ؛ كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والإبري وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الخراز ؛ فنعنى به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها . فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسبيين ؛ أحدهما : حاجته إلى الفسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما . والثاني :

التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس والتربية الولد ، فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لاحتالة ، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة . فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها ، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ؟ وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملابس وهو يقتصر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة ؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبها معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها ، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة .

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رئاسة وولاية للزوج على الزوجة ، وولاية الأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به . ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخصص الزوج ، والولد يخصم الأبوين . هذا في المنزل .

وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وملكوا ، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لاحتالة . ثم قد يبعجن بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يدعن له ،

لحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى . فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتسكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لا بد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية ، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا تعطلت الصناعات ، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستعصر الناس ، فست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مال لك لها إن كانت ، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار ، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لاحتالة إلى أن يمد لهم أهل البلد بأموالهم ليدوم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخرى ؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال . وإلى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمخترجون ، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان ، وإلى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر . وهذه الأعمال لو تولاه عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لسكل عمل شخصا ، ويختار لسكل واحد ما يليق به ويراعى النصفة في أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل

طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يرافهم بالعين السكائنة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف ؛ الفلاحون والرعاة والمحترفون ؛ والثانية : الجندي الحماة بالسيوف . والثالثة : المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وينفتح بسببه أبواب أخر . وهكذا تنتهي إلى غير حد محصور كأنها هاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي . فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لاتتم إلا بالأموال والآلات . والمال عبادة عن أعيان الأرض وما عليها مما يمتنع به ، وأغلاها الاغذية ، ثم الامكنة التي يأوى الإنسان إليها وهي الدور ، ثم الامكنة التي يسعى فيها للتعيش كالخوانيت والأسواق والمزارع ، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون الآلات ماهر حيوان كالسكب آلة الصيد ، والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب في الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة . فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبذل ماعنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة ، إلا أن النجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتعوق الاغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات ؛ وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات ، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعا في الربح ، وكذلك في جميع الامتعة والاموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشتررون من القرى الاطعمة ومن البلاد الآلات ، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنظم أمور الناس في البلاد بسببهم ؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام ، فالبعض يحتاج إلى البعض فيخرج إلى النقل ، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول الليل والنهار في الاسفار لغرض غيرهم ، ونصيبيهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم ؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصاحبة للعباد . يل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت همهم لزهدوا في الدنيا ، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعاش ، ولو بطلت هللكوا ولهلك الزهاد أيضا .

ثم هذه الاموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها ، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة ، ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب فن أين يدرى المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو ؟ والمعاملة تجرى في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تناسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الاموال ، ثم يحتاج إلى

مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدرم . وأبقى الأموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ، ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فست الحاجة إلى دار الضرب والصارفة . وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ماتراه . فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم . وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء .

وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسقى فيه غيره ، فيحدث منه حرقان خسيستان : اللصوصية والسكداية ؛ إذ يجمعها أنهما يأكلان من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير .

أما اللصوص : فمنهم من يطلب أعوانا ويكون فى يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والاكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طزارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها .

وأما المكدي فإنه إذا طلب ماسعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئا ، فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون ، وإما بالتعاضى والتفالج والتجائن والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة ، وجماعة يلتمسون أقوالا وأفكارا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخرها برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتسخير والمحاكاة والشبهة والافعال المضحكة ، وقد يكون بالإشعار الغريبة والكلام المشور المسجع مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت ، أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصناعة الطبالين فى الأسواق ، وصناعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع الثعوب ذات ، والحشيش الذى يخيل بأبعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رموس المناظر إذا لم يكن وراءهم طائل علمى وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدبة ، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين . وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة . فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها ، وجرحهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصدهم ومنقلبهم ومآبهم فتأهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آرائهم على عدة أوجه :

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجهت حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل ، فياكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا ، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم فى الدنيا ولا قدم فى الدين ؛ فإنه يتعب نهارا

لياً كل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً ، وذلك كسير السواني فهو سفر لا يقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفتنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا ؛ بل السعادة في أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا همهم إلى اتباع النسيان وجمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهبوا ليلهم وأنعبوا نهارهم في الجمع ، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكنسبون ، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلًا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت ؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشبهوات واللذات ؛ فيكون للجامع تعب ووباله وللأكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق اللسان بالشاء والمدح بالتجمل والمروءة ؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيئون على أنفسهم في المطعم والمشرب ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة ، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا همهم إلى استئجار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقليد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة ، وأن ذلك غاية المطالب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم .

وراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكتفي منها . وانجذرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاول لم يمكنهم الرقي منها ، فن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك ، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له ، وإن تعدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية ، فتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا . وتنبيه طائفة فأعرضوا عن الدنيا لحسدهم الشيطان ولم يتركهم ، وأضلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف :

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محنة الدنيا .

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالسكينة ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة . وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالسكينة فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيد عبادة متعبد ، فمادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطووا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحييلة ، فتركوا السعى والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتحنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .

وراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ سبعين فرقة ، وإنما الناجي منها فرقة واحدة ؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالسكينة ولا يجمع الشهوات بالسكينة . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيجمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل . ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنهه همتته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالافتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال « الناجي منها واحدة » قالوا : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة » فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي »^(١) ، وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالسكينة ، وما كان لهم في الأمور تفریط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى - كما سبق ذكره في مواضع - والله أعلم .

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) حديث : افتراق الأمة وفيه « الناجي منهم واحدة » قالوا : ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة » . . . الحديث « أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه » تفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة سلكهم في النار إلا ملة واحدة » فقالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أسد وعوف بن مالك ومي الجماعة وأسانيدها جيد .

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ، ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ورددهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير ، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم أثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا ، والصلاة على محمد الذى نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذالا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف ، ولكن الأموال أعظم فتنها واطمئنها ، وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها ، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا ، وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا . وبالجمله فهى لا تغل من الفوائد والآفات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتميز خيرها عن شرها من المعوصات التى لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين من العلماء الراشخين دون المسترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة ؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، وأجاء بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشقى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها . ولها أبعاد كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل . ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل . وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان .

ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحرص حالتان : طمع فيما فى أيدي الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شر الحالتين .

وللواجد حالتان : إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللنفق حالتان : تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد .

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم . ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو : بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع . ثم فضيلة السخاء . ثم حكايات الاستيلاء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخل . ثم الإيثار وفضله . ثم حد السخاء والبخل . ثم علاج البخل . ثم مجموع الوظائف فى المال . ثم ذم الغنى ومدح الفقر ؛ إن شاء الله تعالى .

بيان ذم المال وكرامة حبه

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وخسرنا عظيماً وقال عز وجل ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما يفتت الماء البقل (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر إفساداً لهما من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم (٣) ، وقيل : يا رسول الله أى أمتك شر ؟ قال : الأغنياء (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطياب الدنيا والوانها ويركبون فزه الخيل والوانها وينسكحون أجل النساء والوانها ويلبسون أجل الثياب والوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفون على الدنيا يغدون وبروحون لآلها ، اتخذوها آلهة من دون إلههم وربا دون ربهم ، إلى أمرها يفتنون ولهوهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنازهم ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟ (٧) ، وقال رجل : يا رسول الله مالى لأحب الموت ! فقال : هل معك من مال ؟ قال : نعم يا رسول الله ؛ قال : قدم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدمه

كتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث « حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما يفتت الماء البقل » لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بالفظ « الجاه » بدل « الشرف » (٢) حديث « ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر إفساداً لهما من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم » أخرجه الترمذى والنسائى في الكبيرى من حديث كعب بن مالك وقال « جائعان » مكان « ضاريان » ولم يولا « في زريبة » وقال « الشرف » بدل « الجاه » قال الترمذى حسن صحيح والطبرانى في الأوسط من حديث أبى سعيد « ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم ... الحديث » ولا يزار من حديث أبى هريرة « ضاريان جائعان » ولإسناد الطبرانى فيها ضعيف (٣) حديث « هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الرحمن ابن أبزى بالفظ « المكثرون » ولم يقل « في عباد الله » ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بالفظ « المكثرون » وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بالفظ « هم الأخسرون » قال أبو ذر : من هم ؟ قال « هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا ... الحديث » (٤) حديث قيل يا رسول الله أى أمتك شر ؟ قال « الأغنياء » غريب لم أجده بهذا اللفظ والطبرانى في الأوسط والبيهقى في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر « شرار أمتى الذين ولدوا في النعم وغذوا به يأكلون من الطعام ألواناً وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى في الزهد له من رواية هروث بن رويم مرسل ولا يزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف « لأن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعم وتبنت عليه أجسامهم » (٥) حديث « سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطياب الدنيا والوانها وينسكحون أجل النساء والوانها ... الحديث » بطوله أخرجه الطبرانى في الكبير والأوسط من حديث أبى أمامة « سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويمشون ألوان الثياب ويلبسون ألوان الثياب يتشددون في الكلام أولئك شرار أمتى » وسنده ضعيف ولم أجده لباقي أصلاً (٦) حديث « دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر » أخرجه الزبارة من حديث أنس وفيه هاتى بن المتوكل ضعفه ابن حبان (٧) حديث « يقول العبد مالى مالى .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الفضل وأبى هريرة وقد تقدم

أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، أخلاء ابن آدم ثلاثة . واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ، والثالث إلى محشره . فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله ، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله ^(٢) .

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : مالك تمشي على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عندهم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكنهما والمدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى ليالك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلها تكفاً به الصراط قال له ماله امض فقد أدبت حق الله في ، ثم يجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلها تكفاً به الصراط قال له ماله ويالك ألا أدبت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور ^(٣) .

وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطوّل بتكريره ، وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة .

قال صلى الله عليه وسلم : إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا ^(٥) .

الآثار : روى أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً فقال : اللهم من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر ؟ لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان ووضع على كرم الله وجهه درهماً على كفه ثم قال : أما إنك ما لم تخرج عنى لا تنفعنى . وروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت : ما هذا ؟ قالوا : أرسل إليك عمر بن الخطاب ، قالت : غفر الله له ، ثم سلت سترا كان لها فقطعته وجعلته صرراً وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ، ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقاً به . وقال الحسن : والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وقيل : إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما لإبليس ثم وضعهما على جهته ثم قبلهما وقال . من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط بن مجلان : إن الدراهم والدنانير أزيمة المناققين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه ، قيل : وما رقيته ؟ قال : أخذه من حله ووضعته في حقه . وقال العلاء بن زياد : تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت : أعوذ

(١) حديث : قال رجل يارسول الله مالى لا أحب الموت ... الحديث . لم أقف عليه (٢) حديث « أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث الثمان بن بشير بإسناد جيد نحوه ، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أس بن سعيد أيضاً وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب والشيخين من حديث أس بن سعيد أيضاً . ويتبع الحديث ثلاثة فيرجع اثنان ويتبع واحد ... الحديث (٣) حديث : كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ... الحديث » قلت : ليس هو من حديث سلمان لأنه هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان : كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل « الدنيا » « المال » وهو منقطع (٤) حديث « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة يبلغ به وقد تقدم في آداب الصحبة .

(٥) حديث « لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » أخرجه الترمذى والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ « فترهبوا » (٣٠ — لحياء الدين علوم — ٣)

بأنه من شرك فقالت : إن شرك أن يعيذك الله منى فابغض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها ، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل :

إني وجدت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تفك تقوى المسلم
وفي ذلك قيل أيضاً :

لا يفترنك من المر * قيص رقبته * أو لزار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد خلعه * أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال : يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار - وكان له ثلاثة عشر من الولد - فقال عمر : أقعدوني ! فأقعدوه فقال : أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فإن لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم ! وإنما ولدي أحد رجلين : إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع . وروى أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيراً فقيل له : لو ادخرته لولدك من بعدك ؟ قال : لا ولكني ادخره لنفسى عند ربى وأدخر ربى لولدى . ويروى أن رجلاً قال لأبى عبد ربه : يا أخى لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير ! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته ، قبل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كله ويستل عنه كله .

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمي المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ﴿ إن ترك خيراً ﴾ الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح ^(١) ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحب فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى ﴿ ويستخرجنا كنزهما رحمة من ربك ﴾ وقال تعالى بمقتضى على عباده ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفراً » ^(٢) ، وهو ثناء على المال . ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله ؛ حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر ، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعاً وما هذا وصفه فيمدح لأعماله تارة ويذم أخرى ، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم ، وبيانه بالاستعداد بما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكرام والاكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك والمقيم . والقصد إلى هذا دأب الكرام والاكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال « أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً » ^(٣) ،

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ « نعم » وقال « المرء » . (٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفراً » أخرجه أبو مسلم القتيبي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أسد وتقدم في كتاب ذم النضب (٣) حديث : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ قال « أكثرهم للموت ذكراً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ : أى المؤمنين أكيس ؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد .

وهذه السعادة لاتنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية ، كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنية : كالصحة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن : كالمال وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة .

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات ، وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ولا خادما لهما ، ومرادان لغيرهما . ولا يرادان لذاتهما ؛ إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب لسعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها ، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن . وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن . ومن المناكح إبقاء النسل ، ومن البدن تمكين النفس وتركبتها وتزيينها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً لإيها غير ناس لها فقد أحسن واقتنع ، وكان ما حصل له الغرض محموداً في حقه ، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذاً محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد الحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر^(١) كما ورد به الخبر .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلها وآلة لإيها ، عظم الخطر فيما يريد على قدر الكفاية فاستماذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل قوت آل محمد كفاً »^(٢) ، فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واحشني في زمرة المساكين »^(٣) ، واستماذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال « واجنبي وبني أن نعبد الأصنام » وعن بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفى قبل النبوة مع الصغر ، وإنما معنى عبادتهما جبهما والاعتزاز بهما والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش وإذا شيك فلا انتفش^(٤) ، فبين أن محبة ما عابدهما ومن عابدهما فهو عابد صنم . بل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم ، أي قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلا أن الشرك شركان : شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقلبا ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من ديب النمل ، وشرك جلي يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من الجميع .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحتار من شره ويستدر من خيره .

(١) حديث « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر » تقدم قبله بقسمة أحاديث وهو بقية « احذروا الدنيا » (٢) حديث « اللهم اجعل قوت آل محمد كفاً » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً » أخرجه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٤) حديث : تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل « وانتفش » وإنما حلق آخره بلفظ « تعس وانتكس » ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

أما الفوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ، ولولا ذلك لم يتهاكوا على طلبها . وأما الدينية فتتخصر جميعها في ثلاثة أنواع .
(النوع الأول) أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة . أما في العبادة : فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلها . وأما فيما يقويه على العبادة : فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية . ولا يدخل في هذا التمتع والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

(النوع الثاني) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وإنها لتطفئ غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم .
وأما المروءة فنحن بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأتقياء . فلا يوصف بالجلود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والقوة ، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها .

وأما وقاية العرض فنحن به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، ثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضاً مع تنجز فائده في العاجلة من الحظوظ الدينية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة »^(١) ، وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعدر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه ، وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران .

(النوع الثالث) مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب في الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبدة الدائرة بعد الموت المستجبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متبادلة ، وناهيك بها خيرا . فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة في القلوب ، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

(١) حديث « ما وقى المرء عرضه به فهو صدقة » رواه أبو داود من حديث جابر وقد تقدم .

وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث .

(الاولى) أن تجرّ إلى المعاصى فإن الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصمة أن لا يجد . ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته ، فإذا استشعر القدرة عليها انبعث داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور ، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك وإن صبر وقع في شدة ؛ إذ الصبر مع القدرة أشد ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

(الثانية) أنه يجرّ إلى التمتع في المباحات ، وهذا أول الدرجات ، فتي يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائد الاطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه ، فيصير التمتع مألوفا عنده ومحبوباً لا يصبر عنه ، ويجرّه البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في المراماة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة ، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناققهم ويعصى الله في طلب رضاهم ، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهى مباشرة الخطوط فلا يسلم عن هذه أصلاً . ومن الحاجة إلى الخلق تنور العداوة والصدقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصى التي تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضاً إلى سائر الجوارح . وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

(الثالثة) وهى التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلغيه لإصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : في المال ثلاث آفات ، أن يأخذه من غير حله ، فقيل : إن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه في غير حقه ، فقيل : إن وضعه في حقه ؟ فقال : يشغله لإصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكير في جلاله ، وذلك يستدعى قلباً فارغاً وصاحب الضيعة يسمى ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان في الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة ، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتقصيره للمال . وكذلك صاحب المواشى . وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعد ما عن كثرة الشغل : النقد المكتوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر متردداً فيما يصرف إليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يعثر عليه وفي دفع أطباع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها ، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد وتجهش المصاعب في حفظ المال وكسبه ، فإذا ترياقي المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات . نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس بما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود - كما أوردناه في كتاب الفقر - ولكن ينبغى أن يكون الفقير قائماً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يفتن بقدر الضرورة

من المطعم والملبس والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فانه عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص ، وجزء الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للبرومات ، وقد جبل آدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب »^(١) ، وعن أبي واقد الليثي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتينا به يعلمنا بما أوحى إليه ، فجئته ذات يوم فقال : « إن الله عز وجل يقول : إنما أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثمان ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب »^(٢) ، وقال أبو موسى الأشعري : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديان من مال لتغنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب »^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الأمل وحب المال » أو كما قال^(٥) .

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة اتنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى للإسلام وكان يمشي كفافا وقنع به^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس »^(٨) ، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال : « أيها الناس أجمعوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة »^(٩) ، وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : « أي عبادك أغنى ؟ قال : أقرعهم بما أعطيتهم ، قال : فأيهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »^(١٠) ، وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار » وقال أبو هريرة رضي الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن ورعا ، تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا »^(١١) ،

- (١) حديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبتنى لهما ثالثا ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس وأسد
- (٢) حديث أبي واقد الليثي « إن الله عز وجل يقول : إنما أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة : ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح
- (٣) حديث أبي موسى : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديان من مال ... الحديث » أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله « إن الله يؤيد هذا الدين » ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه على بن زيد متكلم فيه
- (٤) حديث « منهومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف
- (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس
- (٦) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيده كفافا وقنع به » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة ابن عبيد وأسلم من حديث عبد الله بن عمر « وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنع به الله بما آتاه » (٧) حديث « ما من أحد غنى ولا فقر إلا وديوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا قوتا » أخرجه ابن ماجه من رواية نعيم بن الحارث عن أنس ونعيم ضعيف
- (٨) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٩) حديث « ألا أيها الناس أجمعوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له » أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده ، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش .
- (١٠) حديث ابن مسعود « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه
- (١١) حديث أبي هريرة « كن ورعا تكن أعبد الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري : أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله عظمى وأوجز فقال : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا ، وأجمع اليأس مما في أيدي الناس ^(١) ، وقال عوف بن مالك الأشجعي : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة - فقال : ألا تباعون رسول الله ، قلنا : أوليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثم قال : ألا تباعون رسول الله ، فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا : قد بايعتناك فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الخس ، وأن تسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلبة خفية « ولا تسألوا الناس شيئا » ^(٢) ، قال : فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، وفي ذلك قيل :

العيش ساعات تمر وخطوب أيام تكثر
اقنع بعيشك رضى وارك هواك تعيش حز
فلرب حثف ساقه ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول : من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال سفيان : خير دنيا كم ما لم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا ومسلك ينادى : يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال سمي بن عجلان : إنما بطئك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس . ويروى أن الله عز وجل قال : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهره ، وإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو مازق . وكتب بعض بني أمية إلى ابن حازم - يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه - فكتب إليه : قد رفعت حوائجي إلى مولاي فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت . وقيل لبعض الحكماء : أى شيء أسر للعاقل وإيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وفي ذلك قيل :

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنس والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحل بساحتها لم يلق فى دهره شيئا يؤزقه

(١) حديث أبي أيوب « إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس » أخرجه ابن ماجه وتقدم في الصلاة والاعاكم نحوه من حديث سميد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد (٢) حديث عوف بن مالك : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - سبعة أو ثمانية أو تسعة - فقال : « ألا تباعون ... الحديث » وفيه « ولا تسألوا الناس » أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل : فقال قائل ولا قال : تسموا . وقال : سوط أحدهم . وهى عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

وقد قيل أيضا :

حتى متى أنا في حل وترحال وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لأنفسك مغتربا عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طورا ثم مغربها لا يخطر الموت من حرصى على بالي
ولو قنعت أمانى الزرق في دعه إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى : حلتان لشتائى وقيظى ، وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرى ، وقوتى بعد ذلك كمقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ، فوالله ما أدرى أحمل ذلك أم لا ؟ كأنه شك فى أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها ؟ وعاتب أعرابى أخاه على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لاتفوته وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه ، كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا . وفى ذلك قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصا على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوما إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي : حكى أن رجلا صاد قنبرة فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ، قالت : والله ما أشنى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى : أما واحدة : فأعلمك وأنا فى يدك ، وأما الثانية : فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الأولى ، قالت : لا تلهفن على ما فاتك ، ففلاها فلما صارت على الشجرة قال : هات الثانية : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : يا شقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى دزتين زنة كل دزة عشرون مثقالا ، قال : فعض على شفته وتلفه وقال : هات الثالثة ، قالت : أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أن يكون ، أنا لحى ودى وريشى لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت . وهذا مثال لفرط طمع الأدبى فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون . وقال ابن السكك : إن الرجاء حبل فى قلبك وقيد فى رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدى : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب ، فلما رأى فى تبسم ، فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدنى :

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لآخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيلك ملؤه ويكفيلك سوءات الأمور اجتنابها
ولاتك مبذالا لعرضك واجتنب ركوب المعاصى يحننك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء إذ وعوها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل : فسر لى قول لكعب ، قال : يطمع الرجل فى الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه ، وأما الشره فشره النفس فى هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خرم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له . فمن حبك للدنيا سلمت عليه

إذا مررت به وعدته إذا مرض ؛ لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك . ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الإنسان انه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوئ خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من بيدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرخا يأتيا بالطحين - وأوماً بيده إلى رخا أضراسه - فسبحان القدير الخبير .

بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر والعلم والعمل ، وبمجموع ذلك خمسة أمور :
 الأول : وهو العمل ؛ الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق ، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلا ما لا بد له منه ، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة ، بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ؛ ويقلل من الإدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر ؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد . ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة ؛ ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات ؛ خشية الله في السر والعلانية ، والصدق في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث أبا للدرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من فقهلك رفقتك في معيشتك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة »^(٢) . وفي الخبر « التدبير نصف المعيشة »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا »^(٥) « والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور .

الثاني : أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشئ حصره ، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق ، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعده الله تعالى إذ قال عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض

(١) حديث « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « ما عال من اقتصد » أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ « مقتصد » (٣) حديث « ثلاث منجيات ؛ خشية الله في السر والعلانية والصدق في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب » أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس « الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تهميد وتأخير وقال « السمات الصالح » وقال « من خمسة وعشرين » ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال « التؤدة » بدل « الهدى الصالح » وقال « من أربعة » (٥) حديث « التدبير نصف المعيشة » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلل بن عيسى جهل العقيلي ووثقه ابن معين . (٦) حديث « من اقتصد أغناه الله ... الحديث » أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « ومن ذكر الله أحبه الله » وشيخه فيه عمران بن حارون البصري قال الذهبي : شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكر أي هذا الحديث ، ولأحمد وأبي داود في حديث لأبي سعيد « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » (٧) حديث « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا » رواه ابن المبارك في البر والصلوة وقد تقدم

إلا على الله رزقها) وذلك لأن الشيطان يعدد الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول : إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال ، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفا من الفقر ، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثألي الحال وربما لا يكون . وفي مثله قيل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله يخافه فقر فالذي فعل : الفقر

وقد دخلا ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما ، لا تيأسا من الرزق ما تهزمت رءوسكما فإن الإنسان تلهه أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى (١) ، ومز رسول الله صلى الله عليه وسلم بآب مسعود وهو حزين فقال له : لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أيها الناس أجهلوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبدا من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة (٣) ، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب ، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم : أي الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب (٤) ، وقال سفيان : اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا . أي لا يترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبي : قلت لأعرابي من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت : فإذا صدروا ، فبكي وقال : لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش ، وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين : شيئا منهما هو لى ، فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض . وشيئا منهما هو لغيرى فلذلك لم أنه فيا مضى فلا أرجوه فيا بقى ، يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ، ففى أى هذين أفنى عمرى ؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان . وإنذاره بالفقر .

الثالث : أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل ، فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة . وذلك بما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداهنة ، وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان ، قال صلى الله عليه وسلم : عز المؤمن استغناؤه عن الناس (٥) ، ففى القناعة الحرية

(١) حديث « لا تيأسا من الرزق ما تهزمت رءوسكما ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث : حبة وسواء ابني خالد ، وقد تقدم . (٢) حديث « لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك » قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحبته ورواه الأصفهاني فى الترهيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافرى مرسل . (٣) حديث « ألا أيها الناس أجهلوا فى الطلب ... الحديث » تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا .

(٤) حديث « أي الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بن إسناد رواه ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات . (٥) حديث « عز المؤمن استغناؤه عن الناس » أخرجه الطبراني فى الأوسط والحاكم وصححه إسناده ، وأبو الشيخ فى كتاب الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد : أن جبريل قال لئن صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث « وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عينة وكلاما مختلف فيه وجمله القضاة فى مسند المهابة من قول النبي صلى الله عليه وسلم

والعز . ولذلك قيل : استغن عن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرابع : أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحق من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لادين لهم ولا عقل . ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمات الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطلع أحوالهم . ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم في البطن فالخمار أكثر أكلأمنه وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه ، وإن تزين في الملابس والحلي ففي اليهود من هو أعلى زينة منه ، وإن قنع بالقليل ورضى به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء .

الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر - كما ذكرنا في آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع ؛ وما في خلو اليد من الأمن والفراغ ، ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول : لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس ؟ يصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول : ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم ؟ قال أبو ذر : أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوق ^(١) أي في الدنيا . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل عليه ^(٢) » فهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع ذهرا طويلا ، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء .

بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة . وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة ^(٣) » وقال جابر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال جبريل عليه السلام . قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتما ^(٤) » وفي رواية « فأكرموه بهما ما محبتموه » وعن عائشة الصديقة رضي

(١) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق ، أخرجه أحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل عليه » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث « السخاء شجرة في الجنة .. الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسأني بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد (٤) حديث جابر صرفوا حكاية عن جبريل عن الله تعالى « إن هذا دين رضيت له لنفسى وإن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطني في المستجاد وقد تقدم

الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جبل الله تعالى وليا له إلا على حسن الخلق والسخاء »^(١) وعن جابر قال . قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال « الصبر والسماحة »^(٢) ، وقال عبد الله بن عمرو . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله تعالى لحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس »^(٣) ، وروى المقدم بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دئنى على عمل يدخلنى الجنة قال « إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام »^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة »^(٥) ، وقال أبو سعيد الخدرى . قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في أكتافهم فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى »^(٦) ، وعن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تحافوا عن ذنب السخى فإن الله أخذ بيده كلما عثر »^(٧) ، وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى لباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفاسفها »^(٩) ، وقال أنس . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا

(١) حديث عائشة « ما جبل الله وليا له إلا على السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطنى في المستجاد دون قوله « وحسن الخلق » بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بنية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، ويوسف ضعيف جدا (٢) حديث جابر : أى الإيمان أفضل ؟ قال « الصبر والسماحة » أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ : سئل عن الإيمان . وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفة الجمهور ورواه أحمد بن حنبل حديث عائشة وعمر بن عتبة بلفظ : ما الإيمان ؟ قال « الصبر والسماحة » وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى في الزهد بلفظ : أى الأعمال أفضل قال « الصبر والسماحة وحسن الخلق » وإسناده صحيح (٣) حديث عبد الله بن عمرو « خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله ، فأما اللذان يحبهما الله لحسن الخلق والسخاء ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى دون قوله في آخره « وإذا أراد الله بعبد خيرا » وقال فيه « الشجاعة » بدل « حسن الخلق » وفيه محمد بن يونس السكندى كذبه أبو داود وموسى بن هرون وغيرهما ووثقه الخطيب ، وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو ، وروى الديلمى أيضا من حديث أنس « إذا أراد الله بعبد خيرا صير حوائج الناس إليه » وفيه يحيى بن شبيب ضعفة ابن حبان (٤) حديث المقدم بن شريح عن أبيه عن جده « إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام » أخرجه الطبرانى بلفظ « بذل الطعام وحسن الكلام » وفي رواية له « يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام » وفي رواية له « عليك بحسن الكلام وبذل الطعام » (٥) حديث أبي هريرة « السخاء شجرة في الجنة ... الحديث » وفيه « والشج شجرة في النار ... الحديث » أخرجه الدارقطنى في المستجاد وفيه عبد العزيز ابن عمران الزهرى ضعيف جدا (٦) حديث أبي سعيد « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في أكتافهم ... الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء والخرايطى في مكارم الأخلاق والطبرانى في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ، ورواه العقيلي في الضعفاء بلفظ « عبد الرحمن السدى » وقال لأنه مجهول ، وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غزه ابن القطان ، وتابعه عليه عبد النفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لأبأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدى ، ورواه الحاكم من حديث علي وقال لأنه صحيح الإسناد وليس كما قال .

(٧) حديث ابن عباس « تحافوا عن ذنب السخى فإن الله أخذ بيده كلما عثر » أخرجه الطبرانى في الأوسط والخرايطى في مكارم الأخلاق . وقال الخرايطى « أقبلوا السخى زلته » وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه ورواه الطبرانى فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من طريق الدارقطنى (٨) حديث ابن مسعود « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ... الحديث » لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ « الخير أسرع إلى البيت الذى يلقى » وفي حديث ابن عباس « يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير » ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر « الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء ... الحديث » وكلها ضعيفة (٩) حديث « إن الله جواد يحب الجود ومحبة معالي الأمور ويكره سفاسفها » أخرجه الخرايطى في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله ابن كريب وهذا مرسل والطبرانى في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد « إن الله كريم يحب الكريم ويحب معالي الأمور » وفي الكبير والبيهقى « معالي الأخلاق ... الحديث » وإسناده صحيح وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة

أعطاه ، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلبوا ؛ فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة ^(١) ، وقال ابن عمر : قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ، فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحوّلها إلى غيره ^(٢) ، وعن الهلالى قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسرى من بنى النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا ، فقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فإبال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « نزل على جبريل فقال : اقتل هؤلاء وارك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاء فيه ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لكل شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح ^(٤) » ، وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه ^(٦) » ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكثروا من شيء لا تأكله النار ، وقيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الجنة دار الأسخياء ^(٧) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإن البخيل بعيد من الله من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل ، وأدوأ الداء البخل ^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله ^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين ^(١٠) » ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

(١) حديث أنس : لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه . فأما رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين ... الحديث . أخرجه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة

(٢) حديث ابن عمر : « إن الله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السخي وفيه ابن وثقه ابن معين يرويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزدي (٣) حديث الهلالى : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا ... الحديث « وفيه : « فإن أشكر له سخاء فيه » لم أجده له أصلا (٤) حديث : « إن لكل شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح » لم أقف له على أصل (٥) حديث نافع عن ابن عمر : « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدقى فى عواليه رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان ولهم لمناهير ثقات إلا مقدم ابن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه .

(٥) حديث : « من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه » رواه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره » وفيه أحمد بن مهرا ن قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع ، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ، ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن عدى يروى من وحوه كلها غير محفوظة (٧) حديث عائشة « الجنة دار الأسخياء » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات . وقال الذهبي حديث منكر ما آفته سوى جعفر قلت رواه الدارقطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضعيف جدا (٨) حديث أبي هريرة « إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه « وأدوأ الداء البخل » ورواه بهـذـه الزيادة الدارقطنى فيه (٩) حديث : « اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مسرلا وتقدم فى آداب المعيشة (١٠) حديث : « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينى أورد ابن عدى له مناكيد ، وفى الميزان انه ضعيف منكر الحديث ، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المرى متكلم فيه .

الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى البلدة الجدية فيحبيها ويحيي به أهلها (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها (٢) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله الله يحب إعانة اللهفان (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة (٤) » وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت (٥) » . الآثار : قال على كرم الله وجهه : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تنفي ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى وأنشد :

لا تبخلن دنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالخذ منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن المروءة والتجدة والكرم فقال : أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيافته وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية . وأما التجدة فالذب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرافة بالسائل مع بذل التائل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعتي ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعتي . وقال ابن السماك عجبت لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعرفه . وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف يبذل ماله لطلابه لم يكن سخياً وإنما السخي من يبتدئ بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاماً . وقيل للحسن البصري ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة ألا وإن الله عز وجل يقول : إني جواد كريم لا يجاورني لئيم واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الأيمان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة

(١) حديث أبي سعيد « إن الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هرون العبدى عنه وأبي هرون ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه (٢) حديث « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ... الحديث » أخرجه ابن عديم والدارقطني في المستجاد والخرائطى والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلال وثقه ابن معين وضعفه الجمهور ، والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة (٣) حديث « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إعانة اللهفان » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية المجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مرفوعاً فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو بديل من حديث أنس أيضاً وفيها زياد الحميري ضعيف . (٤) حديث « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة » أخرجه الدارقطني في حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخرائطى كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين (٥) حديث جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم ... الحديث . وفيه « فقال لمن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » أخرجه الدارقطني في حديث أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

رضى الله عنه رب فاجر في دينه أخرج في معيشته يدخل الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلا في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل : أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتة فالمال لك

وسمى واصل بن عطاء : الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ؛ فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاهما شيئا . وقال الأصمعي كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ما وقي به العرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان والجلود بالمال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صررا إلى إخوانه . وقال قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال ؟ وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود . وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثرت أيادي عندي ، قيل : فإن لم يكن ، قال من كثرت أيادي عنده . وقال عبد العزيز بن مروان إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضجع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده . وقال المهدي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في دارى ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبدالله بن جعفر فقال :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوى القرابة أو دع

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين البيتين ليخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا وإن أصاب اللئام كنت له أهلا .

حكايات الاخياء

عن محمد بن المنكدر عن أم درة - وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها - قالت إن معاوية بعث إليها بمال في غراريتين ثمانين ومائة ألف درهم ، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أتمت قالت يا جارية هلم فطورى لجأتهما بخبز وزيت فقالت لها أم درة . ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتني لفعلت .

وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأقى وجوه قریش فقال يقول لكم غيب الله تغدوا عندي اليوم ، فأتوه حتى ملؤا عليه الدار ، فقال ما هذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا وخبزوا ، وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا ، فقال عبيد الله لو كلائه أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم ، قال فليتغذ عندنا هؤلاء في كل يوم .

وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة ، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية ، قال الحسن إن علينا ديناً فلا بد لنا من إتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه ، فروا عليه ببختي عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيأ وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية ما هذا ؟ فذكر له ، فقال اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد .

وعن واقد بن محمد الواقدي قال حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه ، فوقع المأمون على ظهر رقعته إنك رحل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذى أطلق

ما في يدك ، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك ، وإن لم أكن قد أصبت لجنايتك على نفسك . وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد ؛ عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام « يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله عز وجل إلى كل عبد بقدر نفقته ، فمن كثر كثر له ، ومن قل قل له وأنت أعلم »^(١) ، قال الواقدي : فوالله لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إلى من الجائزة وهي مائة ألف درهم .

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له : يا هذا حق سؤالك إياي يعظم لدى ومعرفتي بما يجب لك تكبر على ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير في ذات الله تعالى قليل ، وما في ملكي وفاء لشكرك ، فإن قلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت ، فقال : يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع ، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال : هات الفضل من الثلاثمائة ألف درهم ، فأحضر خمسين ألفا قال : فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال : هي عندي ، قال أحضرها ، فأحضرها فدفعت الدنانير والدرهم إلى الرجل وقال : هات من يحملها لك ، فأتاه بجاهلين فدفعت إليه الحسن رداه لكرام الخالين ، فقال له مواليه : والله ما عندنا درهم ! فقال : أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم . واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا : لنا جار صوام قوام يتعنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلها داره وفتح صندوقا فأخرج منه ست بدر فقال : احملوا ، فحملوا فقال : ابن عباس ما أنصفناه أعطينا ما يشغله عن قيامه وصيامه ، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

وحكى أنه لما أجذب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال : والله لأعلنن الشيطان أني عدوه ؛ فعال عاويجهم إلى أن رخصت الاسعار ، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف ، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب لإيهم ببيعها ودفعت الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تله صلاته .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل . بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا ، فقال : قد فعلت ، وحقه لأعطيتك ما يلبها ، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فدحه بعض الشعراء فقال للشاعر : والله ما عندى ما أعطيتك ولكن قدمني إلى القاضي وادع على بعشرة آلاف درهم حتى أقولك بها ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسا ، ففعل ذلك فلم يس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان معن بن زائدة عاملا على العراقيين بالبصرة فحضر بابيه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوما لبعض خدام معن : إذا دخل الأمير البستان فعرّفتي ، فلما دخل الأمير البستان أعلمه ، فكتب الشاعر بيتا على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها .

(١) حديث أنس « يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ... الحديث » وفي أوله قصة مع المأمون أخرجه الدارطني فيه وفي استاده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالمنع ولا يصح .

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيح

فقال : من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال له ، فأمر له بعشر بدر ، فأخذها ووضع الامير الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم ، فلما أخذها الرجل تفكر وعاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج ، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن : حق على أن أعطيه حتى لا يبق في بيت مالى ولا دينار .

وقال أبو الحسن المدائني : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حججا ففاتهم أمثالهم فجاءوا وعطشوا ، فمزوا بعجوز في خباء لها فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت نعم ، فأناخوا إليها وليس لها إلا شوية في كسر الخيمة فقالت : احلبوها وامتدقوا لبنها . ففعلوا ذلك ثم قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا ، إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهى لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعتنا سالمين فألمى بنا فإننا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال : ويلك تدبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ، ثم تقولين نفر من قريش ؟ قال : ثم بعد مدة ألجأتها الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلها وجعلنا يتقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعیشان بشمنه ، فمزت العجوز ببعض سكك المدينة ، فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكورة ، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها : يا أمة الله أتعرفيني ؟ قالت : لا قال : أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا ، فقالت العجوز : بأبي أنت وأمي أنت هو ؟ قال : نعم . ثم أمر الحسن فاشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين : بكم وصلك أخى ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألفي شاة وألفي دينار ، فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار ، وقال لها : لو بدأت بي لأتعبتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار .

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك فقلت أقيك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال : استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياتهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد ؛ فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيبياً معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين ، فقال له في النوم : نعم ، فباعه في النوم بعيره بنجيبي ، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم ، فانتبه الرجل من نومه فإذا الدم يشج من نحر بعيره ، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب ، فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منكم ؟ - باسم ذلك الرجل - فقال : أنا ، فقال له هل بعث من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر ، قال : نعم بعث بعيرى بنجيبي في

النوم ، فقال : خذ هذا نجيبه ، ثم قال : هو أبى وقد رأيته في النوم وهو يقول : إن كنت ابني فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان وسماء .

وقدم رجل من قریش من السفر فز برجل من الاعراب على قارة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض ، فقال : يا هذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه : مابق معك من النفقة فادفعه إليه ، فصب الغلام في حجر الاعراب أربعة آلاف درهم ، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف ، فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقلت ما أعطيناك ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله : ما هؤلاء ؟ قالوا يبكون لدارهم ، فقال يا غلام انهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا .

وقيل بعث هرون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار ؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار ، فغضب هرون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيى ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن لي من غلاتي كل يوم ألف دينار ؛ فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عسل ، فأمر لها بزق من عسل ، فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا ؟ فقال . إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا .

وقال الأعمش : اشتكت شاة عندى فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ماتحت اللبد ، حتى وصل إلى في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرا .

وقال عبد الملك بن مروان لاسماء بن خارجة : بلغنى عنك خصال فحدثنى بها ، فقال : هى من غيرى أحسن منها منى ، فقال : عزمت عليك إلا حدثتني بها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين مامددت رجلى بين يدي جاليس لي قط ، ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على منى عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألنى شيئا فاستكثر شيئا أعطيته إياه .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سألَه صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

لما سمعت مع الصباح مناديا يامن يعين على الفقى المعوان

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : دينى ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دينك ومثله .

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ لإخوانه فقبل له : لإنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال : أخرى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء ، قال : فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده .

وعن أبي إسحق قال : صليت العصر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريما لي ، فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان ، فقلت : لست من أهل هذا المسجد ، فقالوا : إن الأشعث بن قيس الكندى قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين .

وقال الشيخ أبو سعد الحرکوشي النيسابوري رحمه الله : سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود قال : فجئت إليه وقلت له : ولد مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء ، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحمه الله كنت تفعل وتصنع وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء ، قال : ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولني نصفه ، وقال : هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء ، قال : فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال : فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال : سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ، ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فأحلبها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له : اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم وليس لرؤيائكم حكم ، فقالوا : هو يتسخر منّا ولا نتسخر من أحياء ؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها دينارا فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر ، وقال : يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أي هؤلاء أسخى ؟

وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مروا فلانا يغسلني ، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال : ائتوني بتذكركه ، فأتى بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين ، فسكتها على نفسه وقضاها عنه ، وقال هذا غسلي إياه ؛ أي أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحرکوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيبا الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان شيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكبا حماره فحركة فأنقطع زره ، فتر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلها إلى الخياط واعتذر إليه من قتلها ، وأشد الشافعي رحمه الله لنفسه :

يا لهف قلبي على مال أجود به على القليلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني مائس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال ياربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عنى وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ففرض خبائه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال ، وكان قلما يمسك شيئا من سماعته ، فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك ، قال فخرج ثم قدم علينا فساءلته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها ، ولكني بنيت ببنى مضربا يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول .

أرى نفسي تتوق إلى أمور يقصر دون مبلغها مالى
فنفسي لا تطاوعني ببخل ومالى لا يبلغني فعلى

وقال محمد بن عباد المهلبى . دخل أبى على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه عاتبه المأمون فى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، فوصله بمائة ألف أخرى .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلاً فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيه ما يصلحه ، وقال . عسى أن أقوم من مرضى فأكافئه ، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرتجى من الصنف

كما الدرهم والدنانير فى البيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه . كم أقام بالباب ؟ قال . شهرين ، قال . أعطه ثلاثين ألفاً وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم نقتل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة . قد تهيأ مالك فأقبضه ، فقال . هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك . وقالت سعدى بنت عوف . دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غنيت ، فقلت وما يغملك ادع قومك ؟ فقال يا غلام على بقوى ، فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال : أربع مائة ألف . وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرّب إليه برحم فقال : إن هذه الرحم مأسألتى بها أحد قبلك ، إن لى أرضاً قد أعطانى بها عثمان ثلثمائة ألف فإن شئت فأقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن . وقيل بكى على كرم الله وجهه يوماً فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهاننى .

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال ، ما جاء بك ؟ قال على أربع مائة درهم دين ، فوزن أربع مائة درهم وأخرجها إليه وعاد يسكى ، فقالت امرأته لم أعطيتك إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أنفقد حاله حتى احتاج إلى مفتاحي فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

بيان ذم البخل

قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح »

(١) حديث « إياكم والشح » .. الحديث ، أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ « واتقوا الشح فإن الشح .. الحديث » ولأبي داود والنسائي فى الكبرى وابن جرير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح » =

فإنه دعا من كان قبلكم ففسكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة بخيل ولا بحب ولا خائن ولا سبيء الملسكة ^(٢) ، وفي رواية : ولا جبار ، وفي رواية : ولا منان ، وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهاسكات ؛ شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يبغض ثلاثة : الشيخ الزاني ، والبخيل المنان ، والمعيل المختال ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن تديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنائه ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بترافيه فهو يوسعها ولا تتسع ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أورد إلى أرذل العمر ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالسكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : شر ماى الرجل شح هالع وجبن خالع ^(٩) وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت : واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه ^(١٠) ، وقال جبير بن مطعم : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ غلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطرروه إلى سمررة فخطفت رداه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فقال : أعطوني رداي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العصاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ^(١١) ، وقال عمر رضى الله عنه : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقلت غير هؤلاء كان أحق به

== أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا (١) حديث « إياكم والشح فإنه دمان كان قبلكم ففسكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ « حرمتهم » مكان « أرحامهم » وقال صحيح على شرط مسلم (٢) حديث « لا يدخل الجنة بخيل ولا حب ولا خائن ولا سبيء الملسكة » وفي رواية « ولا منان » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله « ولا منان » فهي عند الترمذي وله وابن ماجه « لا يدخل الجنة سبيء الملسكة » (٣) حديث « ثلاث مهاسكات ... الحديث » تقدم في العلم (٤) حديث « إن الله يبغض ثلاثة : الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقر المختال » أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله « البخيل المنان » وقال فيه « المعنى الظلوم » وقد تقدم ولطبراني في الأوسط من حديث علي « إن الله يبغض الدين الظلوم والشيخ الجهول والمعالل المختال » وسنده ضعيف (٥) حديث « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب (٧) حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن .. الحديث » أخرجه البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار (٨) حديث « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « أمرهم بالسكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا » قال عوصاً عنها « وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا » وكذا رواه أبو داود على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسعة أحاديث وأسلم من حديث جابر « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح » فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش .

(٩) حديث « شر ماى الرجل شح هالع وجبن خالع » أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد (١٠) حديث « وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وللبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت ليهنك الشهادة وهو عند الترمذي : إلا أن رجلاً قال له أبقر بالجنة (١١) حديث جبير بن مطعم . بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر غلقت الأعراب به ... الحديث » أخرجه البخاري وتقدم في أخلاق النبوة .

منهم ؟ فقال ، إنهم يخبروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل ^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين ؛ فخرجا من عنده فلقبهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالوا معروفا وشكرا ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوا . فقال صلى الله عليه وسلم ، لكن فلان أعطيته مائتين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار ؛ فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال « يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل » ^(٢) ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجود من جود الله تعالى لجودوا يحمد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود ليجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوبى ، وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا ، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ، ألا إن السخاء من الإيمان ، والإيمان في الجنة . وخلق البخل من مقتته وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار » ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي ، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل » ^(٤) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بني لحيان « من سيديكم يابى لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جد بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل ، فقال صلى الله عليه وسلم « وأى دام أدوأ من البخل ولكن سيديكم عمرو بن الجوح » ^(٥) ، وفي رواية أنهم قالوا : سيدنا جد بن قيس ، فقال « بهم تسودونه ؟ » قالوا : إنه أكثر مالا وأنا على ذلك لنرى منه البخل ، فقال عليه السلام « وأى دام أدوأ من البخل ليس ذلك سيديكم ، قالوا : فمن سيدنا يارسول الله ؟ قالوا « سيديكم بشر بن البراء ، وقال على رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض البخيل في حياته السخي عنه موته » ^(٦) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل ^(٧) ، وقال أيضا : قال صلى الله عليه وسلم « الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد » ^(٨) ، وقال أيضا « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق » ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جباناً » ^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول قائلكم الشحيح عليه »

(١) حديث عمر : قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما ... الحديث « وفيه » ولست بباخل « أخرجه مسلم
(٢) حديث أبي سعيد : في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبهما عمر فأثنيا وقالوا معروفا ... الحديث . وفيه « ويأبى الله لي البخل » رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد : لئنهما سألاه ثمن بعير . ورواه الزرار من رواية أبي سعيد عن عمرو بن لحيان أسانيدهم ثقات (٣) حديث ابن عباس « الجود من جود الله لجودوا يحمد الله لكم ... الحديث » بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أقف له على إسناد (٤) حديث « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج في الجنة إلا سخي .. الحديث » تقدم دون قوله « فلا يلج في الجنة » إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له ولده في مسنده .

(٥) حديث أبي هريرة « من سيديكم يابى لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جد بن قيس ، ... الحديث « أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ « يابى سلمة » « وقال سيديكم بشر بن البراء ، وأما الرواية التي قال فيها « سيديكم عمرو بن الجوح » فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن (٦) حديث علي « إن الله يبغض البخيل في حياته السخي عنه موته » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أجده له إسنادا (٧) حديث أبي هريرة « السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل » أخرجه الترمذي بلفظ « ولجاهل سخي » وهو بقية حديث « إن السخي قريب من الله » وقد تقدم (٨) حديث أبي هريرة « لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد » أخرجه النسائي وفي إسناده اختلاف (٩) حديث « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم (١٠) حديث « لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلا » لم أره بهذا اللفظ .

أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم عند الله من الشح ، حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل (١) .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم : وما ذنبك صفه لي ؟ ، فقال : هو أعظم من أن أصفه لك ! فقال : ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ ، فقال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الجبال ؟ ، قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم البحار ؟ ، قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم السموات ؟ ، قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم العرش ؟ ، قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الله ؟ ، قال : بل الله أعظم وأعلى ، قال : ويحك فصف لي ذنبك ؟ قال : يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار ، فقال صلى الله عليه وسلم : «إليك عني لا تحرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لوقفت بين الركن والمقام ثم صلت ألني ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لا كبرك الله في النار ، ويحك ! أما علمت أن البخيل كفر وأن الكفر في النار ، ويحك ! أما علمت أن الله تعالى يقول ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . . . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) . »

الآثار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما خلق الله جنة عدن قال لها تزيني فتزينت ، ثم قال لها : أظهرى أنهارك فأظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحملك وحور عينك فأظهرت فنظر إليها فقال تسكلمي فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزتي لا أسكنك بخيلا . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخيل لو كان البخيل قبيصاً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر : كان يقال إذا أراد الله بقرم شراً أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته : إنه سيأتي على الناس زمان عضوض بعض الموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال عبد الله بن عمرو : الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه ، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي لا أدرى أيهما أبعد غوراً في نار جهنم البخيل أو الكاذب ؟ وقيل ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي : تسكلم ، فقال : خير الناس من ألني سخياً وعند الغضب وقورا وفي القول متأنياً وفي الرفعة متواضعاً وعلى كل ذي رحم مشفقاً . وقام الرومي فقال : من كان بخيلاً ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجس وأهل الكذب مذمومون وأهل النيمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أعلا لاً ﴾ قال : البخيل ، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى . وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان اللهم عجل لممسك تلفساً

(١) حديث « يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح . الحديث » وفيه « لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل » لم أجده بتمامه وللترمذي من حديث أبي بكر « لا يدخل الجنة بخيل » وقد تقدم (٢) حديث : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي . الحديث « في ذم البخيل وفيه قال «إليك عني لا تحرقني بنارك . . . الحديث » بطوله وهو باطل لا أصل له .

وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لأن البخيل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كثر الله وجهه والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ وقال الجاحظ ما بقى من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنك إذا لبخيل ، ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا قال : « فما خيرها إذا » (١) ، وقال بشر النظر إلى البخيل يتسنى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وقال يحيى بن معاذ ما في القلب للأستخياء إلا حب ولو كانوا فجارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه . ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام . إبليس في صورته فقال له : يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال : أحب الناس إلى المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخي ، قال له : لم ؟ قال : لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطالع الله عليه في سخائه فيقبله ، ثم ولي وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طباهجة ببيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به السكر والموت ، فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال : لا بأس عليك ؛ تقياً ما أكلت ، فقال : هاه ! أتقياً طباهجة ببيض ؟ الموت ولا ذلك . وقيل : أقبل أعرابي يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابي فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا ؟ قال : نعم ، فقرأ ﴿ ... والزيتون وطور سينين ﴾ فقال : وأين التين ؟ قال : هو تحت كسائك . ودعا بعضهم أخا له ولم يطعمه شيئا ، فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذ مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك ؟ قال : صوت المقل . ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل : صف لي مائدته فقال : هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش ، قيل فمن يحضرها ؟ قال : الكرام السكاتبون ! قال : فما يأكل معه أحد ؟ قال : بلى الذباب ، فقال : سوائك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق ، قال أنا والله ما أقدر على لبرة أخيطه بها ، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة ملوا لبرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه لبرة ويسألونه إعارتهم لإياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما فعل ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقتل له . نراك لا تأكل إلا الرءوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال نعم الرأس أعرف سعره فأمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبن في فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ، إن مس عيننا أو أذنا أو خذا وقفنا على ذلك ، وآكل منه ألوانا ، عينه لونا ، وأذنه لونا ، ولسانه لونا ، وغلصمته لونا ، ودماغه لونا ، وأكنى مؤونة

(١) حديث : مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا ... الحديث « تقدم في آفات اللسان .

طبخه ! فقد اجتمعت لي فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال : إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما ! فأعطى ستين ألفاً فأعطاهما أربعة دنانق . واشترى مرة لحماً بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق ! وقال : أكره الإسراف . وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً ! فيأبى عليه الأعمش ، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال : سر بنا ، فدخل منزله فقرب إليه كسرة وملحاً ، فجاء سائل فقال له رب المنزل : بورك فيك ، فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك ، فلما سأل الثالثة قال له اذهب والله وإلا خرجت إليك بالعصا ! قال فناداه الأعمش وقال اذهب ويحك ! فلا والله مارأيت أحداً أصدق مواعيد منه ! هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فوالله ما زادني عليهما !

بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجة السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة . وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد . وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخر الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوة فلا يمنع منها إلا البخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجاناً لآكلها . فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء . وقد أثنى الله على الصحابة ورضي الله عنهم به فقال ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيما امرئ اشتبه شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له ^(١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكننا كننا نؤثر على أنفسنا ^(٢) ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من ضيفكم الليلة إلى ضيفكم . ونزلت ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ^(٣) فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ؛ والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال سهل بن عبد الله التستري قال موسى عليه السلام ، يارب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ! فقال يا موسى إنك إن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازل جليمة عظيمة فضلتها بها عليك وعلى جميع خلق ، قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها

(١) حديث « أيما رجل اشتبه شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له » أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم . (٢) حديث عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ولو شئنا لشبعنا ولكننا كننا نؤثر على أنفسنا . أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ : ولكننا كننا نؤثر على أنفسنا . وأول الحديث عند مسلم بلفظ : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى ليلة . ولشبعين : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعاً حتى قبض زاد مسلم : من طعام . (٣) حديث : نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله . الحديث . في نزول قوله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣٣ - إحياء علوم الدين - ٣)

من الله تعالى ، فقال : يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال : بخلق اختصاصته به من بينهم وهو الإيثار ، ياموسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسناته ، وبوأتته من جنتي حيث يشاء : وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه : إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثانى والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت ! قال فلم آثرت به هذا السكب ؟ قال ما هى بارض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال ! قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال : أطوى يومى هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ! إن هذا الغلام لاسخى منى ، فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعنتى الغلام ووهبه منه . وقال عمر رضى الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى كان أحوج منى إليه فبعث به إليه ، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول . وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : لى أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاخترارا كلاهما الحياة وأحباها : فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب أخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل عليه السلام يقول : يخرج من مثلك يابن أبى طالب والله تعالى يباهى بك الملائكة ! فأنزل الله تعالى ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾ (١) وعن أبى الحسن الانطاكى : أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً - وكانوا فى قرية بقرب الرى - ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئاً لإيثاراً لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء ؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمى لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمل سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ... فأشار ابن عمى إلى أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه ... فأشار هشام انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهقان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل فى مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قيصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوباً فمات فيه . وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد ، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بداية ميتة فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً ، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب فى الميتة ، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد ، فقام ذلك الكلب

(١) حديث : بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل لى أخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ... الحديث . فى نزول قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ أخرجه أحمد مختصراً من حديث ابن عباس : شرى على نفسه فليس ثوب النبى صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ... الحديث . وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أفهم هذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكر .

وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلاً ثم انصرف .

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حدّ البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً ، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ولا جله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطابقاً لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حدّ السخاء الذي يستحق به البعد صفة السخاوة وثوابها ؟ فنقول : قد قال قائلون حدّ البخل منع الواجب ، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخل ، وهذا غير كاف ؛ فإن من يرد اللحم مثلاً إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعدّ بخيلاً بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرضه القاضي ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه أو ثمرة أكلوها من ماله يعدّ بخيلاً . ومن كان بين يديه رغيف لحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عدّ بخيلاً . وقال قائلون البخيل هو الذي يستصعب العطية ، وهو أيضاً قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالخبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا في الجود ، فقيل الجود عطاء بلا من وإسعاف من غير روية . وقيل : الجود عطاء من غير مسألة على روية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر . وقيل : من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ، ومن قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل .

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل ، بل نقول : المال خلق للحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ؛ إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء ، وقد قيل له ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفي أن يفعل ذلك بموارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه . فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصار بها فهو متسخر وليس بسخي ، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذى يجب بذله ؟ .

فأقول : إن الواجب قسمان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسكى بالتسكف ، أو الذى يقيم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل .

وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات ، فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومما يسيك مالا يستقبح مع الأجانب ، ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ، ويستقبح فى الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح فى المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة فى ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب ، إذ يستقبح فى الأطعمة ما لا يستقبح فى غيرها ، ويستقبح فى شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح فى غيره من المضايقة . وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي . وبين منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير . فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . وأهل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال ، فإنّ صيانة الدين أهم من حفظ المال ، فالنكاح والزكاة والنفقة بخيل . وصيانة المروءة أهم من حفظ المال ، والمضايقة فى الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هانك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ويحفظ المروءة ويمكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين ، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجاته فى الآخرة ، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس ببخل عند عوام الخلق ، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكهم لدفع نوائب الزمان مهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه إن كان فى جواره محتاج فتنعه وقال : قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيرها . ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاحيته واستحقاقه . فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجب الشرع ولا تتوجه إليه الملامة فى العادة فهو جواد بقدر ما تنسج له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ما توجه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع فى الشكر والثناء فهو بيع وليس بجواد ، فإنه يشتري المدح بماله والمدح لذىذ وهو مقصود فى نفسه ، والجود هو بذل الشيء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى ، أما الأدنى فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا

الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً ، فإن كان الباحث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعراض معجلة له عليه فهو معتاض لأجواد ، كما روى عن بعض المتعبدات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سلى عما شئت - وأشاروا إلى حبان بن هلال - فقالت : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء والذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين ؟ قالوا : أن نعبد الله سبحانه بحية بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت : فتريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا : نعم ، قالت ولم ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت سبحان الله ! فإذا أعطيت واحدة وأخذتم عشرة فبأي شيء تسخيتم عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت السخاء عندي أن أعبدوا الله متعبدين متلذذين بطاعته غير كارهين لا يريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ! ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء ؟ إن هذا في الدنيا لقبيح ! وقالت بعض المتعبدات أتحمسون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندي في المهج . وقال المحاسبي السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسباحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا أجلاً ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك .

بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سيان أحدهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام « الولد مبخله مجبنة بجملة ^(١) » ، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بجميعة الرزق قوى البخل لا محالة .

السبب الثاني : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيق أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة ، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه : مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله ، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبته لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيد ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب المال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فتعالج حب الشهوات بالقناعة

(١) حديث « الولد مبخله » زاد في رواية « مجزنة » ابن ماجه من حديث يعل بن مرة دون قوله « مجزنة » رواه بهذه الزيادة أبو يعل والبخاري من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح .

باليسير وبالصبر ، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه ، بعلم . وتعالج التفتات القلب إلى الولد بأن خاتمه خلق معه رزقه ، وكَم من ولد ولم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث ؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقيا صالحا فانه كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مضلته إليه . ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له ، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستغل كل بخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستغل ومستغذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق ؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذه . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة حاجت رغبته في البذل إن كان عاقلا ، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الحاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصد عنه .

حكى أن أبا الحسن البرسنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذا له وقال : أنزع عني القميص وادفعه إلى فلان ، فقال : هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال : لم آمن على نفسي أن تتغير ، وكان قد خطر لي بذه ! ولا نزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كما لا يزول العشق إلا بفارقة المشوق بالسفر عن مستقره ؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلي عنه قلبه ، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله ، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له . ومن لطائف الخيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ، ولكن ينطفئ بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كاتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما يسلي الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخيل واللعب ، ولكن لينفك عن الثدي إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورتها بها ، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر دعوتها به ، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل الأقوى بالاضعف ، فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من علة يزيد في أخرى مثلها ، إلا أن علامة ذلك أن لا يشغل عليه البذل لأجل الرياء ، ولذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه ، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه .

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ، ويجعل الاضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بحورها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها . ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضي لا عمالة أعمالا ، وإذا خولفت خدات الصفات وماتت . مثل البخل فإنه يقتضي إمساك

المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه ، فإن علاج البخل بعلم وعمل ، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التسكف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويهم فيمنع تحقق المعرفة فيه ، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توهم في مريد فرحه بزأوته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خفياً لا يميل إليه قلبه .

فهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها ، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه أملت به مصيبة بقدر حبه له ، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه ، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك .

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : أراه مصيبة أو فقراً ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقير ، ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال : صدق الحكماء لئنه لم يحمل إلينا وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار ، وعدوة أولياء الله إذ تغهم بالصبر عنها ، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس . والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير ، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى ينفى ، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس يبخل ، ولا يحتاج إليه ، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله ، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كالساطان ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه .

الثالثة : في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة ، والحاجة

ملبس ومسكن ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان محقا ويحىء من جملة المحققين ، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد .

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتركا ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه ، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على رضى الله عنه : لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة ، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة ، فإذا كان ذلك قصداً بهما صار ذلك عبادة في حقك . وكذلك ينبغي إن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قيص وإزار وفراش وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن يفتنع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأق ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه . والعامى إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدتها ، فيأخذها اقتداء به فتقتله في الحال ، إلا أن قتييل الحية يدرى أنه قتييل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل :

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المحسة لانث

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطي قلال الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فحال أن يتشبه العامى بالعالم الكامل في تناول المال .

بيان ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر - وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه - ولكننا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال ، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبى رضى الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبى رحمه الله خبر الأمة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه . وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال : يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تمحكون ، تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ؛ كذلك أنتم

تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم ؛ يا عبید الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ؛ بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ؛ فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للدجلين وتقيمون في محل المتحيرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركبوها لكم ، مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة ! يا عبید الدنيا لا كعبید أتقياء ولا كأحرار كرام ؛ توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلككم إلى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سواآتكم ثم يجرىكم بسوء أعمالكم . ثم قال الحارث رحمه الله : إخواني فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنه على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة ، وادلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد : فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره بمزج بالتنغيص ، فبتهجر عنه أنواع الهوم وفنون المعاصي وإلى البوار والتلف مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم يبق له ديناه ولم يسلم له دينه ﴿ خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ فيألفها من مصيبة ما أظلمها ورزية ما أجلمها ، ألا فراقبوا الله إخواني ولا يغترنكم الشيطان وأوليأؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويرغمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهام الشيطان وما يشعرون . ويحك أيها المفتون إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فهلك ! لأنك متى زعمت أن أختيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد إزدريت محمداً والمرسلين ؟ ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغب فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح الأمة إذ نهاهم عن جمع المال ^(١) وقد علم أن جمع المال خير للأمة ؟ فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فلقد كان للأمة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رموفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم ؟ أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل لذلك رغبتي في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون ؟ تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ! ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبسد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا ؟

(١) حديث : انتهى عن جمع المال . أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود « ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من العاجرين ... الحديث » ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث « لا تجمعوا مالا تأكلون » وكلاما ضيف .

وقد بلغنى أنه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ! فقال كعب : سبحان الله ! وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً ! فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مغضباً يريد كعباً فمر بعظم لحي بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعباً ، فقيل لكعب . إن أبا ذر يطلبك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، وأقبل أبو ذر يقص الأثر فى طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يا ابن اليهودية ! تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه فقال : يا أبا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم ، ثم قال : يا أبا ذر ، قلت : نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، قال : « ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفق فى سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين » قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال : بل قيراطان ، ثم قال : يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل ^(١) ، فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ كذبت وكذب من قال ! فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها : ما هذا ؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن ، قالت : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً ، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حبوا ^(٢) » فقال عبد الرحمن : إن العير وما عليها فى سبيل الله ، وإن أرقاءها أحراراً لعل ادخلها معهم سعياً .

وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف : أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت أن تدخلها إلا حبوا ^(٣) .

ويحك أيها المفتون ، فما احتججك بالمسال وهذا عبد الرحمن فى فضله وتقواه وصنائه المعروف وبذله الأموال فى سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراه بالجنة ^(٤) أيضاً يوقف فى عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف واصنائع المعروف ، وأنفق منه قصداً ، وأعطى فى سبيل الله سمحاً ،

(١) حديث أبي ذر : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا ... الحديث « متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف : كسب طيباً وترك طيباً . ولا نسكار أبي ذر عليه ؟ فلم أقف على هذه الزيادة إلا فى قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغنى كما ذكره المصنف ، وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخضر من هذا ولا يكف : إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لى ذهباً ... الحديث . وفيه ابن لهيعة (٢) حديث عائشة « رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً .. الحديث » فى أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصراً فى كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين ، وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه (٣) حديث : أنه قال « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت تدخلها إلا حبوا » أخرجه البزار من حديث أسد ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف « يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً » وقال صحيح الإسناد قلت : بل ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور (٤) حديث : بصر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . أخرجه الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديثه « أبو بكر فى الجنة ... الحديث » وفيه « وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة » وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخارى والترمذى وهذا أصح .

منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو في آثامهم حبوا ؟ فإظنك بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا ؟ وبعد : فالعجب كل العجب لك يامفتون تتمرغ في تخاليط الشبهات والسحت ، وتتكاكب على أوساخ الناس ، وتتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة ، وتتقلب في فتن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ؟ ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه ! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائلك وفضل الصحابة . ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله ، فكسبوا - لالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يذموا منها حقا ، ولم يبنخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا ، فبالله أكذاك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وبعد : فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبالله في أرزاقهم واثقين ، وبمقادير الله مسرورين ، وفي البلاء راضين ، وفي الرخاء شاكرين ، وفي الضراء صابرين ، وفي السراء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين . لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم بالبلغه منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهرتها . فبالله أكذاك أنت ؟

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا : ذنب عجبات عقوبته من الله ، وإذا أروا الفقر مقبلا قالوا : مرحباً بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيبا حزينا ، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحا مسرورا ، فقل له : إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت است كذاك ! قال : إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ، وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا : مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن تعاهدنا ربنا . فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذاك أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم ، وذلك أنك تطغى عند الغنى ، وتبطر عند الرخاء ، وتبرح عند السراء ، وتغفل عن شكر ذى النعماء ، وتغفل عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة ؛ وذلك نخر المرسلين وأنت تأنف من نخرهم . وأنت تذخر المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه ، وكفى به إثما ، وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمتى الذين غدوا بالنعيم فربت عليهم أجسامهم ^(١) » ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليحىء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيالها حسرة ومصيبة ! نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لى الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو

(١) حديث « شرار أمتى الذين غدوا بالنعيم ... الحديث » تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه « من أسف على دنياه فاته من الناموسيرة سنة » ،

نعم وعساك المسك في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره ، وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ؛ وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنيا فاتته أقرب من النار مسيرة شهر . وقيل سنة . » وأنت تأسف على ما فاتك غير مكثرت بقربك من عذاب الله . نعم ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورها بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه ^(١) » ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تعنى بأمور دنياك أضعايف ماعنى بأمور آخرتك ، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك ، ونعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب ، وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا ، وعساك ترضى المخلوقين مساخطاً لله تعالى كما تكرم وتعظم . ويحك ! فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك ، وعساك تخفى من المخلوقين مساويلك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العبيد أعلى عندك قدراً من الله ، تعالى الله عن جهلك ! فكيف تنطق عند ذوى الألباب وهذه المثالب فيك ؟ أف لك ! متلوناً بالأقدار وتحتج بمال الأبرار ؟ هيهات هيهات ما أبعدك عن السلف الأخيار ، والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهى منكم فيما حرم عليكم ، إن الذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم ، وكاوا للزلة الصغيرة أشد استعظاماً منكم لكبائر المعاصي ، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم ؟ وليتك أشفقت من سيناتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل ؟ ليت صومك على مثال إفطارهم ؟ وليت اجتهادك في العبادة مثل فتورهم ونومهم ؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال : غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ونهمتهم ما زوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة ، فسبحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ؟ فريق خيار الصحابة في الملوعند الله وفريق أمثالك في السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله .

ويعد : فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام ، أفطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط ؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك ! ويحك ! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من اجتراً على الشبهات أو شك أن يقع في الحرام ^(٢) » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتراب الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات ، وبذلك في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهما واحداً مخافة أن لا يكون حلالاً خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى

(١) حديث « من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه » لم أجده إلا بلافا للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث « من اجتراً على الشبهات أو شك أن يقع في الحرام » متفق عليه من حديث الزهري بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

أيحل لك أم لا ؟ فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ! ويحك ! إن كنت كما زعمت بالغا في الورع فلا تتعرض للحساب ، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة ، وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ما سرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجمعة ، قالوا : ولم ذاك رحمه الله ؟ قال : لاني غني عن مقام يوم القيامة فيقول عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت ؟ فهو لاء المتقون كانوا في جده الإسلام والحلال موجود لديهم ، تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره ، وأنت بغاية الأمن والحلال في دهرك مفقود . تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال ، ويحك ! أين الحلال فتجمعه

وبعد : فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ؟ أفطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق في أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمانة بالسوء ، ويحك ! إني لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من نوقش الحساب عذب ^(١) . وقال عليه السلام : يؤتى رجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حلال فيقال له : قف لعلك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها ، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئا فرضت علي ، فيقال : لعلك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم أباه في شيء ، فيقال : لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئا مما فرضت علي ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتني أن أعطيه ، قال : فيجىء أولئك فيخاصمونهم فيقولون : يارب أعطيتهم وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا ، فإن كان أعطاهم وما ضيع من ذلك شيئا من القرائض ولم يختل في شيء فيقال : قف ، الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل ^(٢) ، ويحك فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى القرائض بحدودها ، وحسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرق في فتن الدنيا وتخاليطها وشبانها وشهواتها وزينتها ؟ ويحك ، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال - بزعمك - للتعفف والبذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله في شيء من سرارك وعلايتك ويحك فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد يذنبى لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيل الأول في

(١) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل

زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للسأله والحساب ، فأما سلامة وإما عطب . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام ^(١) ، وقال عليه السلام : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتُم فيما أعطيتكم ^(٢) ،

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال . ما سرفى أن لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه . يا قوم فاستبقوا السباق مع المخفين فى زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين . لقد بلغنى أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خنفته العبرة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد فى البكاء ، فلما أكثر البكاء قيل له : أكل هذا من أجل هذه الشربة؟ قال : نعم ، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد فى البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول : إيليك عني ! ، فقلت له . فذاك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحداً فمن تخاطب ؟ فقال : هذه الدنيا تطاولت إلى بعنقها ورأسها فقالت لى . يا محمد خذنى ، فقلت . إيليك عني ، فقالت . إن تنج منى يا محمد فإنه لا ينجو منى من بعدك ، فأخاف أن تكون هذه قد لحقتى تقطعن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) يا قوم فهؤلاء الأخبار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ! ويحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ؟ أف لك ما أعظم جهلك ! ويحك فإن تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتتظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء ، ولئن قصرت عن السباق فليطوان عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير ، ولئن لم تنقذ بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ؛ ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن فى أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت وبعد . فإن زعمت أنك فى مثال خيار السلف ، قانع بالقليل ، زاهد فى الحلال ، بذول لمالك ، موثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئاً لغدك ، مبغض للتسكائر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعفة ، كاره للعلو والرفعة قوى فى أمرك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الله ، وحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ولن توقف فى المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين . وإنما تجمع المال الحلال للبدل فى سبيل الله ، ويحك أيها المفرور فتدبر الأمر وأمعن النظر ! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكر والفكر والاعتبار . أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للسأله وآمن من روعات القيامة وأحز للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً . بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال . لو أن رجلاً فى حجره دنانير يعطيها والآخري يذكر الله لكان

(١) حديث « يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بن أنس عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فىأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فىقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتُم فيما أعطيتكم » .

(٢) حديث « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون » . الحديث . لم أره أصلاً (٣) حديث : أن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل . فى دفع النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله « إيليك عني » أخرجه البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال : كنا عند أبى بكر فعدا بغير أبى بكر فأتى بماء وعسل ... الحديث . قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا الكتاب .

الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه ابتغى به . وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ، أحدهما . طلب الدنيا حلالاً فأصابها ، فوصل بها رجه وقدم لنفسه . وأما الآخر . فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها ، فأيهما أفضل ؟ قال . بعيد والله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها . ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ، ولك فى العاجل إن تركت الاستغفال بالمال ، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهموك . فما عذرک فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل .

وبعد . فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكارم الاخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبه الدنيا . ويحك ! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبه الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى سابقاً إلى جنة المأوى . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء ، وإذا استقرض لم يجد قرضاً ، وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه ، ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه ، يمسى مع ذلك ويصبح راضياً عن ربه » (١) فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٢) ، ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعهم ، لا ! ولكنك خوفاً من الفقر تجمعهم ، ولتعم الزينة والتسكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتسكربة تجمعهم ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال : ويحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فكن مقراً أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجانبه الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزرياً على نفسك معترفاً بإساءتك وجلاً من الحساب ، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجاج لجمع المال . إخوانى اعلوا أن دهر الصحابة كان الحال فيه موجوداً وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقوداً ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة . فأما جمع المال فى دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه .

وبعد : فأين لنا بمن تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل ضيائهم وحسن نياتهم ؟ دهينا ورب السماء بادواء النفوس واهوائها ، وعن قريب يكون الورود ؛ فيأسعادة الخفين يوم النشور وحزن طويل لأهل التسكاثر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبائهم والقابلون لهذا قليل . وفقنا الله وإياكم فكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا ، وفى كتاب الفقر والزهد .

ويشهد له أيضاً ما روى عن أبي أمامة الباهلى : أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : « يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » ، قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : « يا ثعلبة أمالك فى أسوة أمارضى أن تكون مثل نبي الله تعالى ؟ أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهباً وفضة لسارت » ، قال : والذى بعثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، ولأفعلن ولأفعلن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فأتخذ غنيا فمات كما ينمو الدود ، فضائق

(١) حديث « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء ... الحديث » عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مضمناً لفظ « سادة الفقراء فى الجنة ... الحديث » ولم أره فى معجم الطبراني .

عليه المدينة ففتحها عنها فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ماسواهما ، ثم نمت وكثرت فتحتى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة ، وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة ، وطفق يلقي الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال : ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ ، فقيل : يارسول الله اتخذ غنما فضاعت عليه المدينة ؛ وأخبر بأمره كله ، فقال : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ! قال وأنزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم على الصدقة ، وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجوا فيأخذوا من المسلمين : وقال : مرا بشعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بنى سليم - وخذا صدقاتهما : فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إليه فعزها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ؛ فلما رأوها قالوا : لا يجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك ، قال بلى خذوها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بشعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرونى كتابك ، فنظر فيه فقال : هذه أخت الجزية ! انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال يا ويح ثعلبة ، قبل أن يكلماه ودعا للسليمي فأخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السليمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلا وبه وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال : لا أم لك يا ثعلبة ! قد أنزل الله فيك كذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله منعى أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحشو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك أمرتك فلم تطعنى ، فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وتوفى ثعلبة بعد في خلافة عثمان ^(١) فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ، ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كانت لى من رسول الله منزلة وجاء فقال : يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ، فقلت : نعم بأنى أنت وأمى يارسول الله ، فقام وقت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال : السلام عليكم أدخل ؟ ، فقالت : ادخل يارسول الله قال أنا ومن معى ؟ ، قالت ومن معك يارسول الله ؟ فقال عمران بن حصين ، فالت : والذى بملك بالحق نبيا ما على إلا عبادة ! فقال ، اصنعى بها هكذا وهكذا ، وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدى بها على رأسك ، ثم أذنت له فدخل ، فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟ ، قالت : أصبحت والله وجمعة وزادنى وجعا على ما بى أنى ، لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدتى الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا تجزعى يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاثة ، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا

(١) حديث أبي أمامة : أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال : يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ... الحديث بطوله « أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة » فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب » ثم قال لها ، اقنعى ببن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة ^(١) ، فانظر الآن إلى حال فاطمة رضى الله عنها وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وترك المال . ؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوق من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغالهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال .

وقد روى عن جرير عن ليث قال : صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : أكون معك وأصحابك ، فانطلقا فأتيا إلى شط نهر جلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدري ، قال : فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعهما خشفان لها ، قال : فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ، ثم قال للخشف : قم يا ذن الله فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدري ، ثم انتهى إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فغشى على الماء ، فلما جاوزا قال له أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدري ، فأنهيا إلى مفازة جلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبا يا ذن الله تعالى ، فصار ذهبا ، فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال لك لى وثلك لك وثلك لى أخذ الرغيف ، فقال أنا الذى أخذت الرغيف ، فقال كله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام ، فأنهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذه منه ويقتلاه ، فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدهم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله ، قال فبعثوا أحدهم فقال الذى بعث لائى شيء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع في هذا الطعام سميا فأقتلها وأخذ المال وحدى ، قال ففعل ، وقال ذاك الرجلان لائى شيء نجعل لهذا المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه وافترسنا المال بيننا ، قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فانا ، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، فترهبهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها .

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احفرتوا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكذبوها ووصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم ، وقد قيص لهم في ذلك معاش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذو القرنين ، فقال مالى إليه حاجة ، فإن كان له حاجة فليأتنى ا فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتينى فأبيت ، فها أنا قد جئت ، فقال لو كان لى إليك حاجة لايتك ، فقال له ذو القرنين مالى أراك على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وما ذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناها

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال « فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله وفيه « لقد زوجتك سيدا في الدنيا وسيدا في الآخرة » لم أجده من حديث عمران ، ولأحمد والطبرانى من حديث معقل بن يسار : وضأت النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « هل لك في فاطمة تعودها ... الحديث » وفيه « أما ترضين أن زوجتك أقدم أمى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما وإسناده صحيح .

لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكسستموها وصليتم عندها ؟ قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا في نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن أدنى العيش من الطعام وإيما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعاما كائن ما كان من الطعام ؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة ؛ فقال : يا ذا القرنين أتدرى من هذا ؟ قال : لا ؛ ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا ؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى ؛ وقد أحصى الله عليه عمله حتى يحز به في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : يا ذا القرنين هل تدري من هذا ؟ قال : لا أدري ومن هو ؟ قال : هذا ملك ملكه الله بعده ؛ قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر ؛ فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل فى أهل مملكته ؛ فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يحز به فى آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال . وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع ؟ فقال له ذو القرنين : هل لك فى صحبتى فاتخذك أعا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت فى مكان ولا أن نكون جميعا ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولى صديق ، قال : ولم ؟ قال : يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ؛ ولا أجد أحدا يعاديني لرفضى لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به ، فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق .

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، وبليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبار الذنوب ، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذى لا يقبل من الأعمال إلا ما كل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك . والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرزين من الحيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية التى هى أخفى من ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ^(١) » ، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها ساهرة

كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث « إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقال « المراك » بدل « الرياء » وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقي فى الشعب بلفظ المصنف .

العلماء فضلا عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجسد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم ؛ فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوفاق والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تنفع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ولم تنفع بحمد الله وحده ، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموا في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوا في البيع والمعاملات ، وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين ، فأصابته النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات ، فاستحققت فيه ترك المعاصي والهفوات واستئلائات خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات ، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتذب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال ، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين . وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرق منها إلا المقربون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة .

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين ؛ الشطر الأول : في حب الجاه والشهرة ، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب في كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كالوهمى وليس بكال حقيقى ، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم ، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم . وبيان العلاج في حب الجاه وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهية الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم . فهي اثنا عشر فصلا منها تلشأ معاني الرياء ، فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم ، بل المحمود الخول إلا من شهره الله تعالى لمشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله »^(١) ، وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه

(١) حديث أنس « حسب امرئ من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه » أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

بالأصابع في دينه ودينه . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم^(١) ، ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلا ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث فقيل له : يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ، فقال : إنه لم يعن هذا وإنما عني به المبتدع في دينه والفساق في دينه وقال على كرم الله وجهه : تبذل ولا تشهر ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم ابن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السخيتاني : والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان . أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة . وعن أبي العالية . أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال : ذباب طمع وفراش نار . وقال سليم بن خنظل : بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة . فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع ؟ فقال : إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع . وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال : علام تتبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان ؟ وقال الحسن : إن خفي النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحق . وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن . وروى أن رجلاً صاحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه قال : أوصني ، فقال : إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشي إليك وتسأل ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال : لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه فقال . إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال : إياكم وهذا الحمار الناهق ! يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً ، وقال رجل لبشر بن الحارث . أوصني ، فقال أخل ذكرك وطيب مطعمك . وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافترض . وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين ،

بيان فضيلة الخول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره^(٢) » منهم البراء بن مالك ، وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وسلم « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ألا

(١) حديث جابر « بحسب امرئ من امر » الحديث « مثله وزاد في آخره » إن الله لا ينظر إلى صوركم ... الحديث « هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرًا على الزيادة التي في آخره ، وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ « كني بالمرء لمعاً » ورواه ابن يونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ « هلاك بالرجل » وفسر دينه بالبدعة ودينه بالفسق وإسناده حاضف .
(٢) حديث « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وللاحكام « رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبؤ عنه أغني الناس لو أقسم على الله لأبره » وقال صحيح الإسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أس ضعيف « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » وهو عند المالك نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه (٣) حديث ابن مسعود « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً » أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور القديسي في مسند الفردوس بسند ضعيف .

أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ^(١) ، وقال أبو هريرة : قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتدخل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إن من أمي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياها ، ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها ، وما منعها إياه إلا لهوانها عليه ، رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره^(٢) ، وروى أن عمر رضى الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الانقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينبجون من كل غبراء مظلمة^(٣) ،

وقال محمد بن سويد : فحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلتان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال : يارب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة ! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغطت السماء بالغمام ، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق ، فقال : يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفروا فارفع عنهم ، وسكن ، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال : إني أتيتك في حاجة ! فقال ما هي ؟ قال تخصني بدعوة ، قال : سبحان الله ! أنت أنت وتسلاني أن أخصصك بدعوة ؟ ثم قال ما الذى بلغك ما رأيت ؟ قال : أطعت الله فيما أمرني ونهى فأسألت الله فأعطاني . وقال ابن مسعود : كونوا يناييع العلم مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقتان الثياب ، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض . وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى . إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الخاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر كان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك ، قال : ثم تقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال : عجبت منيذه وقل ترائه وقلت بواكيه^(٤) ، وقال عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما . أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ، قال : الفارزون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمين به على عبده : ألم ألعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أدخل ذكرك ! وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك ، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك . وقال الثوري : وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وغنا . وقال إبراهيم بن أدهم : ما قرت عيني يوما في الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان في البطن ، فجزني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل : إن قدرت على أن لا تعرف فافعل ،

(١) حديث « ألا أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف ... الحديث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٢) حديث « إن من أمي من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله « ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه إلا لهوانها عليه » .

(٣) حديث معاذ بن جبل « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الانقياء الأخفياء ... الحديث » أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيف فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرق مترك (٤) حديث أبي أمامة « إن أغبط أوليائي هندی مؤمن خفيف الخاذ ... الحديث » أخرجه الترمذی وابن ماجه بإسنادين ضعيفين .

وما عليك أن لاتعرف وما عليك أن لايتنى عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى ؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول . وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب ، وحب الجاه هو منشأ كل فساد .

فإن قلت : فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ! فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لايعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم ، وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

بيان ذم الجاه ومعناه

قال الله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو ، وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعاً . وقال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه يثبتان النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأسرع لإفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء ^(٣) » ، نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده ، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كالا ، ويدعن قلبه للوصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده ، فإن انقياد القلب حال للقلب . وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلات ، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقام والعبيد

(١) حديث « المال والجاه يثبتان النفاق ... الحديث » تقدم في أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث « ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم ... الحديث » تقدم أيضاً هناك (٣) حديث « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء » لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ... الحديث » ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف « حب الثناء من الناس يعمى ويصم »

فطالب الجاه يطلب أن يسترق الاحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا وينهى أن تكون له الاحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية والطاعة له ، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذا معنى الجاه : قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعت من نعت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه . فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدرح والإطراء ، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقد ، فيثنى عليه ، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرته له مثل العبد فى أغراضه ، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال أو صورة أو قوة فى بدن أو شيء مما يعتقد الناس كالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الاموال محبوبا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا ، بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار ، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانها إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منسكع ولا ملابس ، وإنما هى والحصباء بمثابة واحدة ، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات ، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب ، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك القلوب من الاحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الاغراض ، فلاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ، وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه .

الاول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه ، فالعالم أو الزاهد الذى تقرّر له جاه فى القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبدولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذى لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ، فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال ، فمن ملك الجاه فقد ملك المال ، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال ، فلذلك صار الجاه أحب .

الثانى : هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراس والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهى على التحقيق خزائن عديدة ، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب ، وأثبتت الاموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ ، وأما خزائن القلوب فهى محفظة محروسة بانفسها ، والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها . نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله .

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعن لشخص واعتقدت كاله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها ، فيصف ما يعتقد غير له ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر . لأن ذلك إذا استطار في الأفطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتمعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين ، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو ماله ولا يقدر على استنائه إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبدأ في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال . وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه . نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملائد ودفع المضار معلوم ، كالاحتياج إلى الملابس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه المال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكثر الكوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا يتغنى لها ثالثاً ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ؛ ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاز وحب ذلك ثابت في الطبع ، ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة ؟ فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان ؟ أحدهما : جلى تدركه الكافة . والآخر : خفى وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفى في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفرع إليه إن أصابت هذا المال جائحة ، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحب الحياة يقدر طول الحياة ؛ ويقدر هجوم الحاجات ؛ ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر ، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن مثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال ^(١) » ، ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده ، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزججه عن الوطن أو يزجج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ؛ ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً لمحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لمسا فيه من الأمن من هذا الخوف .

(١) حديث « منهومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبخاري في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

وأما السبب الثاني وهو الأقوى : لأن الروح أمر رباني ، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ أو معنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذا لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية كالآكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء ؛ وإلى صفات شيطانية كالسكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية كالعز والتعبر وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوبا بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لاحالة ، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواء ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن للمعية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكامل من لا نظير له في رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافي العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فإذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه يحب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكنه ليس يحد له مجالا وهو كما قال ، فإن العبودية قهر على النفس . والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال ، فهي محبة للكمال ومشتية له وملتذذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ؛ ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات ؛ فإن أكل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستوليا عليه ، فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به ، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته . وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق ، كالأملاك والكواكب وملوك السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ؛ وكالجهال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالارض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جعلتها قلوب الناس ، فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

وإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالارضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء ؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه ، فلذلك أحب أن يعرف

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهي اشتياق من عاجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يعجز عن وضع الشطرنج ، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع ؟ وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشبذة أو جرّ الثقل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشترك إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه .

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان : أجساد وأرواح

(أما الأجساد) فهي الدراهم والدنانير والامتنعة فيحب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع ، فان ذلك قدرة والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه ، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر منزلة فيها ، فان الحشمة القهرية أيضا لذينة لما فيها من القدرة .

(القسم الثاني) نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ماعلى وجه الأرض ، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفه تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية ، والقلوب إنما تسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فان كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان ، وهو الذي لا يليه الموت فيعده ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه فاذا من معنى الجاه تسخير القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية . فاذا من محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للقدورات ، وما دام يبقى معلوم ، أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من هو مان لا يشبعان ، فاذا من مطلوب القلوب السكال ، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من السكال ، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصاح للتوصل به إلى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات ، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من السكال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع ، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى .

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لاحقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة ، ولكن الكمال الحقيقي فيه متلبس بالكمال الوهمي ، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : (أحدها) من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط

بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى (الثاني) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً ، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهي عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى (الثالث) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى .

والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات .

أما المتغيرات : فثالها العلم بكون زيد في الدار ، فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً ، فيكون نقصاناً لا كمالاً ، فكما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كالك نقصاً ، ويعود عليك جهلاً . ويلحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كعلك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض ، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك ، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب .

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً . فكل هذه الأقسام داخلية في معرفة الله وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله ، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نور للعارفين بعد الموت ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف في الدنيا ، كما أن من معه سراج خفي فانه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يكتسب منه ، فيكمل النور الخفي على سبيل الاستتمام ، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور ، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل (كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) فإذا نال السعادة إلا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منفعة في الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة مافي القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى (قد أفلح من زكاها) وقال عز وجل (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى ، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى . ومن حيث ارتباطها بالقدر والإرادة والحكمة ، فهي من تسكئة معرفة الله تعالى ، وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى وليس له قدرة حقيقية ، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله - كما قرأناه في كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربيع المنجيات - فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا . نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه الإدراك ، فإن هذه القوة آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم ، وقد يحتاج في استيلاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاء للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبنة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضى على القرب ، ومن ظن ذلك كالا فقد جهل ، فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل ، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الخشمة ، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه ؛ كمال ، فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه ففسدوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية (أما العلم) فما ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرية) فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالفكر تشبها بالملائكة الذين لا تستغفم الشهوة ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة . ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ، ومنزله عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة ، وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال .

فإذن الكمالات ثلاثة — إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها) كالا ككمال العلم وكمال الحرية ؛ وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية — وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم ، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت ، ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كالا فيه ووسيله إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاء والمال ، وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له ، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا في النفس ، والمال والجاء هو الذي ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الآية وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى قوله (فأصبح هشيما تذروه الرياح) وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاء كمال ظنى لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه متصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل : الفقر
إلا قدر البلغة منهما إلى السكال الحقيقي اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك .

بيان مايحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فسل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه الآخرة ، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرى والملبس ، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يبتاع به الطعام ، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، لجه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، ووجه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، ووجه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، ووجه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال ، فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطرب إليه لقضاء حاجته ، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء ، فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالجبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتذكر التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة ، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ، ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به ، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفى الشهوة لبقى مستصحباً لنكاحها ؛ فهذا هو الحب دون الأول ، وكذلك الجاه والمال . وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين ، لجهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية . وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى .

فإن قلت : طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانة ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ؛ وجهان مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور : فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها ، مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك ، فهذا حرام لأنه كذب وتلبس أما بالقول أو بالمعاملة .

أما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ﴿ اجعلنى على خزان الأرض لئى حفيظ عليهم ﴾ فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليهما ، وكان

محتاجا إليه وكان صادقا فيه (والثاني) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه ، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضا مباح لأن حفظ السر على القبايح جائز ، ولا يجوز هتك السر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به ، كالذي يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع ، فإن قوله : إني ورع ، تلبيس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب . ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مرء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية ، وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه
وبفضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول ، وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال فإننا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيد . فهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واعتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس المدوح بكمالها ، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ، ولكنه لا يخلو عن لذة كثرته عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته ، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكيا في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التليذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة ، وإن صدر من يجازف في الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة ، وهذه العلة يبعث الذم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو عمقوت الشعور به مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح .

السبب الثاني : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه يريد له ويعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيد ، وهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء من تتسع قدرته ويتنفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح عن لايؤبه له ولا يقدر على شيء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائق به أعظم .

السبب الثالث : أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قاب كل من يسمعه ، لاسيما إذا كان ذلك من يلتفت إلى قوله ويعتمد بثنائه ، وهذا مختص بثناء يقع على المثل فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى

قوله كان المدح أذ والذم أشد على النفس .

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيدة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن مامدح به ، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح ممدوح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد افترق فتنقص اللذة بها . أما العلة الأولى وهي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوّه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لقوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف النظام عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة ، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغولاً بالتودد إليهم والمرامات لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتبساً إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراعاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بدميين ضارين وقال عليه السلام : إنه ينبت النفاق كما ينبت المساء البقل ، إذا النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق .

لحب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال ؛ وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له . فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي - كما سبق - صفر الجاه في عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحققر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز (أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات) فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كائنات . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه (أما بعد : فكأنك بالدنيا لم تكن

وكانك بالآخرة لم تزل) فهو لاء كان التفاتهم إلى العاقبة ، فمكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمسال في الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى ﴿ بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وقال عز وجل ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ﴾ فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا ، فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومخترز من أن تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما يبني على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فإنه لا ثبات له ، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه ، فلا يبقى في الدنيا مرجوها ، بخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة ، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول وبأنس بالخول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملامية ؛ إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلبوا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين ، وأما الذى لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لاجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ؛ كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد: الحمد لله الذى صرفك عني . ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير ، كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا : إنه طزار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخول ، فإن المعتزل في بيته في البلد الذى هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته ، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فدموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جرعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإمالة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبس ولا يبالي به ، وبه ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإن فتنة الجاه أعظم ، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالآرذال ، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم ، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم

الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم : المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة . وينظر في أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الدم

اعلم أن أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم ، فصار حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم ، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لاجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول الماسدح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع ، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيما تذروه الرياح ، وهذا من قلة العقل ، بل العاقل يقول كما قال المتنبي :
أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا ، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح الماسدح بها بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى ، وخطر الخاتمة باق فى الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما فى الدنيا ، بل الدنيا دار أحزان وغموم لادار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الماسدح ، فإن اللذة فى استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لا يزيدك فضلا وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ، ومثالك مثال من يهزأ به لإنسان ويقول سبحانه الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه ؟ إذا قضى حاجته ، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الاقدار والأتان ، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خباياك باطنك وغوائل سريرتك وأقدار صفاتك - كان ذلك من غاية الجهل : فإذا الماسدح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هى من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغى أن يضمك ذلك ولا تفرح به .

وأما السبب الثانى : وهو دلالة المدح على تسخير قلب الماسدح وكونه سبيلا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة فى القلوب - وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله ! فكيف تفرح به ؟

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التى اضطرت الماسدح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يغمك مدح الماسدح وتكرمه وتغضب به - كما نقل ذلك عن السلف - لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة - كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان - قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل . وروى فى بعض الاخبار - فان صح فهو قاصم للظهور -

أن رجلا أتني على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال : لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فمات على ذلك دخل النار (١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مرة للساحح : ويحك قصمت ظهره لوسمعتك ما أفلح إلى يوم القيامة (٢) ، وقال عليه السلام : ألا لا تمدحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب (٣) ، فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وقتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال : أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم ، فغضب وقال : إني لم آمرك بأن تركيني وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبصاك الله ، فغضب وقال : إني لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم - لما مدح - اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشهدك على مقتك . وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم بمقتوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبعث إليهم مدح الخلق ، لأن الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثأته عليه إذ ليس أمره بيد الخلق . ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهيمه من أمر دينه . والله الموفق للصواب برحمته .

بيان علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح ، فعلاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال .

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصيح والشفقة ؛ وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذبا .

فإن كان صادقا وقصده النصيح فلا ينبغي أن تذهمه وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغي أن تتقصد منه فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه ، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتيامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل ، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به ، وأذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قبحه في عينك ليذبح حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استغفرت منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماسمعتك من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعدرة وأنت لا تدري ، ولو دخلت عليه كذلك لخفضت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعدرة فقال قائل : أيها الملوث بالعدرة طهر نفسك ، فينبغي أن تفرح به لأن تذهيبك بقوله غنيمة ، وجميع مساوى الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يغتنمها . وأما قصد العدو التعنت لخنائته منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به ؟

(١) حديث : أن رجلا أتني على رجل خيرا فقال : لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار .
لم أجده إلا (٢) حديث : ويحك قطعت ظهره ... الحديث « قاله للساحح تقدم (٣) حديث : ألا لا تمدحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب » تقدم دون قوله « ألا لا تمدحوا » .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فيذبغى أن لا نكره ذلك ولا تشتغل بذمه ، بل تنفكر في ثلاثة أمور (أحدها) أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء عنه . (والثاني) أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه وطهرتك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اعتابك فقد أهدى إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فإياك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسان التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه باقترائه وتعرض لعقابه الآليم ، فلا يذبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه ، بل يذبغى أن تقول : اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لقومي اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ^(١) ، لما أن كسروا ثنيتته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد . ودعا إبراهيم بن آدم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال : عدت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنى عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه ، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين ، فلا يذبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً .

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذم والمدح :

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يمتنع في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ، ويرتاح للبادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كال .

الحالة الثالثة : وهي أول درجات السكال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره استغفالا . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد في نفسه استقلالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح ، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام ، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لا يكون موت المادح المطرى له أشد نكابة في قلبه من موت الذام ، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام ، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام . فهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب ! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون

(١) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » قاله لما ضرب به قومه . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم والحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضرب به قومه .

أنفسهم بهذه العلامات ، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الزام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الزام قد عصي الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ؟ وإنما استغفالك للزام من الدين المحض . وهنا محض التلبيس ، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الزام في مذمته ، ثم إنه لا يستقلهم ولا ينفر عنهم ، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره . ولا يحمد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يحمد لمذمة نفسه ، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المغرور لنفسه يفض و لهواه يمتعض ، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ، ومن لم يطلع على مكائد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسر في الآخرة ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالآخرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة ؛ أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذا يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين ، ويجب الزام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشده إلى مهمه ومهد إليه حسناته ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : رأس التواضع أن تذكره أن تذكر بالبر والتقوى ^(١) ، وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح ، إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من ... ، فويل لرسول الله إلا من ؟ فقال : إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة ^(٢) ، وهذا شديد جدا ، وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية ، وهو أن يضر الفرح والكراهة على الزام والمادح ، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل ، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والزام فلسنا نطعم فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لا تنفي بها ، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتأفل على إكرام الزام والثناء عليه وقضاء حوائجه ، ولا نقدر على أن نسوى بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب ، ومن قدر على التسوية بين المادح والزام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرأى بالعبادات ، ولا يبالي بمقارفة المحظورات لا ستمالة قلوب الناس واستنطاق أسئلتهم بالمدح وهذا من الهالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يبالي بالمحظورات ، وهذا على شرف جرف هار ، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيها لا يحل لنيل الحمد ، فهو قريب من الهالكين جدا . ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكير في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه . ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن

(١) حديث « رأس التواضع أن تذكره أن يذكر بالبر والتقوى » لم أجده أصلا (٢) حديث « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف ... الحديث » لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أس « ويل لمن لبس الصوف ظائف فله قوله » ولم يخرج له ولا في مستنده .

لا ينتهى به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه ، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه ، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه ؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الدام ، وأول درجات إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا لمن في قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتليساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو ، والإنسان يفرح بمن يذم عدوه ، وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الدام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشقي له من نفسه ويكون غنيمته عنده إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس ، وإذا سبقت إليه حسنات لم ينصب فيها فمساء يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إصاها ، ولو جاهد المرید نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامة ومادحة لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل

الشرط الثاني من الكتاب : في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء : وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء وما يرأى ، وبيان درجات الرياء ؛ وبيان الرياء الخفي ؛ وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه ؛ وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب ؛ وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق ؛ وبيان ما يجب على المرید أن يلزمه قبل الطاعة وبعدها . وهي عشرة فصول وبالله التوفيق .

بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرأى عند الله محقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار . أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ﴾ وقوله عز وجل ﴿ والذين يذكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال مجاهد هم أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ فمدح المخلصين بنبي كل لإرادة سوى وجه الله ، والرياء ضده وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ^(١) ﴾ نزل بعد ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال : يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال : أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس ، وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة - المقتول في سبيل الله والمتصدق بالله والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الإخلاص - : وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه

(١) حديث : نزول قوله تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية فيمن يطلب الآخرة بعباداته وأعماله . أخرجه الحاكم من حديث طاوس : قال رجل إنى أنف المواقف أيقنى وجه الله وأحب أن يرى ، وطاف فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية . هكذا في نسخة من المستدرک ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة ، وللبزار من حديث معاذ بنسند ضعيف « من صام رياء فقد أشرك ... الحديث » وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

وسلم أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم ^(١) وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى راءى رأى الله به ومن سمع سمع الله به » ^(٢) ، وفي حديث آخر طويل : « إن الله تعالى يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ » قال الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا بالله عز وجل من جب الحزن ، قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال : « واد في جهنم أعد للقرام المرائين » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : « من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأما أغنى الأغنياء عن الشرك » ^(٦) ، وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم صرمت أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه ثلاثاً برى الناس أئمة صائم ، وإذا أعطى يمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستره بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق » وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله عز وجل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء » ^(٧) ، وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي : « ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أدنى الرياء شرك » ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشبهة الخفية » ^(٩) ، وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد ينخسها عن شماله » ^(١٠) ، ولذلك ورد : « أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفاً » ^(١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملاً وحبط أجرك اذهب نخذ أجرك ممن كنت تعمل له » ^(١٢) ، وقال شداد بن أوس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقلت ما يبكيك يا رسول الله ؟

(١) حديث : « أني هريرة في الثلاثة : المتبول في سبيل الله والمتصدق بماله والفقار » لكتابته فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم كذبت . رواه مسلم وسيأتي في كتاب الإخلاص (٢) حديث ابن عمر « من رأى راءى رأى الله به ومن سمع سمع الله به » متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله ، وأما حديث ابن عمر فرواء الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه باللفظ « من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره » وفي الزهد لابن المبارك ومسنده أحمد بن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث « لما الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين » أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظيمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلًا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن أبيد عن رافع بن خديج (٥) حديث « استعينوا بالله من جب الحزن » قيل وما هو ؟ قال « واد في جهنم أعد للقرام المرائين » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي (٦) حديث « يقول الله من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله » ... الحديث « أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله « وأنا منه بريء » وسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً وهي عند ابن ماجه بسند صحيح .

(٧) حديث « لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء » لم أجده هكذا (٨) حديث معاذ « إن أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبراني هكذا والحاكم باللفظ « إن البشير من الرياء شرك » وقد تقدم (٩) حديث « أخوف ما أخاف عليكم الرياء ... الحديث » تقدم في أول هذا الكتاب (١٠) حديث « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد أن ينخسها عن شماله » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث « سبعة يظلهم الله في ظله » (١١) حديث : « تفضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين » وضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء « إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضاف أجره سبعين ضعفاً » قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين ، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف « يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة » (١٢) حديث « إن المرائي ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملاً وحبط أجرك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جيلة اليحصي عن صحابي لم يسم وزاد « يا كافر يا خاسر » ولم يقل « يا مرائي » وإسناده ضعيف .

قال « إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنوا ولا شمسا ولا قرأ ولا حجراً ولكنهم يرامون بأعمالهم ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادته بأهلها خلق الجبال فصيرها أوتاداً للأرض ، فقالت الملائكة : ما خلق ربنا خلقاً هو أشد من الجبال ، فخلق الله الحديد فقطع الجبال ، ثم خلق النار فأذابت الحديد ، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار ، وأمر الريح فكدرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نسأل الله تعالى ، قالوا : يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقاً هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة يمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلقاً خلقه ^(٢) » وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فبكي معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكنت ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي « يا معاذ ، قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال « إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجبتك عند الله يوم القيامة ، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جعلها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى ، له نور كنور الشمس ، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته ، فكثرت فيقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يحاوزني إلى غيري ، قال « ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتتم به فتزكيه وتمكثه حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه لأنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يحاوزني إلى غيري لأنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم ، قال « وتصعد الحفظة بعمل يبتهج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يحاوزني إلى غيري لأنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يحاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يحاوزني إلى غيري لأنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يحاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد لأنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يحاوزني إلى غيري ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه لأنه كان لا يرحم لإنساناً قط من عبادة الله أصابه بلاء أو ضرر أضرب به بل كان يشمت به ، أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يحاوزني إلى غيري ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل

(١) حديث شداد بن أوس « إني تخوفت على أمتي الشرك » أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريباً

(٢) حديث « لما خلق الله الأرض مادته بأهلها » الحديث « وفيه « لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه

فيخفيها عن شماله » أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

وجه صاحبه ، اضربوا به جوارحه اقبلوا به على قلبه لاني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله تعالى ، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرنا عند العلماء وصيتنا في المدائن ، أمرني ربي أن لأدع عمله بجاوزني إلى غيري ، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرأى ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله ، قال : فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبادي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنة ، فتقول الملائكة كلهم : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول السماوات كلها : عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، قال معاذ : قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال : اقتدي وإن كان في عملك نقص ، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تترك نفسك بذهمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ، ولا تناج رجلا وعندك آخر ، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى ﴿ والناسطون فسطا ﴾ أتدري من هن يامعاذ ، قلت : ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال : كلاب في النار تنشط اللحم والعظم ، قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطبق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟ قال : يامعاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه ^(١) ، قال فما رأيت أكثر تلاوه للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث .

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطي رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ارفع ركبتيك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للمرأى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أئني عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجهه الله تعالى ومحمدة الناس ، قال : لا شيء لك ، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول : لا شيء لك ، ثم قال في الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ... الحديث . وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أجدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمده ويؤجر ، فقال له : اتحب أن تمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك . لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لا شريك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص مني ا فقال : لا بل أدعها لله ولك . فقال له عمر : ما صنعت شيئا إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده ، فقال : فدعها لله وحده ، فقال : فنعم إذن . وقال الحسن : لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم لير فيري الأذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة ويقال : إن المرأى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرأى يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب فخذ أجرك من عملك له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن عياض : كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون

(١) حديث ماذا أطول « إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض لجعل لكل سماء من السبعة مسكيا بوابا عليها ... الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاء المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال روى في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

بما لا يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله لأن النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح ، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأرياء ؟ فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا رآى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار الفراء : ثلاثة فراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء الملوك ، وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضل : من أراد أن ينظر إلى مرآة فليتنظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى : أظهر السمات بالليل فإنه أشرف من سماتك بالنهار لأن السمات بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان ، فقيل له وكيف ذاك ؟ قال يحب أن لا يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله من أراد أن يشهر .

بيان حقيقة الرياء وما يراى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها . فحذ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالمرائى هو العابد والمرامى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم ، والمرامى به هو الخصال التى قصد المرائى إظهارها ، والرياء هو قصده لإظهار ذلك ، والمرامى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو : البدن ، والزى والقول ، والعمل ، والاتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات .

(القسم الأول) الرياء فى الدين بالبدن : وذلك بإظهار التحول والصفار ليوم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وإيدل بالتحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرائى بتشجيع الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفترغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلت الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم ، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدمن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه . وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ؛ ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراعاة أهل الدين بالبدن .

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسها .

(الثانى) الرياء بالهيئة والزى : أما الهيئة فتشجيع شعر الرأس وحق الشارب وإطراق الرأس فى المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله

(٣٨ — لحياء علوم الدين — ٣)

الصالحين ، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن . ومنه التمتع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الخذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم .

والمرءون بالزى على طبقات : فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرأى بغلاظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح ، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، ولذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والآكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والقوط الرفيعة فيلبسونها ، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهياته لون ثياب الصالحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشس أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الديبقي والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم - لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحا خيفة من المذمة .

وأما أهل الدنيا فراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطباسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشته عاينهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا في الزينة .

(الثالث) الرياء بالقول : ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للفسادات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ، وأدعاء حفظ الحديث وإلقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إخماد الخصم ليظهر للناس قوته علم الدين . والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر .

وأما أهل الدنيا فراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفصيح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب .

(الرابع) الرياء بالعمل : كمرآة المصلى بطول القيام ومدّ الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة وإطعام الطعام ، وبالإخبارات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتكيس الرأس والوقار في الكلام ، حتى إن المرأى قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا أطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من

أن ينسب إلى العجلة وقلة الوقار ، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته ، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجتهد الخشوع له ، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء ، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيئته في الخلوة مشيئته برأى من الناس ، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفترق إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رباؤه ، فإنه صار في خلوته أيضا مرائيا ، فإنه إنما يحسن مشيئته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا الخوف من الله وحياء منه .

وأما أهل الدنيا فراماهم بالتبخر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والاخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة .

(الخامس) المראה بالأصحاب والزائرين والمخالطين : كالذى يتسكف أن يستزير عالما من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا ، أو عابدا من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه ، أو مملكا من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين . وكالذى يكثُر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيباهى بشيوخه ومباهاته ومراءاته ترشح منه عند مخاطبته ، فيقول لغيره : من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ ؟ وما يجرى مجراه فهذه مجامع ما يرأى به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد . ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة ؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراهة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجتد الجاه - فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه - فإنه نوع قدرة وكال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغرر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتبس من ذلك لإطلاق اللسان بالثناء والحمد . ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثير الرحلة إليه . ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها . فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء .

فإن قلت : فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل ؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات ، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب مخطورات فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود ، وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام حيث قال ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ وكما أن المال فيه سم نافع ودرياق نافع فكذلك الجاه ، وكما أن كثير المال يلهى ويطنى وينسى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال ، وكما أنا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كالانصراف الهم إلى كثرة المال ، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها ، وأما سعة

الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه ، فلا جاء أوسع من جاء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم ، فعلى هذا نقول : تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراعاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا ، وقس على هذا كل يحمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة فكان ينظر في جب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال « نعم إنَّ الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم »^(١) . نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه ، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدرية أعينهم ، فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر ، فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً ، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الألسن بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقدروه لم يأنس بهم .

فإذن المראה بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة ، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه بخى فهذا مراعاة وليس بحرام وكذلك أمثاله .

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان إحداها : أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات ، وهذا ليس بقصد العبادة ، لا يقتصر ، على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك وبأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات .

والمعنى فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك ، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر . (والثاني) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله . ولذلك قال قتادة : إذا رآى العبد قال الله ملائكتك انظروا إليه كيف يستهزئ بي .

ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده ، فأى استحقاق يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعاً ؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقريب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك لجعله مقصود عبادته ؟ وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبار المهلكات ولهذا

(١) حديث طائفة : أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب الماء ويسوى عمامته وشعره ... الحديث أخرجه ابن عدى في الكامل وقد تقدم في الطهارة .

سماء رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر (١) .

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض - كما سيأتى بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى - ولا يخلو شئ منه عن لائم غليظ أو خفيف بحسب ما به المראה ولولم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جلياً ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرأى عظم في قلبه الناس ، فافتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فمن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً ، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكاله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا ؟ فكيف في يوم لا يجرى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ؟ فلا ينبغي أن نشك في أن المرأى بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص . وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ، ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت : إنه لا أجر له فيه أصلاً .

بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض ، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المرامى به والمرامى لأجله ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب ، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً :

(الأولى) وهى أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً ، كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى ، بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس ، فهذا جرد قصدته إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولا خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء .

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً ، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ، ولا يحمله ذلك القصد على العمل ، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل ، فهذا قريب مما قبله

(١) حديث : سمى الرياء الشرك الأصغر . أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج لعله في مسند رافع وتقدم قريباً وإلحاحاً وصححه إسناده من حديث شداد بن أوس : كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر ،

وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإيم .

(الثالثة) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل ؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فترجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص .

(الرابعة) أن يكون لإطلاع الناس مرجحا ومقويا للنشاط ولو لم يكن لكان لا يترك العبادات ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذى نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح .

الركن الثانى : المرادى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول وهو الأغلظ : الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات .

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار ، وهو الذى يظهر كلقى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائى بظاهر الإسلام ، وهو الذى ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أى فى دلائلهم بقولهم على ضمايرهم وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وقال تعالى ﴿ يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك ﴾ والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام من يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض ، وذلك مما يقل فى زماننا ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملاحدة ، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفرأ أو بدعة وهو يظهر خلافه ، فهو لاء من المنافقين والمراميين المخلدين فى النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره بأخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها ، أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع وعادته ترك الصلاة فى الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والدبه لآعن رغبة ولكن خوفا من الناس ، أو يغزو أو يحج كذلك . فهذا مرأى مع أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل ويشط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته فى محبتهم أشد من رغبته فى ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد .

(الثالثة) أن لا يرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالتوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى ، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرياء على فعلها ، وذلك بحضور الجماعة في الصلاة وعبادة المريض واتباع الجنائز وغسل الميت ، وكالتجهد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله ، فإن الذي قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق . وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذم الخالق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على شطر من الأول وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لأصولها ، وهو أيضاً على ثلاثة درجات .

(الأولى) أن يرائى بفعل ما في تركه نقصان العبادة ، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أي أنه ليس يبالي بإطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متسكنا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقدماً للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة في الملادون الخلوة . وكذلك الذي يعتاد لإخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيدة خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصوم صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا أكالا لعبادة الصوم خوفاً من المذمة ، فهذا أيضاً من الرياء المحذور لأن فيه تقدماً للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات .

فإن قال المرائى : إنما فعلت ذلك صيانة لئلا ستهتم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ؟ فيقال له : هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس ، وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولك أعظم من ضررك بغيبة غيرك ، فلو كان باعثك المدين لكان شغقتك على نفسك أكثر ، وما أنت في هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهي عوراء فيبحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلمانه ؛ وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم للمرائى فيه حالتان : إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً . والثانية : أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتي عندهم ناقصة وآذاني الناس بذهمهم وغيبتهم ، فأستقيد بتحسين الهيبة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره النية فيذبني أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراعاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق .

(الدرجة الثانية) أن يرائى بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التسلية والتثمة لعبادته ، كالإطويل في الركوع والسجود ومدد القيام وتحسين الهيبة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى وتحسين الاعتدال

والزيادة في القراءة على السور المعتادة ، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الاجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة . وكل ذلك بما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .
(الثالثة) أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الاول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجرى مجراه . وكل ذلك بما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به وبعضه أشد من بعض . والكل مذموم .
الركن الثالث : المرأى لأجله ، فإن للمرأى مقصودا لا محالة ، وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة ، وله أيضا ثلاث درجات :

(الاولى) وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية ، كالذى يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الاوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها ، أو يودع الودائع فيأخذها ويجمدها ، أو تسلم إليه الاموال التي تتفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصد الفاسدة في المعاصي . وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيته الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التجب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم في فسقهم ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو منصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذى جحد ودعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

(الثانية) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة ، كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الاموال ويرغب في نكاحه النساء ، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، كالذى يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته . فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الاول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه .

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يمد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، كالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتجهدون أو يصومون الخيس والانتين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان

لا يفعل شيئاً من ذلك ، وكالذى يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو فى الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم ، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأنى صائم ولكن يقول : لى عذر ، وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بهراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عيادته للناس فيكون مراثياً فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول أفطرت تطيباً لقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره فى معرض حكاية عرضاً ؛ مثل أن يقول : إن فلاناً يحب للإخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم أجده بدا من تطيب قلبه . ومثل أن يقول : إن أى ضعيفة القلب مشفقة على تظن أنى لوصمت يوماً مرضت فلا تدعى أصوم ، فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه ؛ فإن لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً ، وإن كان له رغبة فى الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد يخطر له أن فى إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور - وسيأتى شرح ذلك وشروطه - .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هى أخفى من ديب النمل كما ورد به الخبر ، يزل فيه لحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من ديب النمل

اعلم أن الرياء جلى وخفى ، فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجليه ، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرد ، إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، كالذى يعتاد التهجيد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تمشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلى لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومهما لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر بإطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويشتم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكناً فى القلب استكنان النار فى الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاء للعرق الخفى من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام نحرصاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح ، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشمايل ، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ولبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجيد ، وأخفى من ذلك أن يخفى بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أو يبدوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه

وأن يذشطوا فى قضاء حوائجه وأن يسامحوه فى البيع والشراء وأن يوسعوا له فى المكان ، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا فى نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التى أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس فى حقه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد فنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديبب النمل (١) وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ، ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج . وفى الحديث : لا أجر لكم قد استوفيت أجوركم ، وقال عبد الله بن المبارك . روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب فى موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلمك ، فقال للغلام اتقى بطعام فأناه ببقل وزيت وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا ، قال كيف أنت ؟ قال كالناس ، وفى حديث آخر : بخير ، فقال الملك ما عند هذا من خير ! فأنصرف عنه ، فقال السائح الحمد لله الذى صرفك عني وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون لذلك فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله فى القيامة بإخلاصهم على ملائ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل فى القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يحزى والده عن ولده ، ويشغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد . نفسى نفسى ! فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص لعلمهم أن أبواب البوادر لا يروج عندهم الزائف والبهرج ، والحاجة تشتد فى البادية ولا وطن يفرع إليه ولا حيم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من النقد ، فكذا يشاهد أبواب القلوب يوم القيامة والزاد الذى يتزودونه له من التقوى . فإذا شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته لإنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا ، فلو كان مخلصا قائما بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبط للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفضيل .

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول . أولا ، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم .

فأما المحمود فأربعة أقسام (الأول) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه

(١) حديث « فى الرياء شوائب أخفى من ديبب النمل » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث أبى موسى الأشعرى « انقروا هذا المعرك فإنه أخفى من ديبب النمل » ورواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر الصديق وضعفه هو والدارقطنى .

الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجليل من أحواله ، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به ، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجليل ، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول وفرح به .

(الثاني) أن يستدل بإظهار الله الجليل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة ^(١) فيكون الأول فرحا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

(الثالث) أن يظن رغبة المطلقين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السري بما قصده أولا ، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور غايل الربح لذيد وموجب للسرور لا محالة .

(الرابع) أن يحمده المطلقون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للطبيع وجميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقتته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله . وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمده غيره مثل فرحه بحمدهم إياه . وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط

فنقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا بخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل ، وإذا عمل قد تم على نعت الإخلاص سالما عن الرياء فإبطرأ بعده فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره وإظهاره الله ، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف .

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له : صمت الدهر يا رسول الله . فقال له « ما صمت ولا أفطرت ^(٢) » فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما بطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذى مضى ومعاقب على مرأته بطاعة الله بعد الفراغ منها ،

(١) حديث « ما ستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث قال لرجل قال : صمت الدهر « ما صمت ولا أفطرت » أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة : قال عمر يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال « لا صام ولا أفطر » ولطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث ، فيه : فقال لرجل لاني صائم ، قال بعض القوم إنه لا يفطر لأنه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا صام ولا أفطر من صام الأبد » ولم أجده بلفظ الخطاب .

بمخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثناءها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل ، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره . ومثاله : أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة قاستمها خوفاً من مذمة الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم : العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله ^(١) أى النظر إلى خاتمته . وروى « أنه من رأى يعمل ساعة حبط عمله الذى كان قبله ^(٢) »، وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لأعلى الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فلا يطرأ يفسد الباقي دون الماضى ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً ، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتفض باعثاً على الحركات ، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً ، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه ، لانا نكتفى بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها ، ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس - يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه - قال : قد اختلف الناس في هذا ؛ فصارت فرقة إلى أنه يحبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته ، ثم قال ولا أنقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبى أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لم تضره الثانية . وقد روى أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال : « لك أجران أجر السر وأجر العلانية ^(٣) » ، ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله : لا يضره ، أى لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره ، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثه أوجه (أحدها) أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ . (الثانى) أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود بما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمانة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللرأى أجران ؟ (والثالث) أنه قال : أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبى هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح ، ومنهم من يرفعه ، فالحكم

(١) حديث « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ « إذا طاب أسفله طاب أعلاه » وقد تقدم (٢) حديث « من رأى يعمل ساعة حبط عمله الذى كان قبله » لم أجده بهذا اللفظ وللمبيخين من حديث جندب « من سمع الله به ومن رأى رأى الله به » ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث : أن رجلاً قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني فقال « لك أجران .. » الحديث « أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا أطلع عليه أعجبه قال « له أجر السر والعلانية » قال الترمذى غريب وقال له روى عن أبى صالح وهو ذكر أنه مرسل .

بالعمومات الواردة فى الرياء أولى . هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الإحباط .

والأقيس عندنا : أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره فى العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام .

وأما الأخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق ، وأما ما ورد فى الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه ، أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ، ولا ينفى أن يفسد الصلاة ، ولا يبعد أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله - والخالص ما لا يشوبه شيء - فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا فى كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ .

القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء ، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولا يعتد بصلاته ، وإن ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففى يلزمه ثلاثة أوجه (قالت فرقة) لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف (وقالت فرقة) تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريم الصلاة لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا (وقالت فرقة) لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى غائمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله .

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته . ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدح فى النية وأولى الأوقات براعاة أحكام النية حال الافتتاح ، فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعث مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتنال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده ، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة . فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصلى إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وماليس فيه تحليل وتحريم أو فى عقد صلاة وحج ، فإن كان فى صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب (فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر . وإن كان فى صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا ، فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه ، إذ اجتمع فى قلبه الباعثان ، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صلى

التراويح وتبين من قرآن حاله أن يصده الرياء بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلافى بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جدا ، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص ، فأما إذا كان فى فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه ، لأن الإيجاب لم يذتهض باعثا فى حقه بمجرد واستقلاله ، وإن كان كل باعث مستقلا حتى لو لم يكن باعث الرياء لادى الفرائض ، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا ، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى فى دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة فى الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة وسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال فى تعارض البواعث فى أصل الصلاة ، أما إذا كان الرياء فى المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة فى أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد من القدر فى النية ، هذا فى رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه ، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر فى العمل فبعد أن يفسد الصلاة . فهذا ما نراه لا تقا بقانون الفقه ، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه ، والذين غاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب المقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فى شرب الأدوية الموزة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم ، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز تمتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم ؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك فى نفسه ، وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات . ولا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشق أولا وتخف آخرأ وفى عزلاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه (والثانى) دفع ما يخطر منه فى الحال .

(المقام الأول) فى قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فضل رجع إلى ثلاثة أصول وهى لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدي الناس . ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائى ماروى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل (١) حمية — ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مهزور مغلوب — وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر

(١) حديث أبى موسى : أن أعرابيا قال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ... الحديث . • معنى عليه

في القلوب - والرجل يقاوم للذكر - وهذا هو الحمد باللسان - فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفان نزات الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم ؛ فلان يقاوم للذكر وفلان يقاوم للملك ، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه : يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم « من غزا لا يبغي إلا عقالا فله مانوى ^(١) » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالخبيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل ، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفا من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم ، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ، ويفق بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم . فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء ، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة .

ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما في الحال وإما في المآل ، فإن علم أنه لذيق في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه ، كمن يعلم أن العسل لذيق ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه ؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والحزى الظاهر . حيث ينادى على رموس الخلائق : يا فاجر يا غادر يا مرائي ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله ، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وترينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لخطأ الله ، أما كان أحد أهون عليك من الله ! فهما تفكر العبد في هذا الحزى وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد بما كان يترجح به ميراث حسناته لو خلاص ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوى إلى النار ، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، رد إلى صف النعمال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشقت لهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ، ثم أى غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ؟ ولا يريد مدحهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة . وأما الطمع فيها في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجا

(١) حديث « من غزا لا يبغي إلا عقالا فله مانوى » أخرجه النسائي وقد تقدم .

كاذب ووم فاسد قد يصيب وقد يخطئ وإذا أصاب فلأنني لذته بألم مثله ومذلاته ؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئا ما لم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقتا إن كان بمقوتا عند الله ، فالعباد كلهم عجرة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويخفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه ، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مرء بمقوت عند الله ، ولو أخلص الله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم : إن مدحى زين وإن ذمى شين ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت ؛ ذاك الله الذي لا إله إلا هو ^(١) ، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه ، فأى خير لك في مدح الناس . وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقتربين ؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنفصات ، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذله الرياء ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووخشته من الخلق واستحقاره للعالم واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص . فهذا وما قدمنا في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء .

وأما الدواء العملي : فهو أن يعود نفسه لإخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو لإطلاعه على عباداته ولا تنازعته النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سيديك أن تخفيه لتجالسنا بعد هذا . فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها ، فلادواء الرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق في بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدة بالتسكف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل الطاف الله وما يعبده عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد و ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ﴿ والله لا يصيب أجر المحسنين ؛ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

(المقام الثاني) في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا ، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية ، فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة - قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدرج - فالأول : العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة

(١) حديث : قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين وإن ذمى شين : فقال « كذبت ذاك الله » أخرجه أحد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل « ذاك » دون قوله « كذبت » ورجاله ثقات لا أرى لا أعرف لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الأقرع ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل « إن حمدي » .

من النفس في حدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثاني : حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعل يسمى العزم وتصميم العقد . وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول وردّه قبل أن يتلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة في علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكركم رسوخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للفتنة عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله ، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ، إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الآليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء ، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما .

فإذن لا بد في ردة الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة ، والكراهة والإباء . وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يردّ خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها ، ولما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم ، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلى قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه ، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله : يايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفتر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين ^(١) حتى نودى : يا أصحاب الشجرة فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التي تهجم لحاجة هكذا تكون ، إذ ينسى معرفة مضرتها الداخلة في عقد الإيمان . ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة . وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال ، فيستوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة ، فكمن من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد ؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ، ولا تنفعه معرفته إذا خلعت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضا لا يذفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإذن لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث : وهي المعرفة ، والكراهة ، والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكير فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضا ويشمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم ،

(١) حديث جابر : يايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ... الحديث . أخرجه مسلم مختصرا دون ذكر « يوم حنين » فرواه مسلم من حديث العباس .

فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير حال عن ميل الطبع إليه وحب له ومنازعة إياه إلا أنه كاره لجه وليله إليه وغير محب إليه ، فهل يكون في زمرة المرائين ؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها ، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استئثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإذا فعل ذلك فهو النجاة في أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شكوا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها ، فقال عليه السلام « أو قد وجدتموه » قالوا : نعم قال « ذلك صريح الإيمان ^(١) » ولم يحدوا إلا الوسواس والكراهة له ، ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة ، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة ، والرياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة ^(٢) » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك ، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعانها عليه . فإذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادها بالإباء والكراهة ، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخييلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان ، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل ، إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب ، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله .

والمخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب (الأولى) أن يرده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدل معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه ، وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك . (الثانية) أن يعرف أن الجدل والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته (الثالثة) أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت ، بل يكون قد قزر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة . (الرابعة) أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان ، وذلك هو الذي يفيظ الشيطان ويقمعه ويوجب بأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلاناً يذكرك ، فقال ، والله لا أغيطان من أمره ، قيل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان ، اللهم اغفر له . أى لا أغيطانه بأن

(١) حديث : شكوى الصحابة ما يعرض في قلوبهم وقوله « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً : مثل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال « ذلك محض الإيمان » والنسائي في اليوم واليلة وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة . (٢) حديث ابن عباس « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم واليلة بلفظ « كيد » .

أطع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته . وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعمه وليحدث عند ذلك خيرا ، فإذا رآه كذلك تركه : وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك ، وإذا رآك مداوما ملك وقلاك

وضرب الحارث المحاسبى رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالمهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا ، فحسدوا على ذلك ضال مبتدع وعاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فنعه وصرفه عن ذلك ودعاة إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد صلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره . فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، فغاب منه رجاءه بالكلية . فمر الرابع فلم يتوقف له ، وأراد أن يفيظه فراد في مجلته وترك الثانى فى المشى ، فيوشك إن عادوا ومرروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يرداد فائدة باستعجاله .

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا يؤمن بزغاته فهل يجب التردد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم - كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخير والزنا - فصارت ملاذ الدنيا عندهم - وإن كانت مباحة - كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهب فرقة من أهل الشام إلى أن التردد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل بقيته ونقص توكله ، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أَرَادَ الله فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر . وقالت فرقة من أهل العلم : لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وختل قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان وزغاته فكيف يتخلص غيرهم ؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا ، بل في صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البدع والفضائل وغير ذلك ، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه ليغان على قلبي ^(١) ، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير ^(٢) . فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تعلم فيها ولا تضحى ﴾ ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك بأمره فلا بد أن لا يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار

(١) حديث : إنه ليغان على قلبي ، تقدم . (٢) حديث : لن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير . تقدم أيضا .

والدنيا وهي منبع المحن والعنت معدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ والقرآن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه ؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله ، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تطفر به ، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان ، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل ، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح في التوكل الخوف بما خوف الله به والحذر بما أمر بالحذر منه ؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما بين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالسلبية وقوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ لا يناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضر والنافع والحبي والميت هو الله تعالى ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة - كما ذكرناه في التوكل .

وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم ، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر عليهم ، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له ، فإننا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغالهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجتمع بين الأمرين ، فإننا إن نسينا ربنا عرض من حيث لا نحسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله ، فالجمع أولى . وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان ؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا ينبغي غلطه ، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى ، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه ، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان ، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله ، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ماعداه - إبليس وغيره - فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكسب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان ، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له ،

وعند التنبيه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيقتبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر ، مع أنه بالنوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبيهه ؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد ألمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فثال القاب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي . فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر ، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعبها ولا تجف البئر من الماء القذر ، والبصير هو الذي جعل مجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب .

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

إعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ، ولكن في الإظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلائية فقال ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ .

والإظهار قسمان (أحدهما) في نفس العمل (والآخر) التحدث بما عمل

القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في المأل لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه »^(١) ، وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازي إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء ، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤدي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم : السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة ، وقال قوم : السر أفضل من علانية لاقدوة فيها ، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين . ويدل عليه قوله عليه السلام « فله أجرها وأجر من عمل بها » ، وقد روى في الحديث

(١) حديث « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي .

« إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفاً^(١) ، وهذا لوجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة ، وإنما يخاف من ظهور الرياء ، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه .

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً ، ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه ، وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق ، وربما يقتدى به أهل محله ، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والتفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة ، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة بمن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيسعدوه الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجميل بالعمل وبكونه يقتدى به ، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم . فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر ، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرق فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك ، والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله ، لابل عذابه دائم مدة مديدة ، وهذه منزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتجسط أجورهم بالرياء ، والتلفظ لذلك غامض ، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف تعمل حتى يقتدى الناس بعباد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعته الرياء دون طلب الأجر واقتهاد الناس به ورغبتهم في الخير ، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومرآاتهم ؟ فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب ، وقلبا تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً والسلامة في الإخفاء ، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا ، فاحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .

القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم لإظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلت عن جميع الآفات ، لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ :

(١) حديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفاً » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتضياً على الشعر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه الجمهور ، وقد تقدم قبل هذا بنحو وورقتين وله من حديث ابن عمر « عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وقال ترمذ به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة « يفضل - أو يضاعف - الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحظظة على الذي يسمعه سبعين ضعفاً » وقال ترمذ به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف .

ما صليت صلاة منذ أسلمت لحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة لحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق . وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأنني لأدري أيهما خير لي ؟ وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه : ما تمنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وقال شذاد بن أوس . ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطئها ، غير هذه ! وكان قد قال لغلامه : اتقنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداة . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تهكوا على فاني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره ، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المراماة إذا صدرت من يرأى بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت من يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يستدباب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار المرائي للعبادة إذ لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي . فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مرأى عنده الله ؟ وقد روى أنه كان يحتاج الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف ! فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رباؤه . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ^(٢) كما ورد في الاخبار وبعض المرائين من يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل : عليك بعمل العلانية ، قال : يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال . ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه . وقال أبو مسلم الخولاني : ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا ليتاني أهلي والبول والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشبهات والاماني ، والله مطلع على جميع ذلك فإذا العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي .

وأما الصادق الذي لا يرأى فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه ، ويصح اغتيامه بإطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه :
(الاول) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا افتضح اغتم بهتلك الله ستره وعاف أن يهتك ستره في القيامة ، إذ ورد في الخبر « أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة » ^(٣) ، وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان .

(١) حديث عثمان قوله : ما تمنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث « أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث وأن عثمان قال : يا رسول الله ، فذكره باللفظ منذ بايعتك ، قال « هو ذاك يا عثمان » (٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » ما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً .
(٣) حديث « أن من ستر الله عليه في الدنيا يستر الله عليه في الآخرة » تقدم قبل هذا بوفرة .

(الثاني) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويجب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله ^(١) » فهو وإن عصى الله بالذنوب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضا ويغتم بسببه .

(الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة ، وبهذه العلة أيضا يذنبى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان .

(الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لدم الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بجرام ولا الإنسان به عاص وإنما يعصى إذا جرعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى مالا يجوز حذرا من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بدم الخلق ولا يتألم به . نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون ؛ وذلك قليل جدا ، وأكثر الطبايع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الزام من أهل البصيرة في الدين فإيهم شهداء الله ، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغتم به ؟ نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يجب أن يحمى بالورع ، ولا يجوز أن يحب أن يحمى بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره ، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد .

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يجب الحمد ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حذا وذما ، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ؟ إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم ، وأما الذم فإنه مؤلم ؛ فحب الحمد على الطاعة طاب ثواب على الطاعة في الحال ، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه بإطلاع الناس على ذنبه عن إطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين ، بل يذنبى أن يكون غمه بإطلاع الله وذمه له أكثر .

(الخامس) أن يكره الذم من حيث إن الزام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع .

(السادس) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم ، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره ، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه .

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشعر ، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من الفبايح إذا شوهدت وهو منه وصف محمود إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الإيمان ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء لا يأتي إلا بخير ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحي الحليم ^(٥) » ، فالذى يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه

(١) حديث « من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستر بستر الله » أخرجه الحاكم في المستدرک وقد تقدم .

(٢) حديث « الحياء خير كله » أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٣) حديث « الحياء شعبة من الإيمان » متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٤) حديث « الحياء لا يأتي إلا بخير » متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٥) حديث « إن الله يحب الحي الحليم » أخرجه الطبرانی من حديث فاطمة ، ولابزار من حديث أبي هريرة « إن الله يحب النقي الحليم المتعفف » وفيه لث بن أبي سليم يختلف فيه .

للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة وفقد الحياء ، فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحي ، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ، ويدعى كل مرء أنه مستحي وأن سبب تحسینه العبات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتنهج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرأى معه .

وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب ، فله عند ذلك أحوال ؛ أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء ، وهذا فعل من لاحياء له . فإن المستحي إما أن يتعمل أو يقرض .
فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال :

أحدها . أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد ، فيهيج خاطر الرياء ويقول : ينبغي أن تعطى حتى يثنى عليك ويمجّدك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء .

الثاني : أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء ، فيهيج داعي الإخلاص ويقول له : إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخر النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا مخلص هيج الحياء لإخلاصه .

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثرت الحمد والثواب فيه ، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرأى يستحي من المباحات أيضا ، حتى إنه يرى مستعجلا في المشي فيعود إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويرغم أن ذلك حياء وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح ، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة ، وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود . وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تسكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشبهة المسلم ، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضيق الأمر بالمعروف ، فالتقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب .

(الثامن) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرى عليه غيره ويقتهى به ، وهذا العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ، ويختص ذلك بالآئمة أو بمن يقتدى به ، وهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفى العاصي أيضا معصيته من أهله وولده لأهم يتعلمون منه .

ففي ستر الذنوب : هذه الأعذار الثمانية ، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصالح وحبه إياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه
(١) — لمجاهد علوم الدين — (٣)

وسلم : دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال « ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبك » (١) ، فنقول : حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمدا وقد يكون مذموما . فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك ، فإنه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبه وحدهم على حجبك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة ؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما .

بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرأيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما ذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : مالا لذة في عينه ؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاسة ومجاهدات ، إنما تصير لذيدة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيد ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : ما هو لذيد ؛ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة .

القسم الأول : الطاعات اللازمة للبدن - التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها - كالصوم والصلاة والحج ، فخطرات الرياء فيها ثلاث (إحداها) ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لاطاعة فيه ، فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عبادته ؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل . (الثانية) أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها ، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعاملات التي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول (الثالثة) أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه ، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تحب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تحب ودفعت بقي يقول لك : هذا العمل ليس بخالص وأنت مرء وتعبك ضائع فأى فائدة لك في عمل لا إخلاص ؟ حتى يملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه . ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرأيا كمن سلم إليه مولا به حنطة فيها زؤان وقال : خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة ، فترك أصل العمل ويقول : أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا . فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له . ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مرء فيعصون الله به . فهذا من مكاييد الشيطان لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذاك ، ثم إن كان فلا يضرك قولهم ويفوته ثواب

(١) حديث : قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال « ازهد في الدنيا يحبك الله . » الحديث « أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ « وازهد فيما في أيدي الناس » وقد تقدم

العبادة ، وترك العمل خوفا من قولهم إنه مرء هو عين الرياء ، فلولاً حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم قاله ولقولهم قالوا إنه مرء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأى فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مرء ، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل مقصر ؟ بل ترك العمل أشد من ذلك . فهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له : الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتبه الشهرة . فيضطر بك بذلك إلى أن تهرب ، فإن هربت ودخلت سرباً تحت الأرض ألقي في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه ؟ بل لإنجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك ، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي ، وإن نزغ العدو نازغ الطبع فإن ذلك لا ينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يحجز إلى البطالة وترك الخيرات . فما دمت تجمد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعاك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطاع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك ، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل . فإن قال لك الشيطان : أنت مرء ، فأعلم كذبه وخدعه بماتصاف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى ، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فانترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب .

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال : لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن : إن كان أحدهم ليتر بالآذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة ؟ قلنا : هذا يمارضه ماورد من إظهار الطاعات من لا يحصى ، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإمالة الآذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه ، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف ، فالاعتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء . وأما لإطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعله بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بكاملته ، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الآذى فذلك من يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر منه رفع خشبة من الطريق ، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا يجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي : إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه ، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني ، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة بيدن

العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تحويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً من طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والاختطار ، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التدبير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة : فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً »^(١) ، فأعظم بمباداة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط »^(٢) ، أحدهم . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل »^(٣) ، أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل »^(٤) ، رواه أبو سعيد الخدري . فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا : فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً ، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً ، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول : « من يأخذها بما فيها ، وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوراً »^(٥) ، رواه معقل بن يسار ، وولاه عمر ولاية فقال : « يا أمير المؤمنين أشر على ، قال : اجلس واكتم على . وروى الحسن : « أن رجلاً ولّاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي : خرتي قال : اجلس »^(٦) ، وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها »^(٧) ، وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر : لا تأمر

(١) حديث « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عياض بن حاد « أهل الجنة ثلاث : ذو سلطان مقسط ... الحديث » ولم أر فيه ذكر الأولوية (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل » تقدم (٤) حديث أبي سعيد الخدري « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل » أخرجه الأصماني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم الديباجي ضعيف أيضاً (٥) حديث « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلوله إلى عنقه لا يفكها إلا عدله » أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبخاري من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عباد وفيها يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبخاري وأبو يعل والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء « مامن والى ثلاثة إلا أقر الله مذلته » عينه ... الحديث » وقد عزي المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار « مامن عبيد استرعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة » متفق عليه (٦) حديث الحسن : « أن رجلاً ولّاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : خرتي قال : اجلس » أخرجه الطبراني موصولاً من حديث « صفة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديث منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ « الزم بيتك » وفيه التراب بن أبي التراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم صدوق . (٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الإمارة ... الحديث » متفق عليه .

(٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الإمارة ... الحديث » متفق عليه .

على اثنين ، ثم ولى هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لى لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله ، يعنى لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين لا يذنبى أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا يذنبى أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعنى بالقوى الذى لا تميله الدنيا ولا يستغزه الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا فى الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقهروا الشيطان فأيس منهم ، فهو لاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل فى الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات ، ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشبهات فى غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاق لذة الولاية وأن تستحل الجاه وتستلذ نفاذاً الأمر فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ؛ فهذا قد اختلف العلماء فى أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية ؟ فقال قائلون : لا يجب لأن هذا خوف أمر فى المستقبل وهو فى الحال لم يعدد نفسه إلا قوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس ، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد . ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع لاسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداينة وإهمال الحق وتهوى به فى قعر جهنم ، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً ، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أماراة الشر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إنا لانولى أمرنا من سألنا (١) ، فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض .

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو فى معناها ، فإن كل ذى ولاية أمير - أى له أمر نافذ - والإمارة محبوبة بالطبع ، والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق ، والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : القضاء ثلاثة : قاضيان فى النار وقاض فى الجنة (٢) ، وقال عليه السلام : من استقضى فقد ذبح بغير سكين (٣) ، لحكمه حكم الإمارة يذنبى أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن فى عينه ، وليقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه ، فليس له أن يتقلد القضاء ، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له فى الإهمال أصلاً ، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثواباً ؟ وهو مع الظلمة فى الدرك الأسفل من النار .

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية - وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به

(١) حديث « إنا لانولى أمرنا من سألنا » متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث « القضاء ثلاثة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث يريدة وتقدم فى العلم وإسناده صحيح (٣) حديث « من استقضى فقد ذبح بغير سكين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ « من جعل قاضياً » وفى رواية « من ول القضاء » وإسناده صحيح .

القدر : فأفته أيضا عظمة مثل آفة الولايات ، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون : حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدثنا ، فقد قال أوسعوا لي . ودفن بشر كذا وكذا قطرا من الحديث وقال : ينعني من الحديث أني أشتي أن أحدث ، ولو اشتيت أن لا أحدث لحدثت . والواعظ يحد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقائهم وإقبالهم عليه لذة لاتوازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ، ويفر عن كل كلام يستقله العوام وإن كان حقا ، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم ، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ، ثم يقول : إذا أنعم الله على بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة لحكمه حكم الولايات ، فمن لا باع له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثف فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه ، إلى أن تراض نفسه وتقوى في الدين همته وبأمن على نفسه الفتنة ، فعند ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق ؟ فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة وتوعد عليها ^(١) حتى قال : إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها ^(٢) ، وقال : نعتت المرضعة وبئست الفاطمة ^(٣) ، ومعلوم أن السلطة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعاش فلم ينه عن ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبي بن كعب - رأى قوما يتبعونه - وهو في ذلك يقول : أبي سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع ، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فنهى فقال : أتمنعني من نصيح الناس ؟ فقال : أخشى أن تلتفتخ حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى ، وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط ، إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء ^(٤) بل الرياسة وحبا يضطر الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تدرس ، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ، ثم إنى أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلافليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم ، وإلا فليعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمعته في الظاهر وتحييله إلى العوام أنه إنما

(١) حديث : النهي عن طلب الإمارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسئل الإمارة » وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث .
(٢) حديث « إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة إلا من أخذها بحقها » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله « إلا من أخذها بحقها » وزاد في آخره « نعتت المرضعة وبئست الفاطمة » ودون قوله « حسرة » وهي في صحيح ابن حبان .
(٣) حديث « نعتت المرضعة وبئست الفاطمة » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن حبان بلفظ « فبئست المرضعة وبئست الفاطمة » (٤) حديث : النهي عن القضاء ... أخرجه مسلم من حديث أبي ذر « لا تؤسرن على اثنين ولا ثلثين ماله يقيم » .

يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا تمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفسي فنقول : اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك هلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره ، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده ، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم »^(١) ، ثم الراعظ هو الذى يرغب فى الآخرة ويتردد فى الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته . فأما ما أحدهم الوعاظ فى هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف المسلمين ، بل فيه الترجية والتجربة على المعاصى بطيارات النكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان ، وإنما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره ، وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون ما لا تعملون ، فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والامانى وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم : لا تكونوا كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم ، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأى ناس أخس منكم لو تعلمون ، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للدجلين ، وتقيمون فى محلة المتجبرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركبوها لكم مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ! كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة ! يا عبيد الدنيا ، لا كعييد أتقياء ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلككم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سواكم ، ثم يحزركم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسبى هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا ، فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد فى العلم والوعظ غرائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أيماداع دعا إلى هدى واتباع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه »^(٣) ، إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراعاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا ترك العمل ولكن أتم العمل وجاهد نفسك ؟ فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمامة ، ولا نقول لأحد من عباده أترك العلم إذ ليس فى نفس العلم آفة وإنما الآفة فى إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث ، ولا نقول له أيضا أترك ما دام يجد

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائى وقد تقدم قريبا (٢) حديث « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » متفق عليه من حديث سهل بن سعد باللفظ « خير لك من حر النعم » وقد تقدم فى العلم (٣) حديث « أيماداع دعا إلى هدى واتباع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » أخرجه ابن ماجه من حديث أس بن زيادة فى أوله ولمسلم من حديث أبي هريرة « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ... الحديث » .

في نفسه باعثا دينيا مزوجا بباعث الرياء ، أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها ، أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم .

وبالجملة فالمراتب ثلاث (الأولى) الولايات ؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة (الثانية) الصوم والصلاة والحج والغزو ؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفائهم ولم يؤثر عنهم الترك لحوف الآفة . وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة (الثالثة) وهي متوسطة بين الرتبين ؛ وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس ، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة ، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء ، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما ، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه ، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم .

وهنا رتبة رابعة وهي : جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين ، فإن في الانفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفي إدغال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضا كثيرة .

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال : القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء : ما يسرنى أننى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها ، أما إنى لأحرم البيع والشراء ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل ، والاختار والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبر ؛ وقال : أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات ، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركها لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل

وبالجملة : ما يتعلق بالخلق والنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات ، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستغفرت قلبه ، ويزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر ، ليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع .

وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفصيلها بنفى وإثبات فهو موكل إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ثم قد يقع بما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل . ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب : أن الأفضل الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر ؟ وذلك لما في الكسب من الآفات ، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال .

فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مرید رياء الناس ؟ فاعلم أن لذلك علامات (إحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل عليه (والأخرى) أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه ، فينظر إلى الخلق بعين واحدة (والأخرى) أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق . ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال : كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر ، فدخل المسجد على برذونه ، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقه أحفل من حلقه الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له عن ناحية مجلسه ، قال سعيد : وتجايفت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج ، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له - يتكلم به في كل يوم - فسا قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت في نفسي ؛ لأبلون الحسن اليوم ولا نظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه ، أو يحمل الحسن هيئة الحجاج أن ينقص من كلامه ؟ فتكلم الحسن كلاما واحدا نحووا عما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه ، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكثرت به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال : صدق الشيخ وبر فعلكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقا وعادة فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم د أن مجالس الذكر رياض الجنة ^(١) ، ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها ، قال : ثم افتقر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ طفق فقام ، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن - حين قام الحجاج - فقال : عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأنى أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ، وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء وأن لي سبع بنات من العيال ؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له ولأصحابه ، والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال : ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولاً وقتلوا الناس على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عذق الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السبابة ، وإذا أغزى أحياه أغزاه طاويا راجلا ؟ فافتقر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه ، فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسمى به إلى الحجاج وحكى له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم ، وقلبا رأيته فاغرا فاه يضحك إنما كان يتبسم ، فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال : إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم ، إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسمى بنا إلى شرارة من نار ! إني أتيت هذا الرجل فقال : أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عذق الله غزا كذا وكذا ، وإذا أغزى أحياه : أغزاه كذا ! لا أبالك ! تعرض علينا الناس ؟ أما إنا على ذلك لإتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك ، قال : فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل فينبها هو يسير إذا التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال : هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء . وإلا فارجموا فما يبقى هذا من قلب العبد ؟ فهذه

(١) حديث : أن مجالس الذكر رياض الجنة . تقدم في الأذكار والدموات .

العلامات وأمثالها تدبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين .

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو من يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للوافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده ، أو يصلى مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً ، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولا لما انبعث هذا النشاط ، فهذا ربما يظن أنه رياء . وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تسهويه الغفلة ، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والاشتغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجه ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتت رغبتة عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء ، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم ، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الاطعمة ويشق عليه الصبر عنها ، فإذا أعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين ، فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم ، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنك تكون مرأياً إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا ترد على صلاتك المعتادة ، وقد تكون رغبتة في الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم ويريد أن يحفظ منزلته ، وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص واست تصلى لأجلهم بل لله وإنيما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وإنيما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم . وهذا أمر مشتبّه إلا على ذوى البصائر ، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يمضى الله بطلب محبة الناس بطاعة الله ، وإن كان انبعثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه ؟ فإن سجت نفسه فليصل فإن باعته الحق ، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعته الرياء . وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم ، ويمكن أن يكون ذلك لحب حدم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد ، فهما علم أن الغالب على قلبه لإرادة الدين فلا

ينبغي أن يترك العمل بما يحده من حب الحمد ، بل ينبغي أن يرذ ذلك على نفسه بالكراهية ويشغل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء ، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيتبأكي - تارة رياء وتارة مع الصدق - إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتبأكي تكلفاً ، وذلك محمود . وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يروونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتبأكي أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغي أن يترك التباكي . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة والتنفس والآنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والآنين ويتحازن وذلك محمود ، وقد تفرقت به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء ، وإن افرنت بداعية الحزن فإن أباهما ولم يقبلها وكرهاها سلم بكأؤه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله تعالى به ، وقد يكون أصل الآنين عن الحزن ، ولكن يمتد وي زيد فيرفع الصوت فتلك الزيادة رياء ، وهو محذور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء ، فقد يهينح من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة ، فيزعق ويتواجد تكلفاً ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق ، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة ، وإنما هي كبرق خاطف ، فيستدبم الرعدة والرقص ليرى دوام حاله ، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال لم تكن غشيتته صحيحة ولو كان لدام ضعفه ، فيستديم إظهار الضعف والآنين فيتكبر على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتأيل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي . فهذه كلها مكاييد الشيطان ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلمعوا على ضميره لمقتوه ، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتاً ، كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ ! الذى يراك حين تقوم ؟ المجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين .

وقد جاء في الخبر « تعوذوا بالله من خشوع النفاق »^(١) ، وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراعاة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهى مع تقاربها متشابهة ، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو ؟ فإن كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شيء من الرياء الذى هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا ؟ اخوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حدم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً ،

(١) حديث « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الأبادي ضبطه أحمد وابن معين .

فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك . وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال : يا أيوب أما علمت أن العبد تفضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته . وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما : اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامة العيون علانيتي وتقبخ لك فيما أخلو سريري ، محافظاً على رياء الناس من نفسي مضيئاً لما أنت مطلع عليه مني ، أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عملي ، تقرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسيأتي ، فيحل بي مقتك ويحب علي غضبك ، أعذني من ذلك يارب العالمين . وقد قال أحد الثلاثة نفر لايوب عليه السلام : يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء . فليراقب العبد قلبه ليقف عليها في الخبر « إن الرياء سبعين باباً » (١) ، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض ، حتى إن بعضه مثل ديب النمل ، وبعضه أخفى من ديب النمل ، وكيف يدرك ما هو أخفى من ديب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة ؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها ؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله ، فأما من خاف غيره وارتجأه انتهى اطلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء وتقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك ! فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ، ويتذكر في مقابلة عظم عمله : عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده ، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط العمل العظيم فيقول : وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرعون لي على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأما المخطئون فليس ذلك من شأنهم ، فيترك المجاهدة في الإخلاص ، لأن المخطط إلى ذلك أحوج من المتقي ، لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة ، والمخطط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به ، فالمخطط إلى الإخلاص أحوج . وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكمل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ

(١) حديث « الرياء سبعون باباً » هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكأه تصحيف عليه أو على من نقله من كلامه أنه « الرياء » بالثناة وإنما هو « الرياء » بالوحدة والمرسوم كتابته بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « الرياء سبعون حوبا أسرها أن ينكح الرجل أمه » وفي لسانه أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الرياء ثلاث وسبعون باباً » ولسانه صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى الزائر حديث ابن مسعود بلفظ « الرياء بضع وسبعون باباً والفرك مثل ذلك » وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه « الرياء » بالثناة لا اقترانه مع الفرك وافة أعلم .

بطرفيه فالتى فى النار (١) ، فىأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل ، وأما المتقى لجهده فى زيادة الدرجات فإن حبط تطوعه بقى من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة .

فإذن ينبغى أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به ، وإذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى ما لم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده إلا فى ابتداء العقد ، بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله ، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ، ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك فى أنه هل أفسده برباءة ؟ فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات . فالإخلاص : يقين ، والرياء : شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذى يتقرب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة وحدوثاء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة ، أو مرافقه فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمته التليذ بنفسه فقبل خدمته ، فترجوا أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريد منه ، ولا يستبعده منه لوقطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى إن بعضهم وقع فى بحر لجاء قوم فأدلوأ حبلا ليرفعوه لحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخى : أهديت لسفيان الثورى ثوبا فردده على ، فقلت له : يا أبا عبد الله لست أنا من يسمع الحديث حتى تردده على قال : علمت ذاك ولكن أخوك يسمع منى الحديث فأخاف أن يلين قلبى لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان بيدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا ، فقال له : يا أبا عبد الله فى نفسك من أبى شئ ؟ فقال : يرحم الله أباك - كان وكان وأثنى عليه - فقال : يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال إلى ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك (قال) فقبل سفيان ذلك (قال) فلما خرج قال لولده : يا مبارك الحق فردده على ، فرجع فقال : أحب أن تأخذ مالك ، فلم يزل به حتى رده عليه . وكأنه كانت أخوته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده : فلما خرج لم أملك نفسى أن جئت إليه فقلت : ويك أى شئ قلبك هذا حجارة ؟ عد أنه ليس لك عيال ! أما ترحنى ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالتنا ؟ فأكرت عليه فقال لى : يا مبارك تأكلها أنت هنيئا سريئا وأسأل عنها أنا .

فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اهتداء الناس به فقط ، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده ، لا عند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أن له أن يرائى بطاعته لينال عند المعلم رتبته ، فيتعلم منه ، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران فى الحال ، والعلم ربما يقيد وربما

لا يفيد ؟ فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهم علم ! وذلك غير جائز ، بل ينبغي أن يتعلم الله ويعبد الله ويخدم المعلم الله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة ، فإن العباد أسروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين ، ولا يجوز له أن يراى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين ، فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً . وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بقلبه ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله ، فإن ذلك يفرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به ، وإنما سكوته لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه .

قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته فقلت : يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : يا حنيئ وما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم ، قال : في كل ليلة حمصة قلت . فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير الذي بجذائك ؟ قلت : نعم ، قال : لأنهم يأتون في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني ، فكلما تشاقت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ! فأحتمل يا حنيئ جهد ساعة لعز الأبد ، فوقر في قلبي المعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى لي ركة فيها عشرون حمصة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا : يا حنيئ ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : من قوته قالوا : فما تصنع به ونحن أحق به ؟ ثم قالوا : ساوم ! قلت : عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال : يا حنيئ ما الذي صنعت ؟ قلت : بعته منهم ، قال : بكم ؟ قلت : بعشرين ديناراً ، قال : أخطأت ! لوساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك ، هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده ؟ يا حنيئ أقبل على ربك ودع الذهاب والجئته .

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد به ، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ، فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلا كراهة ضعيفة ، إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه ، فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزد ذلك خشوعاً ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه ؛ إلا أن يريد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كي لا ينسطوا إليه ، فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور ، إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية لإظهار الخشوع وتتعلم بطلب الانقباض فيطالبا في دعواها قصد الانقباض بموتق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدوا كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمع نفسه بذلك ؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة

في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى ، فن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مرأه أو طماع ، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة ، والنظر إلى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقر ؟ وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري ، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغنى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغنى عليه في إكرام وتوقير ألبته ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى ، فيشارك لا يكون إلا طمعا في غناه ورياء له ، ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي ، كما قال ابن السماك لجارية له مالى إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة ؟ فقالت : الطمع يشحن لسانك وقد صدقت ! فإن اللسان ينطق عند الغنى بما لا ينطق به عند الفقير ، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير . ومكايد النفس وخفايها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجليك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة ، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات ، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه ، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها ، فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتياته ، فهما نازعتا نفسه إلى شهوة تفكر في توالى الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشهامة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنىء وبدن صحيح وقلب رضى وأمر نافذ ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصاراة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجترى منها بالقليل ، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه ، تخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بمأقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد ، ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عوناً وبهم رموفاً وعليهم عطوفاً ولو شاء لاغناهم عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا ، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وخط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر ، وحجب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمدته بمعونته ، فإن الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذواعا ، ويقول تعالى : لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ولانى إلى لقاءهم أشد شوقا ، فليظهر العبد في البداية جدّه وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بحجوده وكرمه ورأفته ورحمته .

ثم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لا يضره عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع ، فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم لإحصائه واستقصائه ، فاعترف بالجزع عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدي القياصرة عظمتة وكبرياؤه ، فالعظمة لإزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بدماء الموت فأعجزه دواؤه ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى الكبرياء رداؤه والعظمة لإزاره فمن نازعه فيهما قصمته ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(٢) » ، فالكبر والعجب دامن مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيان مريضان ، وهما عند الله بمقوتان بغيضان . وإذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنيهما من قبائح المرديات . ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين : شطر فى الكبر ، وشرط فى العجب .

الشرط الأول من الكتاب : فى الكبر ؛ وفيه : بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر . وبيان امتحان النفس فى خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه .

بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ وقال عز وجل ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ وقال تعالى ﴿ واستفتحوا وعاب كل جبار عنيد ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وذم الكبر فى القرآن كثير وقد

كتاب ذم الكبر والعجب

(١) حديث « قال الله تعالى الكبرياء رداؤه والعظمة لإزاره فمن نازعه فيهما قصمته » أخرجه الحاكم فى المستدرک دون ذکر « العظمة » وقال صحيح على شرط مسلم ويهمل فى العلم ، وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث « ثلاث مهلكات » . الحديث أخرجه البزار والطبرانی فى المعجم من حديث أس بن سند ضعيف ويهمل فيه أيضاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ^(١) ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي ^(٢) ، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا ، ففضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي ، فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب ^(٤) ، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما - للطير والإنس والجن والبهائم : اخرجوا ، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعته . وقال صلى الله عليه وسلم : يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر وبالمصورين ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : تحاجت الجنة والنار فذالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاةهم وعجرتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى ^(٨) ، وعن ثابت أنه قال : بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال : أليس بعده الموت ^(٩) ، وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال : إني آمركما بأثنتين وأنها كما عن اثنتين ، أما كما عن الشرك والكبر ، وأمركما بلا إله إلا الله . فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها ، وأمركما بسبحان الله

(١) حديث « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود . (٢) حديث أبي هريرة « يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له ، وقال أبو داود « قد ذنت في النار » وقال مسلم « مذنته » وقال « ردائه » و « إزاره » بالنيابة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضاً (٣) حديث عبد الله بن عمرو « من كان في قلبه مثقال حبة من كبر أكبه الله في النار على وجهه » أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح (٤) حديث « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله « من العذاب » (٥) حديث « يخرج من النار عنق له أذنان ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث « لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيئ الملكة » تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمروء « خائن » مكان « جبار » (٧) حديث « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ... الحديث » ، يثق عليه من حديث أبي هريرة (٨) حديث « بئس العبد عبد تجبر واعتدى . الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس لأستاد بالقوى ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث لعيم بن عمار وضعفه (٩) حديث ثابت : بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال : أليس بعده الموت » أخرجه البيهقي في الشعب هكذا مرسلًا باللفظ « تجبر » .

وبجمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ^(١) ، قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال صلى الله عليه وسلم : أهل النار كل جمعطرى جواظ مستكبر جماع مناع ، وأهل الجنة الضمفاء المقلون ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن أحبك إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ، قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ المتكبرون ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطوهم الناس ، ذراً في مثل صور الرجال يعلمهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلمهم نار الانيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار ^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطوهم الناس لهوانهم على الله تعالى ^(٥) ، وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يابلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن في جهنم وادياً يقال له ههب حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يابلال أن تكون ممن يسكنه » ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء ^(٨) ، وقال : « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والغلول » ^(٩) .

الآثار : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريرته ، فجاء يوماً ومصعب ماد رجله فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أمر ذلك في وجهه فقال : عجبالا إن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم ، يغسل الخمر بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات . وقد قيل في ﴿ وفي أنفسكم

(١) حديث عبد الله بن عمرو : « إن نوحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال : إني أمركما بانثنين وأنها كما عن الشرك والكبر ... الحديث » أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم زيادة في نقله قال صحيح الإسناد .
(٢) حديث « أهل النار كل جمعطرى جواظ مستكبر جماع مناع » وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعي « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » (٣) حديث « إن أحبك إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني باللفظ « إلى » و « من » وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث (٤) حديث « يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا في صور الرجال ... الحديث » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال غريب .

(٥) حديث أبي هريرة « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر ... الحديث » أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله « الجبارون » وإسناده حسن (٦) حديث أبي موسى « لمن في جهنم وادياً يقال له ههب حق على الله أن يسكنه كل جبار » أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد ، قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث (٧) حديث « لمن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال « توابت » مكان « نصرا » وقال « فيقفل » مكان « يطبق » وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف .

(٨) حديث « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء » لم أره بهذا اللفظ ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمراء حديث « أهو بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهزه » قال : نفثه القمرون نفثه الكبر وهزه الموت ، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه ، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب .

(٩) حديث « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة : الكبر والدين والغلول » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للجمهور في الرواية أنه الكبر (بالموحدة والراء) لكن فكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال (إنما هو السكتر) بالنون والزاي) وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير (والذين يسكنون الذهب والفضة)

أفلا تبصرون ﴿ هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن علي : ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو أكثر . وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر وقال النعمان بن بشير - علي المنبر - إن للشيطان مصالي ونفوخا ، وإن من مصالي الشيطان ونفوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

بيان ذل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الشيا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » ، وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فتر به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول : أي بني أرفع إزارك فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء^(٣) » ، وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال « يقول الله تعالى : ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وتيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ! وأنى أوان الصدقة^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مشيت أمتي الميططاء وخدمتهم فارس والروم سلك الله بعضهم على بعض^(٥) » ، قال ابن الأعرابي : هي مشية فيها اختيال . وقال صلى الله عليه وسلم « من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان^(٦) » .

الآثار : عن أبي بكر الهذلي قال : بينما نحن مع الحسن إذ سر علينا ابن الأهم يريد المقصورة وعليه جباب خز ، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف... أف... شاخ بأنفه ثاني عطفه مصعق خده ينظر في عطفه ، أي حميق أنت تنظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها ، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفنة ، فسمع ابن الأهم فرجع يعتذر إليه فقال : لا تعتذر إلى وتب إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى ﴿ ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض وإن تبلغ الجبال طولا ﴾ ؟ ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعا فقال له : ابن آدم معجب بشبابه محب لشماله ، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ، ويحك ! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر

(١) حديث « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « بينما رجل يتبختر في بردته قد أعجبته نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث ابن عمر « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء » رواه مسلم مقتصرًا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن السار رجل من بني ليث غير مسمى (٤) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال « يقول الله : ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث عمر بن جعاش (٥) حديث « إذا مشيت أمتي الميططاء .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر : الميططاء (يضم الميم وفتح الطاء) المهملتين بينهما مثناة من تحت) مصرا ولم يستعمل مكبرا (٦) حديث « من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضبان » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر .

ابن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف ؛ فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمر جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من في بطنه خرام ؟ فقال عمر كالمعتذر : يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال : أتدري من أنت ؟ أما أمك فأشترتها بمائتي درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله ! ورأى ابن عمر رجلا يجترأ زاره فقال : إن للشيطان إخوانا - كررها مرتين أو ثلاثا - ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز ، فقال : يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفني ؟ فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة ! فضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أي يتبختر وإذا قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلندكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا ومعه ماسكان وعليه حكمة يسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبداها ثم قال اللهم ضعه وإن وضع نفسه قال اللهم ارفعه » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالف أهل الفقه والحكمة » (٣) ، وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما فأتيناه عند إفطاره بقدر من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رفعه وذاقه وجد جلاوة العسل فقال « ما هذا ؟ » قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال « أما إلى لا أحرمه ومن تواضع لله زفحه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » (٤) ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكتره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخله ثم قال له « اطعم » فكان رجلا من قريش اشتاز منه وتكتره فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها » (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خيرني ربي بين أسرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدر أيهما أختار وكان صفيي من الملائكة جبريل فرفعت رأسي إياه فقال : تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً » (٦) ، وأوحى الله

- (١) حديث « ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
 (٢) حديث « ما من أحد إلا ومعه ماسكان وعليه حكمة يسكانه بها ... الحديث » أخرجه العقيلي في الضمفاء والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاماً ضعيف . (٣) حديث « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ... الحديث » أخرجه البهقي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبخاري من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان . (٤) حديث أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائماً الحديث « وفيه » من تواضع رفعه الله ... الحديث « روى البخاري من رواية طلحة بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » ولم يقل « بقاء » وقال الذهبي في الميزان لأنه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل ... الحديث « وفيه » أما لاني لأزعم أنه حرام ... الحديث « وفيه » من أكثر ذكر الموت أحبه الله » وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله « ومن بذر أفقره الله » وذكرنا فيه قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وتقدم في ذم الدنيا . (٥) حديث السائل الذي كان به زمانة منكرة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على نخله ثم قال « اطعم » الحديث لم أجده أصلاً والموجود حديث أكله مع مجذوم روى أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب . (٦) حديث « خيرني ربي بين أسرين عبداً رسولاً ملكاً نبياً ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

تعالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمى ولم يتعظم على خلقه وألزم قلبه خوفه وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجله وقال صلى الله عليه وسلم ، الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى ^(١) ، وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم : بلغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربع لا يعطيهم الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا ^(٣) ، وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله ^(٥) ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جذرى قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه ^(٧) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوماً : مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة ، قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار ^(٩) .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال اخساً خساً ك الله ، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقق عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبد الله : انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسقوته عليه ، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي ، فذكرت له ما صنعت فقال لي : يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت : لا ، قال : إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات ، التواضع .

(١) حديث « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلًا وأسنده الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته ... الحديث » أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودى مختلف فيه .

(٣) حديث « أربع لا يعطيهم الله إلا من يحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله والتواضع ، والزهد في الدنيا » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس « أربع لا يصبى إلا بمحب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وفلة الذي » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس « إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة » أخرجه البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمة بن صالح ضعفه الجمهور (٥) حديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ... الحديث » أخرجه في الترقيب والترهيب من حديث أنس وفيه بصر بن الحسين وهو ضعيف جداً ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياضى وخارجه بن مصعب وكلامه ضعيف (٦) حديث : كان يطعم فجاء رجل أسود به جذرى فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٧) حديث « إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » غريب (٨) حديث « مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة » قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع « غريب أيضاً .

(٩) حديث « إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار » غريب أيضاً .

وقال يوسف بن أسباط : يحزى قليل الورع من كثير العمل ويحزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ماهو ؟ فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عن من فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياء عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك . وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السماك على هرون فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك ، فقال : ما أحسن ماقلت ! فقال : يا أمير المؤمنين إن أمراً آتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده فحذف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله ، فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول : مسكين مع مساكين . وقال بعضهم : كما تكثره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة . روى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن : أتدون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شيمت الجبال وتطاوت وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان : إن الله عز وجل اطلع على قلوب الأدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام نخسه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات : لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إلى أخشى أنهم حرموا بسبي . ويقال : أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون هند نفسه ، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شر كم رحلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أو سعى قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبدا . وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلولة وريح حراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا ، فسكني ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم ، قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي : أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذلي عطل ذل اليهود . ويقال : من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شحرف قال : رأيت على أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظمي ، فقال لي : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله ! وأحسن من تبه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل ، وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف

نفسه . وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقل له : فتي يكون متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كأتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصابيد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي : الشريف إذا تنسك تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ : التكبر على ذى التكبر عليك بماله تواضع ، ويقال : التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن ، والتكبر في الخلق كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقبح . ويقال : لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزجاني : النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك ، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى ، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يكون في آخر الزمان زعيم القوم أزدلهم ^(١) ، ما تكلمت عليكم : وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ، ولعل مراده أن التواضع بثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها . وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : فجعلت أنظر إليه وأنا مله فقال لي : مالك تنظر إلى ؟ فقلت له : شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال إنى ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعت الله حيث يرفع الناس . وقال المغيرة كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء . وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذ بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول سلوا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم . ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه ، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفأخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سلمان لكنني خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيغة منتنة ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لثيم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى ، والغنى في اليقين ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا

(١) حديث « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أزدلهم » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة « إذا اتخذ الله دولا ... الحديث » وفيه « كان زعيم القوم أزدلهم ... الحديث » وقال فريب وله من حديث علي بن أبي طالب « إذا فطنت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » فذكر منها « وكان زعيم القوم أزدلهم » ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة « من اقتراب الساعة اتنازوسهمون خصلة » فذكرها منها وفيها فرج بن فضالة ضعيف .

ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب - كما سيأتي - فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لولم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبرا ، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لورأى نفسه أحقر لم يتكبر ولورأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لأن هذه الرؤية تنفي الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل في قلبه اعتقاد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من نفخة الكبرياء »^(١) ، وكذلك قال عمر أخشى أن تلتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح . فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتعزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما ، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ قال عظمة لم يبلغوها ، ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا ، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراء وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومواقفته ، ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته ، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأ بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول ، وإن وعظ عنف في النصيح ، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمسلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر استمها لا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصي فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة . فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلبا ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »^(٢) ، ولإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصيح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصيح وفيه العز ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز : ولا معنى للتطويل فما من خلق

(١) حديث « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » تقدم فيه . (٢) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم فيه .

ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه . والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ إلى قوله ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ ثم قال ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عقياً على الله تعالى فقال ﴿ ثم لننزعن من كل شعبة أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ وقال تعالى ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ قيل في التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام : إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أن من شمع برأسه إلى السقف شجيرة ، ومن طأطأ أظله وأكبه . فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال : من سفه الحق وغمص الناس (١) .

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذا تكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :
الاول : التكبر على الله ؛ وذلك هو أخش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهمية . بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذا استكشف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن يستكشف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

القسم الثاني : التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره قيمته عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه ، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، كما حكى الله قولهم ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ وقولهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا . ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأنكم إذا لحاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيراً . وقالوا نولاً أنزل عليه

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس « أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال « بطر الحق وغصت الناس » ورواه الترمذي قال « من بطر الحق وغمص الناس » وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عتبة عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريمانة هكذا .

ملك) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً . قال وهب : قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان ، فشاور هامان فقال هامان : بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام . وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال قتاده : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يقيم كيف بعثه الله إلينا ؟ فقال تعالى ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم فأنزله الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ إلى قوله ﴿ ماعليك من حسابهم ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ﴿ مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قيل يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة لجهل كونه صلى الله عليه وسلم حقاً ، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿ فله جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وقال ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾ وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله .

القسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحققر غيره ، فتأني نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين ؛ أحدهما : أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فن أين يليق بحاله الكبر ؟ فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله ، ومثاله : أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره ، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهديفه للخزي والنكال ! وما أشد استجرامه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه ! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى « العظمة لأزاري والكبرياء ردائي فن نازعني فيهما قصمته ، أي لأنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي ، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي ، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك يستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره ، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالحق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم ، فن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك .

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ... الحديث « في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال « فقال المبركون » وقال ابن ماجه « قالت قريش » .

الوجه الثاني : الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استكف عن قبوله وتشمر لجحده ، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجادلون تجاهد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده واحتمال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون) فكل من يتناظر للغلبة والإلغام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق ، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعد كما قال تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال : يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فقتل المتكبر الذى خالفه والذى أمره كبراً . وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال : عليك نفسك ! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « كل يمينك » قال لا أستطيع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا استطعت ، فما منعه إلا كبره » قال . فما رفعها بعد ذلك ^(١) أى اعتلت يده . فإذا تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله ، وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال : أنا خير منه ، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فحمله ذلك على أن يتمتع من السجود الذى أمره الله تعالى به ، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجزه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد ، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال : يا رسول الله إني امرؤ قد حجب إلى من الجبال ما ترى أفن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس ^(٢) ، وفي حديث آخر من سفه الحق ^(٣) ، وقوله « وغمص الناس » أى ازدراهم واستحققهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذه الآفة الأولى « وسفه الحق » هو رده وهى الآفة الثانية ، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار ، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

بيان مابه التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال . وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، فالديني هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب .

الأول : العلم ؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء » ^(٤) فلا يلبث

(١) حديث : قال لرجل « كل يمينك » قال : لا أستطيع قال « لا استطعت » الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .
(٢) حديث : قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حجب إلى من الجبال ما ترى... الحديث « وفيه » الكبر من بطر الحق وغمص الناس « أخرجه مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بمحدثين (٣) حديث « الكبر من سفه الحق وغمص الناس » تقدم معه (٤) حديث « آفة العلم الخيلاء » قلت : هكذا ذكره المصنف والمروفي « آفة العلم النسيان » آفة الجبال الخيلاء ، هكذا رواه القضاة في مستند العصابة من حديث علي بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس « آفة الجبال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحميد الكوفي لا يدري من هو حدث عن أبيه بمحدث موضوع قاله صاحب الميزان .

العالم أن يتعزز بمرة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكأله ويستعظم نفسه ويستحققر الناس وينظر اليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدوه بالسلام ، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنعة عنده وبدأ عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويتخذوه شكراً له على صنيعه ، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراءه ، وكان تعليمه العلم صنعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً ، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه - كما سيأتي في طريق معالجة التكبر بالعلم - وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقديره في القيام بشكر نعمة العلم . ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علماً ازداد وجعاً وهو كما قال .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً ؟

فاعلم أن لذلك سببين : (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً ، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن . قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلاً بها كبراً ونفاقاً ، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً ، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة ، وهذه تورث التواضع غالباً .

(السبب الثاني) أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردى النفس سيئ الاخلاق ، فإنه لم يشتغل أولاً بهذيب نفسه وتركية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقى خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم - أى علم كان - صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره وام يظهر في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافياً فتشربه الأشجار بمرورها فتحو له على قدر طعومها فيزداد المزماراة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحو له على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً ، فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولذلك قال تعالى لديه عليه السلام ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ووصف أوليائه فقال ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون : قد قرأنا القرآن فنقرأ منا ومن أعلم منا ، ثم التفت إلى أصحابه وقال « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم

وقود النار^(١) ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا ينى علمكم بجهلكم . ولذلك استأذن نعيم الدارى عمر رضى الله عنه فى القصص فأبى أن يأذن له وقال : إنه الذبح ، وستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال : إني أخاف أن تفتنخ حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال : لتلمسن إماما غيرى أو لتصلن وحدانا فإني رأيت فى نفسى أنه ليس فى القوم أفضل منى . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة ؟ فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه ، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه ، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ؛ لو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسرى إلينا سيرته وبهجيته ، وهيات ! فإني يسمح آخر الزمان بمثلهم ؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقضوا فى القرن الأول ومن يليهم ، بل يمر فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضا إما معدوم ولما عزيز . ولولا بشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « سيأتى على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا »^(٢) ، لكان جديرا بنا أن نفتحم والعباذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع مانحن عليه من سوء أعمالنا ، ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه ، وليتنا تمسكنا بعشر عشره . فنسأل الله تعالى أن يعامانا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله .

الثانى : العمل والعبادة ، وليس يغلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا .

(أما فى الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ - إلى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء - وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق .

(وأما فى الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا - مهما رأى ذلك - قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم »^(٣) ، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله معتز بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته ، وكيف لا يخاف ؟ وبكفيه شرا احتقاره لغيره . قال صلى الله تعالى عليه وسلم « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم »^(٤) ، وكفى من الفرق بينه وبين من يحبه الله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه ، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم لإياه الله ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتممقت إلى الله بالتزهد والتباعد منهم ، كأنه مترفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذ أحبوه إصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته فى العمل ! وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال كما روى أن رجلا فى بنى إسرائيل كان يقال له : خليع بنى إسرائيل - لكثرة فسادهم - مر برجل آخر يقال له عابد بنى إسرائيل ، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع فى نفسه : أنا خليع بنى إسرائيل وهذا عابد بنى إسرائيل ،

(١) حديث العباس « يسكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فنأمرنا . . . الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق (٢) حديث « سيأتى على الناس زمان من تمسك بدمر ما أنتم عليه نجا » أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر .

(٣) حديث « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « اسرق من امر » .

فلو جلست إليه لعل الله يرحمني ! اجلس إليه فقال العابد : أنا عابد بنى إسرائيل وهذا خليع بنى إسرائيل فكيف يجلس إلى ؟ فأنف منه وقال له : قم عني ! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان : مرهما فليستا أنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحببت عمل العابد . وفي رواية أخرى : فتحوّل الغمامة إلى رأس الخليع .

وهذا يعترفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلاً في بنى إسرائيل أتى عابداً من بنى إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال : ارفع فوائه لا يغفر الله لك ^(١) فأوحى الله إليه أيها المتألى بل أنت لا يغفر الله لك وكذلك قال الحسن : وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطرز الخز ، أى أن صاحب الخز يذل أصحاب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك في أنه صار معوناً عند الله ، ولو أذى مسلماً آخر لم يستذكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله وقد يفتى الحق والغبوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون ما يجري عليه ؟ وإذا أصيب بشكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فنهى من قتلهم ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به . ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين .

(وأما الأكياس من العباد) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتق الله ظاهراً وباطناً ؛ وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه ، وذلك ربما يضر من الرياء والكبر والحسد والفعل ما هو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله . ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله ، فإن الجاهل الخش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلاً ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذى ذكرناه لك ، فقال « إني أرى في وجهه سقعة من الشيطان ، فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك ، قال : اللهم نعم ^(٢) فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سقعة في وجهه . وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله .

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل

(١) حديث « الرجل من بنى إسرائيل الذى وطئ على رقبة عابد من بنى إسرائيل وهو ساجد فقال : ارفع فوائه لا يغفر الله لك الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذى قال للعاصي « والله لا يغفر الله لك أبداً » وهو بنير هذا السياق وإسناده حسن (٢) حديث : أن رجلاً ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذى ذكرناه لك فقال « إني أرى في وجهه سقعة من الشيطان » الحديث أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث أنس

فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالسكينة .
 (الثانية) أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر في حقّه ، وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خذله للناس كأنه معرض عنهم ، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصغر ولا في الرقبة حتى تغطأ ولا في الذيل حتى يضم ؛ إنما الورع في القلوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره ^(١) فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرم الخلق وأنقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبساوا وبسطا ^(٢) ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبني من القراء كل طليق مضحك ، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك ببوس من عليك بعله ، فلا أكثر الله في المسلمين مثله . ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمالكهم فأحوالهم أخف حالا من هو في (الرتبة الثالثة) وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتركبة النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبه الغير في العلم والعمل .

أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد . من هو وما عمله ومن اين زهده ؟ فيطول اللسان فيهم بالتقص ، ثم يثنى على نفسه ويقول : إني لم افطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم ، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة ، وما يجري مجراه ، وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول : قصدي فلان بسوء فهاك ولده وأخذ ماله أو مرض ، أو ما يجره مجراه ، يدعى الكرامة لنفسه . وأما مباهاة : فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي ، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكاف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر له قوته وعجزهم ، وكذلك يشتد في العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله .

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول : أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذي سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه . وأما مباهاة : فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل ، كالمنظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله وتقصان أقرانه ، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه .

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يشمرها التعزز بالعلم والعمل ، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » ^(٣) كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار ؟ وإنما العظيم من خلعا هذا ، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر ، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له : إن لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم

(١) حديث « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث « كان أكرم الخلق وأنقاهم ... الحديث » تقدم في كتاب أخلاق النبوة . (٣) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » تقدم

هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن عليه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل .
 الثالث : التكبر بالحسب والنسب ، فالذى له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلا ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومخالستهم ، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره : يا بنطى ويا هندی ويا أرمني من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلان ابن فلان ، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ؟ ومع مثلي تتكلم ؟ وما يجري مجراه . وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان ضالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال : قاوت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا ابن السوداء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل ^(١) ، فقال أبو ذر رحمته الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى . فانظر كيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يجمعه إلا الذل ؟ ومن ذلك ما روى أن رجلا تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فن أنت لأأم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلا عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر ببل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا لحاف في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تذرف بأنفها القدر ^(٣) .

الرابع : التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها ^(٤) ، وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس الكبر بالمال ؛ وذلك يجري بين الملوك في خزائهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخبولهم ومرآكهم ، فيستحققر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لا شريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أنفق في اليوم مالا تأكله في سنة ؟ وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحققاره للفقير ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ حتى أجابه فقال ﴿ إن ترى أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ﴾ وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ،

(١) حديث أبي ذر : قاوت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء ... الحديث « أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإنك لست بخير من أحر ولا أسود إلا أن تحمله بتقوى » (٢) حديث « أن رجلا تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أما فلان بن فلان فن أنت لأأم لك ؟ ... الحديث . أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على ما ذنبه موسى فقط (٣) حديث « ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا لحاف في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة . (٤) حديث عائشة : دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا ، أي أنها قصيرة ... الحديث . تهتم في آفات اللسان .

ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ﴿ ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ﴾ ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف .

السابع : التكبر بالاتباع والانصار والتلامذة والغلان وبالعشيرة والاقارب والبنين ، ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين .

وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن في نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن المحدث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المحدثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا انكالا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة المنجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئا فيه . فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدل بشيء منه على من لا يدل به ، أو على من يدل بما هو دونه في اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه . نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير .

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن ، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة ، وينبغي أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر - كما سيأتي معناه - فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر .

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب في المتكبر وسبب في المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذي في المتكبر فهو : العجب ، والذي يتعلق بالتكبر عليه هو الحقد ، والحسد . والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء . (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يورث التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال . (وأما الحقد) فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقا ورسخ في قلبه بغضه ، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع ، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ؟ ويحمل ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه ، وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله وإن ظله ، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به .

(وأما الحسد) فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم ، فكم من جاهل يشاق إلى العلم وقديق في رذيلة الجهل لاستكفاه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه ؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

(وأما الرياء) فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى إن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه

وبيّنه معرفة ولا عاسدة ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه ، فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث ، وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطن بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين ، وكان اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار ، وهو إن سمي متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبر . نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم .

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصعري وجهه ونظره شرا وإطرافه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبخيره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته ، وفي تعامله لافعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض .

فمن التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك ^(١) .

ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه . قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يرداد من الله بعدا مامشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يميز عنهم في صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصري فنعهم وقال : ما يبقى هذا من قلب العبد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم ^(٢) ، لما لتعليم غيره أوليني عن نفسه وسأوس الشيطان بالتكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين ^(٣) .

ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال لخدمتنا ، فجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا ؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ؟

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فس نخذي نخذه فنحييت نفسي عنه فأخذ ثيابي لجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلوني في

(١) حديث أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، الحديث تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة . (٢) حديث : كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أخرجه منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا : أنه خرج يمشي إلى البقيع فبعثه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا وسمى خلفهم فمثل من ذلك فقال « لاني سمعت خفي نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر » وهو منكسر فيه جساعة ضياء . (٣) حديث : إخراج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع قلت : المعروف نزع المراكب الجديد ورد المراكب الخلق أو نزع الخيصة وليس الأنبيانية ، وكلاما تقدم في الصلاة

مانفعلون بالجبايرة ولاني لا أعرف رجلا منكم شرا مني؟ وقال أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء (١) .

ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر : دخل رجل - وعليه جدري قد تقشر - على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه (٢) وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته .

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته ، والتواضع خلافه : روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه ، قال : أفأزبه الغلام ؟ فقال : هي أول نومة نامها ، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا فقال الضيف : قم أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر مانقص مني شيء ! وخير الناس من كان عند الله متواضعا .

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته ، وهو خلاف عادة المتواضعين ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك (٣) وقال على كرم الله وجهه : لا ينقص الرجل الكامل من كاله ما حمل من شيء إلى عياله وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام . وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان ، فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك اوعن الأصبع بن نباتة قال : كأنني أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت هليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم لحمله في ملحفته ، فقلت له : أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : البذاذة من الإيمان (٤) ، فقال هرون : سألت معنأ عن البذاذة فقال : هو الدون من اللباس . وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع هشرة رقعة بعضها من آدم وهو تب على كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء في القلب وقال طاوس : إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ماداما نقيين . وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار فيقول : ما أجودها لولا خشونة فيها : فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه ! فقيل له : أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لي نفسا ذواقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلقة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست ؟ فنكس

(١) حديث أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم في آداب الميمنة .
(٢) حديث : الرجل الذي به جدري واجلسه إلى جنبه تقدم قرأ . (٣) حديث : حله متاعه إلى بيته . أخرجه أبو يعلى عن حديث أبي هريرة في شرائه لسراويل وحله وتقدم . (٤) حديث : البذاذة من الإيمان ، أخرجه أبو داود وابن ماجه .
حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم .

رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخر له عبقري الجنة ^(١) » ، فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال « لا ولكن من سفه الحق وغصص الناس ^(٢) » ، فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال ، وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنور داره ، فذلك ليس من التكبر . فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله : خيلاء القلب ؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب ، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم « إنه ليس من الكبر ، يعني أن الكبر لا يوجب ، ويجوز أن لا يوجب الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر . وبالجمل فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحجوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة ^(٣) » . « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ^(٤) » ، وقال بكر بن عبد الله المزني : البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ، وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : ما لكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية .

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد . وبالجمل فبماجماع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه فينبغي أن يقتدى به ومنه ينبغي أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة . قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟ فقال : يا ابن أخي كل الله واشرب الله والبس الله ، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل كل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيأ ، ويشترى الشيء من السوق ولا يمنع الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصفح الغني والفقير والكبير والصغير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخلة وحلة لمخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى وإن كان أسعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ، هين المؤنة

(١) حديث « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله الحديث » أخرجه أبو سعيد المسائي في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس « من ترك زينة الله ... الحديث » وفي إسناده نظر (٢) حديث : سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر ؟ فقال « لا » الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث : إن ثابت بن قيس قال قنبي صلى الله عليه وسلم : لاني امرؤ حبيب إلى الجمال .. الحديث . هو الذي قبله سمي فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في هير اسراف ولا مخيلة » أخرجه اللساني وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضاً وقد جعلها المصنف حديثاً واحداً

لبن الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم ، رقيق القلب دائم الإطراق لم يهشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضى الله عنها لحديثها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ولم يبت إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعاً يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل ، وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه يدي وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول : يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مأبهم وأجزل ثوابهم فأجدرنى أستحي إن ترفهت في معيشتى أن يقصر في دونهم فأصبر أيا ما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلاقى ، قالت عائشة رضى الله عنها : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل (١) .

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله ! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره ، لما عوتب في بذاة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن الله عبادة يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض ، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه ، واعلم يا أخى أنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتناولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرسون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكة وأسخاهم نفساً ، علامتهم السخاء وبهجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجرة ، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ قال الراوى : فقلت : يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لى أن أبلغها ؟ فقال : ما بينك وبين أن تكون فى أو سمعها إلا أن تكون تبغض الدنيا ، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة ، وبقد رحبتك للآخرة تزهدي الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتفه بالعصمة ، واعلم يا ابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال يحيى بن كثير : فنظرنا

(١) حديث أبي سعيد الخدرى وعائشة : قال الخدرى لأبى سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عالج فى بيته كان يطفئ الناضع .. الحديث . وفيه : قال أبو سلمة فدخلت على عائشة لحديثها بذلك عن أبى سعيد فقالت : ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعاً .. الحديث بطوله لم أقف له على إسناد

في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضىته . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه ، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التفتي بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له . وفي معالجته مقامان (أحدهما) استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مفرسها في القلب . (الثاني) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره .

(المقام الأول) في استئصال أصله ، وعلاجه علمي وعملي ، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما :

أما العلمي : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكتفيه ذلك في إزالة الكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة ، وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والذلة ، ويكتفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حين العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم ؟ وقد كان كذلك في القدم ، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أقدرها إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظما ، ثم كسا العظم لحما ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت ! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبتطش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل هله وبعاه قبل بصره وبصممه قبل سماعه وببيكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ ومعنى قوله ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ كذلك خلقه أولا ثم آمنن عليه فقال ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال ﴿ من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ومعناه أنه أحياء بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا ، وأسمعه بعد ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعله بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبعه بعد الجوع ، وكساه بعد العرى ، وهده بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ؟ فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والحسنة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد

الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر ؟ فكان في ذاته لا شيء وأى شيء أخس من لا شيء ؟ وأى قلة أقل من العدم المحض ؟ ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الدليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القدرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه ، وإنما أكل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمتها وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا . ولذلك امتن عليه فقال ﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفهتين وهديناها النجدين ﴾ وعرف خسته أولا فقال ﴿ ألم يك نطفة من منى بمنى ثم كان علقة ﴾ ثم ذكر منته عليه فقال ﴿ خلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع . فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأشخاص وأضعف الضعفاء ؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكله وفقّض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطفى وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطبائع المتضادة ، من المزة والبغم والرج والدم يهدم البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبي رضى أم سخط ، فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهيمه فيجول في أودية الوسوس والافكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكا فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه ، يستلذ الاطعمة وتهلسه وترديه ، ويستبشع الادوية وهي تنفعه وتحببه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمه وبصره وتفلج أعضائه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، فهو مضطّر ذليل إن ترك بقى وإن اختطف فنى ، عبد ملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره ، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق الكبر به لو لاجهله ؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله .

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته ، فيعود جادا كما كان أول مرة ، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة مثنته قدرة كما كان في الأول لطفة مذرة ، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميا رافا ، ويأكل الدود أجزائه فيبتدىء بحدقته فيقلعهما ويخذه فيقطعهما ، وبساتر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان ، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا . وصار كأن لم يكن بالأمس حصيدا كما كان في أول أمره أمدا مديدا ، وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا . لابل يحببه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسما مشقة بمزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكسرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجنهم تزفر وجنة ينظر إليها المحرم فيتحسر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له ﴿ اقرأ كتابك ﴾ فيقول : وما هو ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتعكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك

ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقيير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود ، قد نسيت ذلك وأحصى الله عليك فاهل إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب ، فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنقش الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه ، فإذا شاهده قال ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ فالمن هذا حاله والتكبر والتعظم ؟ بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر ؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كالأب أو خنزيراً ليصير مع الهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقي عذاباً ، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق . ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ربحه لما تواروا من نته ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقي منه في بحار الدنيا لصارت أنثى من الجيفة ، فن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً ؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويمحى الكسر منه ، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله . أرايت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنائته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا ؟ كيف يكون ذله في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن ؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره ؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلك . فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر .

. وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه « كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد ^(١) » ، وقيل أسلمان . لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً أشار به إلى العتق في الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلوة جميعاً ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمشول قائماً وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أختر إلا قائماً فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكل لإيمانه بعد ذلك ^(٢) فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعف أمروا به لئلا ينكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق ، فإن الركوع والسجود والمشول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فليحظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً ، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر

(١) حديث : كان يأكل على الأرض ويقول « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد » تقدم في آداب المعيشة .

(٢) حديث حكيم بن حزام : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أختر إلا قائماً . الحديث رواه أحمد مقتصراً على هذا وفيه إرسال خفي .

الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملوك والقلب من عالم الملوك (المقام الثاني) فيما يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل ، فأما ما عداها مما يفنى بالموت فكأن وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ، ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الاسباب السبعة .
الاول : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين (أحدهما) أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكال غيره ، ولذلك قيل :

لئن غفرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكال غيره ؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لي : ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي ؟ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس ؟ هيئات ! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة . (الثاني) أن يعرف نسبه الحقيقي ، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نقطة قدرة وجدته البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين) فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر ؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنن من الحمأة ويا أقدر من المضغة .

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالقريب دون البعيد ، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعتة ؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذا كان أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندی حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلييس عليه فلم يبق له شك في صدقهم ، أفترى أن ذلك يبق شيئا من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب ، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أبيه للتراب والدم ، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه ؟

السبب الثاني : التكبر بالجمال ، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبايح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقدار في جميع أجزائه : الرجيع في أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبراق في فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت لبظه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم إلى الحلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه .

وفي أول أمره خلق من الأقدار الشنيعة الصور ، من النطفة ودم الحيض ، وأخرج من مجرى الأقدار . إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القدر قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقدر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول

مرتين : وكذلك قال طاوس لعمر بن عبدالعزيز . ما هذه مشية من في بطنه خراء ؟ إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه .

ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهدا بالتنظيف والغسل لثارت منه الاتتان والأفذار ، وصار أنتن وأفذر من الدواب المهيمة التي لا تتعهد نفسها قط . فإذا نظر أنه خلق من أفذار وأسكن في أفذار ، وسميوت فيصير جيفة أفذر من سائر الأفذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي ، فبينما هو كذلك إذ صار هشيما تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح حاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمده عليه ؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الأسباب ؟ فكمن وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب ؟ ففرقة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدي ، ويمتنع من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذئاب شيئا لم يستنقذه منه وأن بقعة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت في رجله لا تعجزه ، وأن حمى يوم تحال من قوته مالا ينجز في مدة . فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقعة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته ! ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم ؟ .

السبب الرابع والخامس : الغنى وكثرة المال ، وفي معناه كثرة الاتباع والانصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع الكبر ، فإن المتكبر بجماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا ، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، فإن تغير عليه كان أذل الخلق ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يريد عليه في الغنى والثروة والتجمل ؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودى ! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا ؟ فهذه أسباب ليست في ذاته ، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال ، فالتفاخر به غاية الجهل ، وكل ماليس إليك فليس لك ، وشئ من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك ، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شئ . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره .

ومثاله : أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحرثه واستقلاله وسعة منزله وكثرة خيوله وغلنامه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له ، فلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء ماله فآخذه وأخذ جميع ما في يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب ماله ليعرف أن له ماله ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا في منزل قد أحدهت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا للخلاص أبته ، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكاله أم يذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه

يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضائه وماله ، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لاقدرة له ولا قوة . فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كالان في النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره .

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات وأغلب الادواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد ، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم تتد الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لها أصلا إلا إذا كان معها علم وعمل . ولذلك قال كعب الأحبار : إن للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين : (أحدهما) أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل غيره من العالم ، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم بخبايته أخش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية ^(١) » ، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل ﴿ مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ أراد به علماء اليهود . وقال في بلعم بن باعوراء ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ حتى بلغ ﴿ فثله كثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أوتي بلعم كتابا فأخذ إلى شهوات الأرض أى سكن حبه إليها فثله بالكلب ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوتيه لا يدع شهوته ، ويكفي العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه ؟ فهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذى هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالمالك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتبه أن يكون قد كان فقيرا ، فكم من عالم يشتبه في الآخرة سلامة الجهال ؟ والعياذ بالله منه . فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلدنى أمى ! وبأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول : ياليتنى كنت هذه التبنة ! ويقول الآخر : ليتنى لم أك شيئا مذكورا ! كل ذلك خوفا من خطر العاقبة ، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب . ومهما أطل فكره في الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق .

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على مايرتضيه سيده أم لا ؟ فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرج به من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الحز والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه

(١) حديث « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه ... الحديث » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بافظ « يؤتى بالرجل » وتقدم في العلم .

وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة ، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أى الفريقين يكون ؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذلل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعاؤه عند نزول العذاب ، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والتفاق وغيره ، وعلم بما هو بصدد من الخطر العظيم فارق كبره لا محالة .

(الأمر الثاني) أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي ، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه . وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه ، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم ، فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لا محالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق واللبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر العاسق والمبتدع أكثر ؟ فأعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر ، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة من هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك ، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه فاستحققه وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين ؟ إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة ، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة . فإذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال : هذا عصي الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني . وإن نظر إلى عالم قال : هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال : هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى صغير قال : إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدري لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداؤها إلى ؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن السكال في سعادة الآخرة والتقرب من الله ، لا فيما يظهر في الدنيا بما لا بقاء له ، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهممة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لأن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقه كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبيته وخطره .

فإن قلت : فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض ؟ فأعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق ، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق

بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع ، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جلس بجانبه أزعجه من عنده وتوهم عند بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله ؛ كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليفهم ؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب ، وأحدهما يثمر الآخر وبوجهه ، وهما يمتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون .

والذى يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور : (أحدها) التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك . (والثاني) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لالك ، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر . (والثالث) ملاحظة إيهام عاقبتك ، وعاقبتك أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسن ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولائك وسيدك ، إذ أمرك أن تغضب له لأنفسك ، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالحاقمة ، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب أنه أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول : إذا كان للملك غلام وولد هو قوة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، عبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتنال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه ، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لأمه من الغلام . فلوذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسن في الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولائك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة . فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع . وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبتها بحكم الأمر .

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة ، وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد ، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان ؛ لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي ^(١) » ، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم .

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وتقدم في العلم .

فإن قال العابد : ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما يمكن وقد وردت الاخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يجوز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ، ؟ فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وغائمة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقتته به ، وإذا كان هذا ممكنا كان على نفسه عائفا ، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء ، وذلك يمنع من التكبر بكل حال . فهذا العابد مع العالم ، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين ، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعلمه أقل عنه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حياء لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك . فلا ينبغي أن تتكبر عليه ، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا ، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة فعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله ، وربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا ، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه ، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فيكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك ، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك ، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك .

وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال ، فعدتسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة ! وما العاشرة ! بها شاد مجده وبها علا ذكره ؛ أن يرى الناس كلهم خيرا منه . وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هي شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من العاقبة ويقوم لعل بر هذا باطن فذلك خير له ، ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبرى ظاهر فذلك شر . فلا يأمن فيها أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها ، ثم قال : لحيث كمل عقله وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجمله فن جاوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فإله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال .

نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل فقيل له في النوم : ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعوك . فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب

فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه ، فرجع وهو يقول : إن هذا لحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانياً فقيل له : ائت فلانا الإسكاف فقتل له : ما هذا الصغار الذي بوجهك ؟ فأناه فسأله فقال له : مارأيت أحداً من الناس إلا وقع لى : أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال العابد : بهذه

والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى ﴿يُوتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى أنهم يوتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدوام بالإشفاق فقال تعالى مخبراً عنهم ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ فتى زال الإشفاق والحذر عما سبق به القضاء في الأزل — وينكشف عند خاتمة الأجل — غلب الآمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الآمن والآمن مهلك . والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ؛ فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال . فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير ، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضرر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدّها ، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفى في مداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس .

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الأول : أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فنقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تضيئه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليترك الله فيه ويشغل بعلاجه . أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نهتني له ! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر ، فإن كان ذلك لا يثقل عليه فى الخلوة ويثقل عليه فى الملاءمة فليس فيه كبر وإنما فيه رياء ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعتة فى كماله فى ذاته وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه فى الخلوة والملاءمة جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثانى . فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان .

الامتحان الثانى : أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم ، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تسكناً حتى يسقط عنه ثقله فذلك يزياله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأردال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف

النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن .
 الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ليس إلا الخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر .
 الامتحان الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلق الطريق فهو كبر ، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلة المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كُتِبَ عليها الموت لأحالة ، والقلوب لا تدرك السمادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . وروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك ! قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك ؟ فلم يقع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة ؟ وفي الخبر « من حل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبر » (١) .

الامتحان الخامس : أن يلبس ثيابا بدلة ، فإن نفور النفس عن ذلك في الملابس وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه له مسح يلبسه بالليل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألحق أصابعي وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٣) . وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس . وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فليختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون في الخلوة فهو الكبر ؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه ،

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة : فطرفه الذى يميل إلى الريادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا . والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس ، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع : أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتتجى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له لعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل ، وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل ؛ وهو أن يعطى كل ذى حق حقه ، فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوق فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعى في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف غاية

(١) حديث « من حل الشيء والفاكهة فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ « من حل بضاعته » . (٢) حديث « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم العمري ضعيف جدا . (٣) حديث « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ... الحديث » تقدم بعضه ولم أجد بقيته .

أمره . فإذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران وللمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع ، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكاف لا متواضع ، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية ، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التلق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن تذلل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الاخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التلق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر ، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحد عند الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أخش ، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة وانقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع .

الشرط الثاني : من الكتاب في العجب ، وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدتهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه .

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى ﴿ ويوم نحين إذ عجبتمكم كثيرتمكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - ، وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(١) ، وقال لابي ثعلبة - حيث ذكر آخر هذه الآله فقال - إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فمليك نفسك ^(٢) . وقال ابن مسعود : الهلاك في الثنتين القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمير ، والقنوط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمראה فلا يسعى . فالوجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القنوط ، فن هنا جمع بينهما . وقد قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ قال ابن جريج : معناه إذا عملت خيرا فلا تنقل عملك . وقال زيد بن أسلم . لا تبروها ، أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب . ووق طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه ، فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح ، فتفرس ذلك عمر فيه فقال . ما زال يعرف في طلحة فأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) والنأو : هو العجب - في اللغة - إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة ؟ قال : ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثاله فكيف يتخلص الضعفاء إن

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث أبي ثعلبة « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فمليك نفسك » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم .

(٣) حديث « وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه » أخرجه البخاري من رواية ليس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاه وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يأخذوا حذرهم ؟ وقال مطرف : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلى من أبيت قائماً وأصبح معجباً . وقال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذبوا لحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب »^(١) ، فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة ، فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يعجبك ما رأيت مني ، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه . وقيل لعائشة رضي الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً : قالت ؟ إذا ظن أنه محسن ، وقد قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى ﴾ والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب . فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً .

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه - كما ذكرناه - فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى ، هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدتها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينسأها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتجسس بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتكسين . ثم إذا عجب بها عمى عن آفاتنا . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويذكرها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصيح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه ، فإن كان رأيه في أمر ديني فيحقق فيه ، وإن كان في أمر دني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو أنهم نفسهم ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارس العلم وتابع سؤال أهل البصيرة اسكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهالك الصريح الذي لا شبهة فيه . نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة ، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحدهما) أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكثره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لا يكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لامن حيث إضافته إلى نفسه

(١) حديث « لولم تذبوا لحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب » أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أسد وفيه سلام بن أبي الصفاء قال البخاري منكر الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً .

وهذا أيضا ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كالولعمة وخير ورفعة لامن حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه . فإذا العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفاسق سمي هذا إدلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستهظمه ويمن عليه فيسكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه .

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي لا تدل بعملك وفي الخبر « إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك ^(١) » ، والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ، فإن توقع لإجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والفسب ومالا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله وبجراه ، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته ؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله وبجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل ، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم ، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بمجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه مالا يستحق وآثره على غيره من غير سابقة ووسيلة فهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمته ، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه . نعم يحوز أن يعجب العبد فيقول : الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلولا أنه تفتن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها ، فيقال : وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك ، من غير وسيلة ، أو هي عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا

(١) حديث « إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ... الحديث » لم أجده أصلا .

فلم تعجب به . فأعطاك علاماً فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطاني غلاماً لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، فيقال : وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معاً أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ! فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لأنفسك . وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت : وفقى للعبادة لحيى له ، فيقال : ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فتقول : هو ، فيقال : فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ! فإذا لامعنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعبده وعجب الجليل بجماله وعجب الغنى بغناه ! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضاً من فضله وجوده .

فإن قلت : لا يمكننى أن أجهل أعمالى وإنى أنا عملتها فإنى أنتظر عليها ثواباً ، ولولا أنها عملت لما انتظرت ثواباً ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب ؟ وإن كانت الأعمال منى بقدرته فكيف لا أعجب بها ؟ فأعلم أن جوابك من وجهين (أحدهما) هو صريح الحق (والآخر) فيه مسامحة .

أما صريح الحق : فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه ، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إِبصار العين ، بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تنفى شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات فى أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة مالم يخلق علماً بالمراد ، ولم يخلق علماً مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم ، فتدرجه فى الخلق شيئاً بعد شيء هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلظت . وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه أليق به فارجع إليه .

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك ! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهى بيد الله لا محالة . أرايت لو رأيت خزان الدنيا بجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح . فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل حين عليك ، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك ، فمن العجائب أن تعجب بنفسك

ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إثارة إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك ، وسلط أخذان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك ، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر ! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي ، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاء بعده فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك ! فإذا كنت تصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها ، فكأنه الذي اضطررك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لا لك -- وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه والعجب بمن يتعجب - إذا رزقه الله عقلا وأفقره - من أفاض عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعتي قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظلما ، ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال ، إذ يقول الجاهل الفقير : يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما ؟ وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له : ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لا تمتنع عنه ! فإذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدمية القبيحة فتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ؟ ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال ؟ فإذا نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه : يارب لم حرمتني الدنيا وأعطينتها الجاهل ؟ كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول : أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول : كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس ! فهب أني ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى ؟ فهذه أوهام لا تخلو الجاهل عنها ، ومنشأ جميع ذلك الجهل ، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق ، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعمله وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام : يارب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم - وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك - فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ومن أين لهم ذلك ! إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك ، قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والدم . وقال داود : يارب إن بني إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : يارب وأنا إن ابتليتني صبرت ، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى : فإنى لم أخبرهم بأى شيء أبتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم ، وأنا أخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك ، فوقع فيها وقع فيه . وكذلك لما أتمك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم

ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لانقلب اليوم من قلة ^(١) وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ . روى ابن عيينه أن أيوب عليه السلام قال : إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي ، فتودى من غمامة بعشرة آلاف صوت . يا أيوب أنى لك ذلك ؛ أى من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا ووضعته على رأسه وقال : منك يارب منك يارب ، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس ، ما منكم من أحد ينجيهم عمله ، قالوا : ولأنت يا رسول الله ؟ قال : ولأنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ^(٢) ، ولقد كان أصحابه من بعده يطمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه ؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب . ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء ! وهذا لا يبقى معه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر - كما ذكرناه - وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذي يزين له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

(الأول) أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجملة تفصيل خلقته ، فيلتمت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرض الزوال في كل حال ، وعلاجه ما ذكرناه في التكبر بالجمال وهو التفكير في أقدار باطنه وفي أول أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأتنت في القبور حتى استقدرتها الطباع .

(الثاني) البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فافتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه ، وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ! ولم يقل إن شاء الله تعالى ، لحرم ما أراد من الولد ^(١) وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صبرت ، وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر . ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب والقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأذى آفة يسلطها عليه .

(١) حديث : قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلًا : أن رجلا قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله عز وجل ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم ﴾ ولا بن مردويه في تفسيره من حديث أنس : لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثيرهم فقالوا : اليوم نقاتل ؛ ففروا . فيه الفرح بن فضالة ضعفه الجمهور (٢) حديث « ما منكم من أحد ينبغي عمله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث : قال سليمان : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ... الحديث « أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، ومثرته الاستعداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم لإعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقاراً لهم وإهانة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأذى سرى يصيب دماغه كيف يوسوس ويحج بحيث يضحك منه ١ فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوقى من العلم إلا قليلاً وإن اتسع عليه ، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحق كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري . فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ، ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخبير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجباً .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية ، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ، ولتد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحيدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ أى لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ، ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل : من ينتمى إلى نسبي ولكن قال « أكرمهم أكثرهم للموت ذكراً وأشداهم له استعداداً » (١) ، ولما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة : فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فقال تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية — أى كبيرها — كلكم بنو آدم وآدم من تراب » (٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « يامعشر قريش لا تأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا — أى أعرض عنكم — » (٣) ، فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتک الأفرین ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعملا لأنفسكما فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً » (٤) ، فن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى

(١) حديث : لما قيل له : من أكرم الناس من أكيس الناس ؟ قال « أكثرهم للموت ذكراً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله « وأكرم الناس » وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب .

(٢) حديث « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذى أيضاً من حديث ابن عمر وقال غريب .

(٣) حديث « يامعشر قريش لا تأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم .. الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال : يامعشر بنى هاشم وسنده ضعيف . (٤) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتک الأفرین ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة .

والتواضع ، وإلا كان طاعنا في نسب نفسه - بلسان حاله - مهما اتهمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفيه « إني لا أغني عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها بيلها »^(١) ، وقد عليه الصلاة والسلام « أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب »^(٢) ، فذلك يدل على أنه سيخصص قرابته بالشفاعة ؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنسب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتق الله أن يغضب عليه ، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب الموت فلا يؤذن في الشفاعة له ، وإلى ما يعنى عنه بسبب الشفاعة ، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذى مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك ، فمن الذنوب ما لا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ويقول ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه ﴾ ويقول ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ويقول ﴿ فأتفهم شفاعته الشافعين ﴾ وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة ، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة . فالإنهمك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من اب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعى الطبيب وممته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب ، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا ، وذلك لا يزيل الخوف والحذر ، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبائهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلموا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم ؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل محبتهم وسابقتهم ؟

(الخامس) العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في مخازيمهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم المعقوتون عند الله تعالى ، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولا تنكر على من نسبهم إليهم استقذارا واستحقار لهم ، ولو انكشف له ذلمهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة أخذون بنواصيرهم يجرؤنهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم ، لحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويسفغفروا لأبائهم إن كانوا مسلمين ! فأما العجب لجهل محض .

(١) حديث : قوله بعد قوله المتقدم للفاطمة وصفيه « ألا إن لكم رحما سأبلها بيلها » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة باللفظ « غير أن لكم رحما سأبلها بيلها » (٢) حديث « أترجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاما ضعيفا جدا .

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأقارب كالقار والاتباع كما قال الكفار ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين : لا تغلب اليوم من قلة ، وعلاجه ما ذكرناه في السكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجز لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾ ثم كيف يعجب بهم وأهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، فيسلوناه إلى البلى والحيات والمقارب والدينان ولا يغنون عنه شيئا وفي أحوج أوقاته لإيهم ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبليته﴾ الآية . فأى خير فيمن يفارقه في أشد أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تشكل على من لا ينفعك ، وتنفى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك .

(السابع) العجب بالمال كما قال تعالى لإخبارا عن صاحب الجنين إذ قال ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فانتقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام : أخشيت أن يعدو إليك فقره ^(١) ، وذلك للعجب بالغنى ، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : بيننا رجل يتبختر في حلة له قد أعجبت نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ^(٢) ، وأشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر ، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي : يا أبا ذر أرفع رأسك ، فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياذ ثم قال : أرفع رأسك ، فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي : يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ^(٣) ، وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين - مقارنة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى ، فكيف بتصور من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ، ومن لا يفعل ذلك فقصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله ؟

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ وقال تعالى ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ذلك يغاب على آخر هذه الأمة ^(٤) وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾ وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بأرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله

(١) حديث : رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فانتقبض منه ... الحديث . رواه أحمد في الزهد .

(٢) حديث : بيننا رجل في حلة له قد أعجبت نفسه ... الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث أبي ذر : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي « يا أبا ذر أرفع رأسك » فرفعت رأسي ... الحديث . وفيه « هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » أخرجه ابن حبان في صحيحه .

(٤) حديث « أنه يغلب على آخر هذه الأمة الإعجاب بالرأى » هو حديث أبي نعيلة المتقدم « فإذا رأيت شعرا مطالعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاسة نفسك » وهو عند أبي داود والترمذي .

عنه ، إلا إذا كان ممجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمة ، فقد ساء الله عليه بلية تهاكموه ويظننها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطالب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشعر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومداينة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور ، والصواب لمن لم يتفزع لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغى إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ﴿ ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ﴾ وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتفنير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصدقنا ويشغلنا بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن غاص في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك بما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربيع المهاجرات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور ، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرم الحياة الدنيا ولم يغرم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على بمر الدهور ومكث الساعات والشهور .

أما بعد : ففتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نعمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم ﴿ كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار نور على نور ﴾ والمغتربون قلوبهم ﴿ كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمغتربون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليسكون بهداية نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشیطان

دليلاً (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله وجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه ، ليحذره المرید بعد معرفته فيتيقنه ، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور ، الجميلة ظواهرها الذبيحة سرائرها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء ، وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف (الصف الأول) من العلماء (الصف الثاني) من العباد (الصف الثالث) من المتصوفة (الصف الرابع) من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ، فمن رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ المسجد ويخرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميز بين ما يسمى فيه لنفسه وبين ما يسمى فيه لله تعالى كالواظف الذى غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشغل بعيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالنافلة ، ومنهم من يترك الباب ويشغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة . ولنبداً أولاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكنكم قتلت أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ﴾ الآية . كاف فى ذم الغرور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبذا نوم الأكياس وفطرم كيف يغبنون سهر الحق واجتهادهم ومثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »^(٢) ، وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعى الغرور : مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به وهو الذى يغره . فهما كان المجهدل المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة وخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور .

كتاب ذم الغرور

(١) حديث « حبذا نوم الأكياس وفطرم ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات : أبى الورد ، موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعاً (٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث شجاع بن أوس

(المثال الاول) غرور الكفار ، فهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور ، أما الذين غرتهم الحياة الدنيا : فهم الذين قالوا : النقد خير من النسبة والدنيا نقد والآخرة نسبة فهي إذن خير فلا بد من إثارها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا تترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان ؛ أما التصديق ؛ مجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وفي قوله عز وجل (وما عند الله خير) وقوله (والآخرة خير وأبقى) وقوله (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقوله (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ^(١) ، ومنهم من قال : نشدتك الله أبعتك الله رسولا ؟ فكان يقول « نعم » فيصدق ^(٢) وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور ، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا . وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمته في قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغروره سبب ، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذي نظمته الشيطان فيه أصلان (أحدهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسبة وهذا صحيح (والآخر) قوله : إن النقد خير من النسبة ، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان التقدمثل النسبة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسبة خير ، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسبة ولا يقول التقدم خير من النسبة فلا أتركه ، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذا نذا الاطعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل ؛ فقد ترك النقد ورضى بالنسبة . والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الاسفار نقداً لأجل الراحة والريح نسبة ، فإن كان عشرة في ثلثي الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، وإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة . فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنفصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة ، فإذا غلط في قوله : النقد خير من النسبة ، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغفل به الغرور عن خصوص معناه . فإن من قال : النقد خير من النسبة ، أراد به خيرا من نسبة هي مثله وإن لم يصرح به .

وعند هذا يفرغ الشيطان إلى القياس الآخر وهو : أن اليقين خير من الشك إذا الآخرة شك وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصليه باطل ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله ، وإلا فالتاجر في تعبته على يقين

(١) حديث : تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو دجور في السنن ، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيتهم وهي عند أحمد من حديث جاسروفيه : حتى بعثنا الله إليه من يثرب فكأويناه وصدقناه ليخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . . الحديث « وهي عند أحمد بإسناد جيد .

(٢) حديث : قول من قال له نشدتك الله أبعتك رسولا ؟ فيقول « نعم » فيصدق . متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام ابن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم آت الله أرسلك للناس كلهم ؟ فقال « اللهم نعم » وفي آخره : فقال الرجل آمنت بما جئت به وأطعنا من حديث ابن عباس في ضمام قال : نشدتك به أمو أرسلك بما أنما كتبك وأنتا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندمع اللات والعزى ؟ قال « نعم » الحديث .

وفى ربحه على شكه ، والمتفقه فى جهاده على يقين وفى إدراكه رتبة العلم على شكه . والصيد فى ترده فى المقتنص على يقين وفى الظفر بالصيد على شك ، وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ، ولكن التاجر يقول : إن لم أبحر بقيت جائعاً وعظم ضررى ، وإن أبحرت كان تعبى قليلاً وربحى كثيراً ؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ، ولكن يقول : ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت ، فكذلك من شك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة ، فإن كان ما نيل فيه كذباً ؛ فأي فوثنى إلا النعم أيام حياتى وقد كنت فى العدم من الأزل إلى الآن لا أتعلم ، فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ما قيل صدقاً ، فأبقى فى النار أبد الآباد وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلته حقاً فقد تخلصت وتخلصنا ، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكنا : وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كأم الملهد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مغرور .

وأما الأصل الثانى من كلامه : وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقين مدركان .

أحدهما : الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثاله مثل مريض لا يعرف دواء علة ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواء النبت الفلانى فإنه يطمن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطلب ، بل لا علم له بالطلب ، فيعلم كذبه بقولهم ولا يمتنع كذبهم بقوله ، ولا يفتر فى عليهم بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان مقتوماً مغروراً ، فكذلك من نظر إلى المقربين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله وأعلام رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل ، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى الفتن ، فمعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبي وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الفنى الذى استرقته الشهوات لا يشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به .

وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء ، ولا تظن أن معرفة النبى عليه السلام لأمر الآخرة ولأمر الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط وهيئاته فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لآسن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ؟ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات

بل العالم عالمان: عالم الامر وعالم الخلق ، والله الخلق والامر ، فالأجسام ذوات السكية والمقادير من عالم الامر الخلق إذا الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان ، وكل موجود مئذ عن السكية والمقدار فإنه من عالم الامر وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذي منع من إفشائه . فن عرف سر الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فإنها في جوار الرب تعالى ، وأنه أمر رباني وحينئذ إلى جواب الرب تعالى له طبعي ذاتي ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه . ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم . يقال : فسقت الرطبة عن كامها ؛ إذا خرجت عن معدنها الفطري . وهذه إشارة إلى أسرارهم تزل لاستنشاق روائح العارفون وتشمئذ من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضربهم كما تضرب رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا ، وهي مبادئ مقامات الأنبياء . وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي ، وأما بيسيرة ومشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنين بالسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا بسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من الغرورين فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، وبجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى ﴿ وإني لنفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ وقال تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ^(١) ، وقال تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده ، فهؤلاء أيضا مغرورون أعنى المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها . الكارهين لدوت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا .

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين . فأما غرور الكفار بالله : فثاله قول بعضهم في أنفسهم ويألسنتهم : إنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها من قبلي ﴾ وجملة أمرهما كما نقل في التفسير : أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخرجا بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار ، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يغنى ويخرب ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يغنى ! واشتريت بستانا يخرب ويغنى ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يغنى وخرجا لا يفتنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ما هناك شيء وما

(١) حديث « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث ابن عمر وفيه تهميم .

قيل من ذلك فهو أكاذيب ! وإن كان فليكون لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول ﴿ لاوتين مالا وولدا ﴾ فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا ﴾ وروى عن خباب بن الارت أنه قال : كان لي على العاص بن وائل دين فجلت أنقاضه فلم يقض لي فقلت : إني أخذه في الآخرة ؛ فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أقضيك منه . فأزول الله تعالى قوله ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولدا ^(١) ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسنة يقولان هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ وهذا كله من الغرور بالله .

وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ فقال تعالى جوابا لقولهم ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ ومرة ينظرون إلى المؤمنين ؛ وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم ، فيقولون ﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ ويقولون ﴿ لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ وترتيب القياس الذي فظمه في قلوبهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا في المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول : لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلى . والتلخيص تحت ظنه أن كل محسن محب ، لابل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله : أن يكون للرجل عبدان صغيران يفيض أحدهما ويحب الآخر ، فالذى يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملأه الأطعمة التي تضره ، ويسقيه الأدوية التي تنفعه . والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهي ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه ولم يحجر عليه ، وذلك محض الغرور ، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه ^(٢) ، هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر .

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزونا وقالوا : ذنب عجبت عقوبته ورأوا ذلك علامة الموت والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ فأجاب الله عن ذلك ﴿ كلا ﴾ أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت ، فبين أن ذلك غرور . قال الحسن كذبهما جميعا بقوله ﴿ كلا ﴾ يقول ليس هذا يا كرامى ولا هذا بهوانى ، ولكن الكريم من أكرمه بطاعته غنيا كان أو فقيرا ، والمهان من أهنته بمصيتي غنيا كان أو فقيرا .

(١) حديث : خباب بن الارت ، قال كان لي على العاص بن وائل دين فجلت أنقاضه . الحديث . في نزول قوله تعالى ﴿ أفرأيت ﴾ الذي كفر بآياتنا الآية أخرجه البخاري ومسلم (٢) حديث « أن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد (أما البصيرة) فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعّد عن الله ووجه كون التباعّد عنها مقرباً إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والاولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة (وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى ﴿يُحْسِبُونَ أَنَّ مَا نُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقال تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى ﴿فَتَحْنَاهُمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ وفي تفسير قوله تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كلما أحدثوا ذنباً أخذناهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى ﴿لِنَمْلِكَنَّ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ وقال تعالى ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً ! فقال تعالى ﴿هَلْ تَحَسِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٌ﴾ الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقال عز وجل ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَكَانَ اللَّهُ خَيْرَ الْمَاكِرِينَ﴾ وقال تعالى ﴿لَئِنْهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمَلُهُمْ رَوِيدًا﴾ فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرًا منه وكيدًا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى ، فإذا من آمن مكر الله فهو مغتر ، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور .

(المثال الثاني) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم : إن الله كريم وإنا نرجو عفوه ، واتكأهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنبهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عظيم ، وأين معاصي العباد في بحار رحمته وإنا موحدون ومؤمنون ؟ فترجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التسكع بصلاح الآباء وعلو رتبهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آبائهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية . أن من أحب إنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة ، وينسى المغرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المفرقين ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ﴾ فقال تعالى ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لآبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار ، فجلس يبكي على قبر أمه لوقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله (١) فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار . الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي ، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لا وشك أن يسرى البغض أيضا بل الحق أن لا تزور وازرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بهشى أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يحزى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس ، وعند الله جزاء التقوى ﴿ يوم يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له . كما سبق في كتاب الكبر والعجب .

فإن قلت : فأين الغلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم ولنا نرجو رحمته ومغفرته ، وقد قال أنا عند ظن عبدى بن فليظن بي خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب ؟ فاعلم أن الشيطان لا يغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال : السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) ، وهذا هو التمنى على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسياء : رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ يعني أن الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ أفترى أن من استوَجِر على إصلاح أو أن وشرط له أجره عليها وكان الشارط كريما يني بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد ، فجاء الاجير وكسر الاواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الاجر ويزعم أن المستأجر كريم ، أفيراه العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أورا جيا ؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة . قيل للحسن : قوم بقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال : هيهات هيهات ! تلك أمانهم يترجعون فيها ، من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت نذيتاي ! فقال له رجل : إنما نرجو الله ! فقال مسلم : هيهات هيهات ؟ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجمع أو جامع ولم ينزل ! فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يشبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا - ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أى علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحرارة وبث بذر ، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى - كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير ﴾ أى ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه ﴿ توفى

(١) حديث : السكيس من دان نفسه تقدم قريبا .

كل نفس ما كسبت ﴿ وأن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فإلذى غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ ﴿ قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾ .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فأعلم أنه محمود فى موضعين :

أحدهما : فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى ﴿ فيجب عند هذا أن يجمع القنوط بالرجاء ويتذكر ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وانيبوا إلى ربكم ﴾ أمرهم بالإنبابة وقال تعالى ﴿ وإنى اغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو فى السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التى لا يعرفها فهو مغرور .

الثانى : أن تفتقر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعده الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فالرجاء الأول : يجمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى : يجمع القنوط المانع من النشاط والتشمر ، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة ، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم ؟ فيفتقر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبدا لا أبدا ، مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلب العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا وهو قادر على إزالتها ، فن هذه سنته فى عباده وقد خوفنى عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به ؟ .

فالخوف والرجاء قائمان وسائقان يبعثان الناس على العمل ، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إغراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعى للآخرة ، فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة ^(١) وقد كان ما وعده به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى . هم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصى وإهمالهم فى الدنيا وإغراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون

(١) حديث « إن الغرور يلب على آخر هذه الأمة » تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أميئطة . فى إعجاب كل ذى رأى برأيه .

لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوى في فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار : « يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعاً لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبل منى ، وإن أساء قال : يغفرلى ^(١) » فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفرلنا ﴾ ومعناه أنهم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى هم علماء ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً . وقد قال تعالى ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان - ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعبد ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتحذير ، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهذونه هذا ، يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم ترجع كفة حسناتهم مع أن ما فى كفة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين وهو يتكلم عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال ، وما هو إلا كن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان وفى الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله . نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سبخته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هديانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعد الله بالعقاب على كل كلمة فقال ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ فهذا أبداً يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المعتابين والكذابين والنمامين والمنافقين ، يظهرون من الكلام مالا يضرهم إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور . ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هديانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى فتراته كان يعدده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه ! فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته فى الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه ! ماهذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها ! لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحقى المغرورين ! فها هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدقنا عن التنبيه واليقين مع هذا البيان ،

(١) حديث : معقل بن يسار « يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل .

وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه العفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتق ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم .

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق :

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقدا لجرارح وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات ، واغترتوا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة ؛ وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة : علم المعرفة . فأما العلم بالمعاملة : كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها ، فهي علوم لا تتراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل . فثال هذا : كريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خاطه وعجنه ، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكثرها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشرها واستعمالها ، أفترى أن ذلك ينفي عنه من مرضه شيئا ؟ هيئات هيئات ! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكثره كل ليلة ألف مرة لم يغيثه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ، ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتيا وجميع شروطه ، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره . وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة ومازكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور ، إذ قال تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تركيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس ! وعند هذا يقول له الشيطان : لا يغرنك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل ، وإن كان كيسا فيقول للشيطان : أتذكرني فضائل العالم وتنسني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى ﴿ فثله كثل الكلب ﴾ وكقوله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ فأى خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا » (١) ، وقال أيضا « يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى » (٢) ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « شر الناس العلماء السوء » (٣) . وقول أبي الدرداء : ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعله وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات ، أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له : ماذا عملت فيها علمت وكيف قضيت شكر الله ؟

(١) حديث « من ازداد علما ولم يزد هدى ... الحديث » تقدم في العلم (٢) حديث « يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه ... الحديث » تقدم غير مرة (٣) حديث « شر الناس علماء السوء » تقدم في العلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ^(١) ، فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر ، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يرواه وذلك عين الغرور ، فإنه إن نظر بالبصيرة فثاله ما ذكرناه ، وإن نظر بعين الإيمان فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بدم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من حال الجاهل . فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذى يدعى علوم المكاشفة : كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه ، وعاطل عن جميع ما يحبه من زى وهيته وكلام وحرمة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطحاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلاً عن جميع ما يحبه ، متوسلاً إليه بمعرفة له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جداً إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لسكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربهِ والاختصاص به ، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسارى دون المعافى ، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيته واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفى كما تخاف السبع الضارى . نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد ، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلاف مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآبأد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى ﴿ إنما يحشى الله من عباده العلماء ﴾ وفاتحة الزبور ورأس الحكمة خشية الله ، وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً . واستغنى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ؟ الفقيه القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله . فإذا الفقيه من فقه عن الله أسرته ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ﴿ ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ﴾ وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصى ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحو الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاء والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم : أدنى الرياء شرك ^(٢) ، وإلى قوله عليه السلام : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ^(٣) ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ^(٤) ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل ^(٥) ، إلى

(١) حديث : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه » تقدم فيه . (٢) حديث : « أدنى الرياء شرك » تقدم في ذم الجاه والرياء . (٣) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم غير مرة . (٤) حديث : « الحسد يأكل الحسنات ... الحديث » تقدم . (٥) حديث : « حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب ... الحديث » تقدم .

غير ذلك من الأخبار التي، أوردناها في جميع ربح المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأصلوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(١) ، فتمهدوا الأعمال وما تمهدوا القلوب - والقلب هو الأصل - إذ لا ينجو إلا من أقى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كبر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، أو كقبور الموقى ظاهرها مزين وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فحصى باب داره وترك المزابل في صدر داره ، ولا يخفى أن ذلك غرور ، بل أقرب مثالي إليه : رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يحز رمسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت ، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب ، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمرريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فتنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول ما يزيد في المادة ، فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن .

(و فرقة أخرى) علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفسكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا : ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ! وإلى لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لسمت في أعداء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذلي ذلاً على الإسلام ونسى المغرور أن عدوه الذي حذره منه مولاة هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسى ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقتاعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : لانا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم - المحزوم - والخيل والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين ! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال : إنما هذا غضب للحق رد على المبطل في عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد ، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوجم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع ؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه ، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال : هيات ! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق في ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لمرح بصلاحهم على يد من كان - كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضاً ويقول : إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا في كان الأجر لي والثواب لي فإنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي ! هذا ما يظنه

بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام قال له الشيطان : هيات ! إنما ذلك عند الطمع في ماله فأمأ أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك ! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل . وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من ماله وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان : هذا مال لامالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين ! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ .

فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور (أحدها) في أنه مال لامالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء ، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم ، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف في أنه مال حرام ، ولا يقال هو مال لامالك له ، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة ، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر (الثاني والثالث) في قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين . إذ الإمام : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماؤهم السلف . والدجال : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا . فلعل موت هذا انفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين . ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء : إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع . وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في التبرى منها وقاموا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس مادي وغمض مدركه فلم يفتنوا لها واهملوها ، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانهسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفتت للدقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته . وأهل باعته الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه

بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرموس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والاتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتسكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا ، لاعتقاده تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتيين واعتداد بالتخصيص . ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوقس عاياه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه . وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه . وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقده فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره ، ويذنب قلبه عن عرف حقه فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد إصغاء إليه وأحرص على خدمته . ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يفتقد مع نفسه تصحيح النية فيه . وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إثارة الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة ولاختفاء لذة القبول وعزة الرئاسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبالى . وعساه يصنف ويجهل فيه ظانا أنه يجمع علم الله ليمتفع به وإنما يريد به استظارة اسمه بحسن التصنيف ، فلوادعى مدح تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعوى الطويلة العريضة وإما ضمنا بالطعن في غيره ، ليستبين من طعنه في غيره ، أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان في غنية عن الطعن فيه ، ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذى يسرق قميصا فيتخذ به قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يحتمل في تزيين ألفاظه وتسجييعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة ويرى أن غرضه ترويح الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع لثلاثة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقا وإني لأقبل من نفاقك شيئا . ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعا أو غيره . فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الاتباع منه ، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يمتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ، ولعل واحدا منهم إذا تحزكت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالاطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ، ويقول إنما غضبت لدين الله لأنفسى . ومهما

ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه ، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه - يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين - وسر قلبه راض به ومريد له ، والله مطلع عليه في ذلك . فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفتن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويسكره ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله بعد خيرا بصره بعيوب نفسه ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصرُوا في العمل بالعلم .

ولندكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاقتصارهم عليه . فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ، ولم يحرصوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات . فهؤلاء مغرورون من وجهين (أحدهما) من حيث العمل (والآخر) من حيث العلم .

أما العمل : فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثاهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثاهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم إدواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول : ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك ، وذلك غاية الغرور . فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يخطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والدينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية . هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى ، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل .

وأما غروره من حيث العلم : فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما طعن في المحدثين وقال : إنهم نقلوا أخبارا وجملة أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى ، فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرجه فإنه قوم دينه ، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ماسع في الشرع من تعظيم الفقه ولم يدرك أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلزم التقوى ، إذ قال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا ﴾ (٥٠ - أحياء علوم الدين - ٣)

إليهم لعلمهم يحذرون ، والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم : حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات ، والمسال في طريق الله آله والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله . فثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك في أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله - وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم - ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ولم يهيمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإلحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسيبيات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء ومهمهم السفه ، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمونهم التزويق وكلام الوعاظ ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً ، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدي فإما أبدعت لإظهار الغلبة والإلحام وإقامة سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك والخاصة بهم ، وافترقوا في ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بالإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : ضالة وعقمة ؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هي التي تدعو إلى السنة والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة : فلغلغلنا عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً ، وإنما أتيت من حيث إنها لم تبهم رأيها ولم تحكم أولاً شروط الأدلة ومنهجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة . وأما الفرقة المحقة : فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أي ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله

فهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهلوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لا لتداه به بالغلبة والإلحام ولذة الرياسة وعز الانتهاء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد

أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته ، وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ^(١) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقي في وجهه حب الزمان ^(٢) - حررة من الغضب - فقال : ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتهم عنه فأنهوا ، فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإلحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام ، فاجادلهم إلا بتلاوة القرآن المنقول عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم ، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام ، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا هذا وقالوا لو نجح أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاحهم ولو نجحونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بمجذاله بل يزيد التعمص والخصومة تشددا في بدعته ، فاشتغالى بمخاصمة نفسه ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للأخرة أولى ، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه ؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لاتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه .

(و فرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأعلام رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منكفون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون : ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى التقرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله ! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو المفترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتسكين على العز والجاه والمال والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يرأى بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » تدم في العلم وفي آفات اللسان . (٢) حديث : خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون ، فغضب حتى كأنه فقي في وجهه حب الزمان ... الحديث « تدم .

فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فاز ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن . ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا - لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله اضافت عليه الأرض بما رحبت - ويرغم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ، ولو أتى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبيه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به . فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه ؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلاً حب الله فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الانس بالله فمتى طابت له الخلوة ! ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لابل يرى قلبه يمتلئ بالخلوة إذا أحق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزيق بل بموتق من الله غليظ والمغترون يحسبون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأسرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله عليه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها وذهب عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف ، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى ؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته ، ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب ، فظنه عند عليه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل ، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار وعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم .

(وفرقة أخرى) منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله ، على التدور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للإغراب . وطائفة شغلوا بطيارات النسكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها فأكثر مهمهم بالابحاج والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد

أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء فإنهم يصتدون عن سبيل الله ويحرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا ، لاسيما إذا كان الواعظ متوينا بالثياب والخيل والمراكب فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا الغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولا يخفى وجه كونه مغرورا .

(وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلوس وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوق والجندي ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض ، وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعنى في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعنى من الإسناد ما ليس مع غيره . وغرورهم من وجوه : منها أنهم كحيلة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة فعندهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع فإن السماع بمجرد سماعه وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلا لإثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم ، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدى لسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع . فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا أو اخطأ علمت خطأه .

ولحفظك طريقان (أحدهما) أن تحفظ بالقلب وتستدعيه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجارى الأحوال . (والثاني) أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره ، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمين فيه من التغيير والتحريف .

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجر لك أن تقول : سمعت هذا الكتاب ، فإنه لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئا يخالف ما فيه ولو في كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ

بقبلتك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان إنما سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذي لا يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ ، وإن استجراً جاهل فقال : يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فاینفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ، فليقتصر إذا صار شيخاً على أن يقول : سمعت بعد بلوغى أنى في صباى حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدري ما هو ؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل . ومن أين يأخذ هذا ؟ وهل للسمع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها »^(١) ، وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أخش أنواع الغرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان ولو اختلط أهل الزمان لم يجدوا شيواً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة ، إلا أن للمحدثين في ذلك جاهلوا قبالاً ، تخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم ، وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك واقتضحوا ، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجرى ؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل وإفناء أعمارهم في جمع الروايات والآسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار ، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة وسالك طريقاً بمارب كفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(٢) ، فقام وقال : يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

(و فرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغترروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ، ومثالهم كمن يفنى جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والمضيق عمره في معرفة لغة العرب كالمضيق له في معرفة لغة الترك والهند ، وإنما فارقتها لغة

(١) حديث « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها » . الحديث « أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس (٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسل وقد تقدم .

العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكنى من اللغة علم الغريبيين في الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لا تنتهى فهو فضول مستغنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور ، بل مثاله مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجين ليحول مابه من الصفراء وضيق أوقاته في تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجين فهو من الجهال المغرورين ، فذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها - أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين - قاله الألفى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالتقشر للعمل والطلب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية ، وهو قشر بطريق بالإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوقه ، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو التقشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقائمون بهذه الدرجات كلهم مفترين إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيها عن الشوائب والآفات . فهذا هو المقصود المخدم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد غاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم يتألون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع ، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك التقشر اللب في كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى . والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الألفى فن اتخذ التقشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به .

(وفرقة أخرى) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطئوا فيها . وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوى مما يكثر . ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة : فن ذلك فتوهم بأن المرأة متى أبرأت من الصدق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى ، وذلك خطأ بل الزوج قد يسمى إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتهرب الزوج لتخلص منه فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى ﴿ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب ، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامه بقلبه ولكن تكرهها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونها فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن . نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مقيدا في تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالا على ملاء من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما

فاختار أهون الأملين وهو ألم التسليم فسله ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة لإبلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الأملين ، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر ، وإنما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على مافى القلب ، وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعائته فهو حرام عليه ، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء فى قصة داود عليه السلام حيث قال — بعد أن غفر له — يارب كيف لى بخصمى ؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر ببدائه فى صخرة بيت المقدس ، فنادى : يا أوربا ، فأجابه : لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد ؟ فقال : إني أسأت إليك فى أمر فهبه لى ، قال : قد فعلت ذلك يا نبي الله ، فأنصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما علمت ؟ قال : لا ، قال : فارجع فبين له ، فرجع فناداه فقال : لبيك يا نبي الله ، فقال : إني أذنبت إليك ذنبا ، قال : ألم أهبه لك ؟ قال : ألا تسألني ما ذلك الذنب ؟ قال : ما هو يا نبي الله ؟ قال : كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب ، فقال يا أوربا ألا تجعبنى ؟ قال : يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله ، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوبه منه فى الآخرة . فهكذا يذهبك أن الهبة من غير طيبة قلب لا نفيد ، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة ، فكذلك طيبة القلب لا تكون فى الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلى الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه لا أن تضطر بوائعه إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول من زوجته واتها به ما لها لإسقاط الزكاة ، فالفقيه يقول : سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه فقد صدق فإن مطعم نظرهم ظاهر الملك وقد زال ، وإن ظن أنه يسلم فى القيامة ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع حاجته إلى المبيع لأعلى هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ، فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع ^(١) ، وإنما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا . فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه المال وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يستدعى نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة ، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات وبين الحاجات ، بل كل ما لاتهم رجوتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور ، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها فى العبادة وسلوك طريق الآخرة ، فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ، ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء فى أمثال هذا المثلنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول .

الصنف الثانى : أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره فى الصلاة . ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن . ومنهم فى الحج . ومنهم فى الغزو . ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من منهج العمل فليس غالبا عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم .

(فمنهم فرقه) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة

والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لسكان أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توساً عمر رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهى عنه ^(١) ، وقد يطول الأمر حتى يضع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فانه من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء ، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعر الأشياء فيماله مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة في عدمه عن الله بمثل ذلك .

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيسكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته ، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ، ويعترو بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجهم فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته ، لايهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الهمم إلى أسرارهِ . وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنيق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحرأه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

(وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهدونه هذا وربما يختمونه في اليوم والليل مرة ، ولسان أحدكم يجرى به وقلبه يتردد في أودية الأمان إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجه ويتعظ بمواعظه وينف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة . فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاه وماله كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويعتز باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته ،

(١) حديث : النهى عن الإسراف في الوضوء . أخرجه الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب « إن الوضوء شيطاناً يقال له الوهان ... الحديث » وتقدم في عجائب القلب .

ولو ردد الحانهُ بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون أسنتهم عن الغيبة وخواطرم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وأسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النمل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقته على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصى الله تعالى في كسب الحرام أولاً وفي إنفاقه بالرياء ثانياً فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منكراً ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب فكيف تنكر على ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم آخذ حقى وزوحت على مرتبتي ، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه ثقل عليه .

(وفرقة أخرى) جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك ، وتراه يتحدثى ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة ، وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد مجاور ويمتد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئاً شح به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المملكات كان غنا بمعزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة وأن يقال إنه من المجاورين الزمه المجاورة مع التضخم بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتنا واعتمد عليها فهو مغرور ، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة ، وفي الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب .

(وفرقة أخرى) زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظننت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالعظ أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين ، فإن الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا

[illegible]

(١) حديث « ما تقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة باللفظ « ما تقرب إلى عبدی ». (٢) حديث : من أبر ؟ قال « أمك... الحديث » أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم في آداب الصحة .

بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبيه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محدورة وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور في غاية الغموض لأن المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها . ومن جعلته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه . فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يغتر به مع نفسه ويظن أنه مشغول بهم دينه .

الصنف الثالث : المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة .

(ففرقة منهم) وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والمنطق ، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع لإطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالتفكير وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشائيل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ، ولوفرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية ؟ كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على التقير والقطير ويذوق بعضهم أعراض بعض مها خالفه في شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها بمملكة فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعودت لإيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان وكيف تحريكهم الأيدي وتلففت جميع شئامهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات ، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ماتحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عناثها في الشجاعة ، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر ؟ فقيل لها أجمتي الاستهزاء بالملك والاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فآلقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل . فكهذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضى الأكبر الذى لا ينظر إلى الزى والموقع بل إلى القلب .

(وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاعة الثياب والرضا بالدون ، فأوادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيمهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفسط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بهجزد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة

لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فسكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فأما تقطيع القوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ فهو لاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش وبأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى إل الخلق لإذيهك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المشبهين وشرهم .

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجازة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالاسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلزمهم أيا ما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددونها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحق بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ؛ ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحق الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه .

(وفرقة أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسروا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أعجب نفسي ؛ وبعضهم يقول : قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال . ولا يعلم إلا الحق أن الناس لم يسكفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصله إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويرجمون إنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة ، حتى كانوا يميكون عليها وينوحون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من المشبهين بالصوفية لا تحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول .

(وفرقة أخرى) : جاوزت حد هؤلاء واجتذبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتنا . فذهب من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويرغم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مفارقة ما يكره الله عز وجل وعن إثارة هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى . وليس يدرى أكل ذلك يناقض

الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصح دعوى التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لأعلى الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به ، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

(وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي . فن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسباحة فتصدوا لخدمة الصوفية لجمعوا قوما وتكلفوا بمخدمتهم واتخذوا ذلك للرياسة وجمع المال ، ولأنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثير أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم ، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم ، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق ، وباعث جميعهم الرياء والسمعة ، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه . ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرقة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتنا ، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والالتفات إلى كونه عيبا عيب ، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضعيق الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدعوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكير فيها ، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم والسداد على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يرجعوا على الفرع بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا فإن الله تعالى سميع حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى

إخبارا عنه ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ﴾ وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحدا ، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس ياله فشل إبراهيم عليه السلام لا يغتره الكوكب الذي لا يفتر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر ، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أقول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى إليه ويقول : قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده ، فقال ﴿ هذا أكبر ﴾ فلما ظهر له أنه مع عظمه غير حال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ﴿ قال لأحب الآفاين - إلى أن قال - إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول ، وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضا أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى ؛ أعنى سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع بجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك بشرق نوره إشراقا عظيما إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدعشه ، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول : أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا عل الالتباس ، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يترامى في المرأة بالمرأة فيظن أنه لون المرأة ، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل :

رق الزجاج ورق الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد أثلأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمده يده إليه ليأخذه وهو مغرور ، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لا رخصة في ذكره ، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم ، ولكن فيه فائدة وهو إخراجهم من الغرور الذي هو فيه بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه وما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله ، ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل .

الصنف الرابع : أرباب الأموال ؛ والمغترون منهم فرق : (فرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخذوا ذكراهم ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك . وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فإذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما بردها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فإن لم يبق للظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الابنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لالبقاء الخير .

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الابنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولو لا أنه يريد به وجه الناس لوجه الله لما افتقر إلى ذلك ،

(و فرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين :

أحدهما . الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها ، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليعلم ذلك بين الناس .

والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومحتطفة أبصارهم ^(١) والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ، وبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعتد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له ويمثل لأمره ، وقد شوق قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتبهون مثل ذلك في بيوتهم ويشغلون بطلبه وبال ذلك كله في رقبته ؛ إذ المسجد للتواضع والحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجداً فوق أحدهما على الباب وقال : مثلي لا يدخل بيت الله ، فكتبه الملك عند الله صديقا . فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلوين المسجد بدخوله فيه بنفسه جنابة على المسجد لأن يرى تلوين المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون للمسيح عليه السلام : انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه ! فقال : أمي أمي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يعبد بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا ، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زخرفت مساجدكم وحلّيت مصاحفكم فالدمار عليكم ^(٢) ، وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه ^(٣) ، ففرور هذا من حيث أنه رأى المنكر واتكل عليه .

(و فرقة أخرى) ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن

(١) حديث : النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش . أخرجه البخاري من قول عمر بن الخطاب : أكن الناس ولا تمهر ولا تصفر (٢) حديث : إذا زخرفت مساجدكم وحلّيت مصاحفكم فالدمار عليكم . أخرجه ابن المبارك في الزهد وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفا على أبي الدرداء (٣) حديث الحسن مرسل : لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه لم أجده .

الفقراء من عادته الشكر والإفشاء المعروف ويكرهون التصدق في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جنابة عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيجمعون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياحا ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه . وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء ؟ فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألني درهم . قال بشر : فأى شيء تبتغي بحجك ؟ ترهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتتفق ألني درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أنفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعييل يغني عياله ، ومربي يقيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيا واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإغاثة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك ولا تقل لنا مافي قلبك ؟ فقال : يا أبا نصر سرفى أقوى في قلبي ، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الاعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

(و فرقة أخرى) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ، يسكنونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قعه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجين ليسكن به الصفرء ، ومن قتله الحية متى يحتاج إلى السكنجين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجوع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

(و فرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردي الذي يرغبون عنده ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم ، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخر في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض ، أو يسدون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر بمن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره ، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور .

(و فرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاعتناء بأجرا ، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه سرعا في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه ، والرغبة محدودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ، وما يراود لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كركرة

النساء فيبكي ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : يا سلام سلم ! أو نعوذ بالله أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري ، أو الجامع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا .

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟ فأقول : الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق ، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستببط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزه وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجته ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجته ، وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلق في البراري والصحارى اقتنصها ، وإذا أراد أن يستنخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استنخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها ، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون الممشق من ورق التوت اتخذ ، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستباط الحيل وإعداد الآلات ، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيا الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي . كل ذلك لأن همه أمر دنياء وذلك معين له على دنياء ، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فمعجز عن تقويم قلبه وتخاذل ، وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه ؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا المهم الواحد بل هو كما يقال * لو صح منك الهوى أرشدت للحيل * فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان . فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استباط حيل الدنيا ونظم أسبابها .

فإن قلت : قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثر في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟ فأعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالفعل والعلم والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل : فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والكيس فطرة ، والحق والبلادة فطرة والبلد لا يقدر على التحفظ عن الغرور ، فصفا العقل وذكاؤه الفهم لا بد منه في أصل الفطرة ، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن . نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتنا (١) » ، إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد ، وما قسم الله خلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين . وعن أبي الدرداء أنه قيل : يا رسول الله أرايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق

(١) حديث « تبارك الذي قسم العقل بين عباده ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفي أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه نحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضا .

ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يجزى على قدر عقله ^(١) ، وقال أنس : أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف عقله ؟ ، قالوا : يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال : كيف عقله فإن الأحق يصيب بحمقة أعظم من جحور الفاجر . وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم ^(٢) ، وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال : أرجوه ، وإن قالوا غير ذلك قال : إن يبلغ ^(٣) ، وذكر له شدة عبادة رجل فقال : كيف عقله ، قالوا : ليس بشيء قال : إن يبلغ صاحبكم حيث تظنون ، فالذكاء محيى وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فانت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها .

الثاني . المعرفة ؛ وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة : فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريبا في هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعها هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليست عن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكير وكتاب الشكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبيه على الجملة وكال المعرفة وراه ، فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطلب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة . وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها ، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستمانة على سلوك طريق الآخرة . وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية . ومادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم : أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بأفات الطريق وعقباته وغوائله (وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربح العبادات شروطها فيراعيها وآفاتا فيتقيها ، ومن ربح العادات أسرار المعاش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربح المهلكات يعلم جميع العقبات المسانعة في طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ربح المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب

(١) حديث أبي الدرداء « رأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ... الحديث » وفيه « إنما يجزى على قدر عقله » أخرجه الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء .

(٢) حديث أنس : أتى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « كيف عقله ؟ » . الحديث « أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم في العلم » (٣) حديث أبي الدرداء : كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة ، سأل عن عقله .. الحديث . أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عدى ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه .

حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصيح الخلق أو نشر العلم ودعوته الناس إلى ما عرفه من دين الله ، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاء من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صامعياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه ، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فتذكر أن دواهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفى من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعزل دأؤهم وقرب هلاكهم وإشفاقهم ، وسهل عليه دأؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة ، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياضة دعاء خفياً أخفى من ديب الغل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغات والحركات والتصنع في الزى والهيئة ، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم تغدموه وقدموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلطين ، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يالها من لذة أمابت من الدنيا شهوة يستحققر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة . وأما انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب ، فإذا أنكر على نفسه ما وجدته من الغضب بادر الشيطان نخيل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريد في نفسه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور ، فربما أخرجه ذلك إلى الوقعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحذر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ،

وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ، ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يفتنم ذلك ، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى . رأس البئر بحجر كبير فعجروا عن الرق من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه لجأه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه ، أرأيت لو اهتمدوا جميعهم من أنفسهم أكان يذنبى أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم ؟ فإذا اهتمدوا بغيره فلم يثقل عليه ؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فتعوذ بالله من زيف القلوب بعد الهدى ومن أعرجاج النفس بعد الاستواء .

وإن قلت : فتنى يصح له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه ، أو لو اهتمدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بدمهم إذا كان الله يحمدده ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقرن به حمد الله تعالى ، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم . أما إلى السادات : فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة . وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع لها بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه . فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم . نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب ؟ فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »^(١) ، ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعاش وهلكت القلوب والأبدان جميعا ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم ، فلم يترك النصع وذكر مافي حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلاطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول منى لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكذلك لا تزال أسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول : إن الوعظ لحب الرياسة حرام ، كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقه والرياء والظلم وسائر المعاصي يقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام ، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ،

(١) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا .

فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ ، فأما أن تخرس السنة الوعاظ ووراءهم باعث الرئاسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا .

فإن قلت : فإن علم المرید هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى بقى بين يديه من الأخطار وحبال الغتار ؟ فأعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتني وأفلت منى بذكائك وكال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك وعملك إذ قواك على قهرى ومكانك من التفتن بجميع مداخل غرورى ! فيصغى إليه ويصدقه ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان : يا ابن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى فجهلك قد وقعت فى حبالى .

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لآمنه وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذى يخاف عليه بعد نفي العجب ؟ فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه بقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ، ومن آمن مكر الله فهو خاسر جدا ، بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه ، ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا يحصى عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزوع وكان قد بقى له نفس فقال : أفلت منى يا فلان ؟ فقال : لا ، بعد . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فإذا من الغرور هالك والمخلص الفاز من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا .

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها .

تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربيع المهلكات ، ويتلوه فى أول ربيع المنجيات ، كتاب التوبة ، والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبى بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين
وبليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة .

فهرس

الجزء الثالث من إحياء علوم الدين

صفحة	صفحة
٤٨ كتاب رياضة النفس	٢ كتاب شرح عجائب القلب
وتهديب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب	وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات
وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات	٣ بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل
٤٩ بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق	وما هو المراد بهذه الأسامي
٥٢ بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق	٥ بيان جنود القلب
٥٦ بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة	٦ بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٥٨ بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق	٧ بيان خاصية قلب الإنسان
على الجملة	١٠ بيان مجاميع أوصاف القلب وأمثاته
٦٠ بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق	١٣ بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة
٦٢ بيان علامات أمراض القلوب وعلامات	١٦ بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم
عورها إلى الصحة	العقلية والدينية والدنيوية والآخرية
٦٤ بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان	١٨ بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق
عيوب نفسه	بين طريق الصوفية في استكشاف الحق
٦٥ بيان شواهد النقل من أرباب البصائر	وطريق النظار
وشواهد الشرع على أن الطريق في	٢٠ بيان الفرق بين المقامين بمنال محسوس
معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات	٢٣ بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل
وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات	التصوف في اكتساب المعرفة لامن التعلم
٦٩ بيان علامات حسن الخلق	ولا من الطريق المعتاد
٧٢ بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول	٢٦ بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس
نشوم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم	ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها
٧٤ بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدين	٣٢ بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة	٤١ بيان ما يؤخذ به العبد من وسوس
٧٩ كتاب كسر الشهوات	القلوب وهما وخواطرهما وقصودها
وهو الكتاب الثالث مع ربيع المهلكات	وما يعنى عنه ولا يؤخذ به
٨٠ بيان فضيلة الجوع وذم الشبع	٤٣ بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع
٨٤ بيان فوائد الجوع وآفات الشبع	بالكلية عند الذكر أم لا
٨٩ بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن	٤٥ بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب
	في التغيير والثبات

صحيفة

صحيفة

- ٩٦ بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته
واختلاف أحوال الناس فيه
- ٩٨ بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك
الشهوات وقلل الطعام
- ٩٩ القول في شهوة الفرج
- ١٠١ بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله
- ١٠٤ بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين
- ١٠٧ كتاب آفات اللسان
وهو الكتاب الرابع من ربيع المهاجرات
- ١٠٨ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت
- ١١٢ الآفة الأولى من آفات اللسان الكلام
فيها لا يعينيك
- ١١٤ الآفة الثانية فضول الكلام
- ١١٥ الآفة الثالثة الخوض في الباطل
- ١١٦ الآفة الرابعة المراء والجدال
- ١١٨ الآفة الخامسة الخصومة
- ١٢٠ الآفة السادسة التتفرع في الكلام بالتشديق
وتسكف السجع والفصاحة الخ
- ١٢١ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان
- ١٢٣ الآفة الثامنة اللعن
- ١٢٦ الآفة التاسعة الغناء والشعر
- ١٢٧ الآفة العاشرة المزاح
- ١٣١ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء
- الآفة الثانية عشرة إفشاء السر
- ١٣٢ الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب
- ١٣٣ الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين
- ١٣٧ بيان ما رخص فيه من الكذب
- ١٣٩ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
- ١٤١ الآفة الخامسة عشرة الغيبة
- ١٤٣ بيان معنى الغيبة وحدودها
- ١٤٤ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
- ١٤٦ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
- ١٤٨ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة
- ١٥٠ بيان تحريم الغيبة بالقلب
- ١٥٢ بيان الأعذار المرخصة في الغيبة
- ١٥٣ بيان كفارة الغيبة
- ١٥٤ الآفة السادسة عشرة النجاسة
- ١٥٦ بيان حد النجاسة وما يجب في ردها
- ١٥٨ الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين
- ١٥٩ الآفة الثامنة عشرة المدح
- ١٦١ بيان ما على الممدوح
- ١٦١ الآفة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق
الخطأ في لغوى الكلام
- ١٦٢ الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات
الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ
- ١٦٤ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد
وهو الكتاب الخامس من ربيع المهاجرات
- ١٦٤ بيان ذم الغضب
- ١٦٦ بيان حقيقة الغضب
- ١٦٩ بيان أن الغضب هل يمكن إزالته أصله
بالرياضة أم لا
- ١٧٢ بيان الأسباب المهيجة للغضب
- ١٧٣ بيان علاج الغضب بعد هييجانه
- ١٧٥ بيان فضيلة كظم الغيظ
- ١٧٦ بيان فضيلة الحلم
- ١٧٩ بيان القدر الذي يجوز الاتصاار والتشفي
به من الكلام
- ١٨١ القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة
العفو والرفق
- ١٨٢ فضيلة العفو والإحسان
- ١٨٤ فضيلة الرفق
- ١٨٦ القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه
ومعالجته وغاية الواجب في إزالته
- بيان ذم الحسد
- ١٨٩ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

صحيفة

- ١٩٢ بيان أسباب الحسد والمنافسة
١٩٤ بيان السبب في كثرة الحسد بين الأماثل
والأقربان والإخوة وبني العم والأقارب
وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه
١٩٦ بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد
عن القلب
١٩٩ بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب
٢٠٢ كتاب ذم الدنيا
وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات
٢٠٢ بيان ذم الدنيا
٢١١ بيان المراءظ في ذم الدنيا وصفتها
٢١٤ بيان صفة الدنيا بالأمثلة
٢١٩ بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد
٢٢٤ بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي
استغرقت هم الخلق حتى أنسهم أنفسهم
وخالقهم ومصدرهم وموردهم
٢٣١ كتاب ذم البخل وذم حب المال
وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات
٢٣٢ بيان ذم المال وكراهة حبه
٢٣٤ بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم
٢٣٥ بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٢٣٧ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة
والبأس بما في أيدي الناس
٢٤١ بيان علاج الحرص والطمع والدواء
الذي يكتسب به صفة القناعة
٢٤٣ بيان فضيلة السخاء
٢٤٧ حكايات الأسخياء
٢٥٢ بيان ذم البخل
٢٥٦ حكايات البخل
٢٥٧ بيان الإيثار وفضله
٢٥٩ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتيهما
٢٦١ بيان علاج البخل

صحيفة

- ٢٦٢ بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله
٢٦٤ بيان ذم الغنى ومدح الفقر
٢٧٤ كتاب ذم الجاه والرياء
وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات
وفيه شطران
٢٧٤ الشطر الأول في حب الجاه والشهرة وفيه
بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخول الخ
بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
٢٧٦ بيان فضيلة الخول
٢٧٨ بيان ذم حب الجاه
٢٧٨ بيان معنى الجاه وحقيقته
٢٢٩ بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع
حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة
٢٨٢ بيان السكال الحقيقي والسكال الوهمي
الذي لاحقيقة له
٢٨٥ بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم
٢٨٦ بيان السبب في حب المدح والثناء
وارتياح النفس به وميل الطبع إليه
وبعضها للذم ونفرتها منه
٢٨٧ بيان علاج حب الجاه
٢٨٩ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم
٢٩٠ بيان علاج كراهة الذم
٢٩١ بيان اختلاف أحوال الناس في المدح
والذم
٢٩٣ الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه
والمنزلة بالعبادات وهو الرياء وفيه
بيان ذم الرياء إلى آخره
٢٩٣ بيان ذم الرياء
٢٩٧ بيان حقيقة الرياء وما يراى به
٣٠١ بيان درجات الرياء
٣٠٥ بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من
دبيب النمل

صحيفة

٣٠٧ بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط
 ٣١٠ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه
 ٣١٧ بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
 ٣١٩ بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم لها
 ٣٢٢ بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات
 ٣٣٠ بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
 ٣٣٢ بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه
 ٣٣٦ كتاب ذم الكبر والمعجب
 ٣٣٦ بيان ذم الكبر والمعجب
 ٣٣٩ بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجرد الثياب
 ٣٤٠ بيان فضيلة التواضع
 ٣٤٣ بيان حقيقة الكبر وآفته

صحيفة

٢٤٥ بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه
 ٢٤٧ بيان ما به التكبر
 ٢٥٣ بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له
 ٢٥٤ بيان أخلاق المتواضعين وجماع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
 ٢٥٨ بيان الطريق في معالجة الكبر وكسب التواضع له
 ٣٦٨ بيان غاية الرياضة في خلق التواضع
 ٣٦٩ بيان ذم المعجب وآفاته
 ٣٧٠ بيان آفة المعجب
 ٣٧١ بيان علاج المعجب على الجملة
 ٣٧٤ بيان أقسام ما به المعجب وتفصيل علاجه
 ٣٧٨ كتاب ذم الغرور
 ٣٧٩ بيان ذم الغرور وحقيقته وأماثله
 ٣٨٨ بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف